الموسيقى الشرقية

والغناء العربي

نصرة الخديوي اسمعيل للفنون الجميلة

وحياة عبده الحمولي

تأليف

قسطندي رزق

ثمن النسخة ٣٠ صاغ

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصرى رقم ٦ بمصر





٢٧٨

حضــرة المحترم قسطندى رزق افندى

رفعت الى الانظار العليــة الملكيــة النسخــة التى قدمتموها الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظــم من مؤلفكم " الموسيقى الشرقية وفن الغناء فى عهد المغفور له الخديوى اسماعيل باشا " فنالت حسن القبــول

وتقبلــوا وافر الاحتــرام ، كبير الامناء

تحريرا فى ١٢ يونيه سنة ١٩٣٦





ساكن الجنان المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول

نكس العلم

هل يعمون على من نكس العلم

هذا بناء الحق والملك يهدم

فؤاد ، أين ؟ ومصر غير آمنة

الريح عاتية والموج ملتطم

خلفتنا لا يرد الضيم فارسنا

ولا ينافح عن أشباله الأجم

فؤاد ، هل وقفة ؟ فالشعب مضطرم

ومصر تبكي مناها والدموع دم

أحالها الحزن أشلاء ممزقة

جسم بغير فؤاد كيف ينتظم

ليس المصاب مصابا انه ضرم ... مؤجج في نواحي القلب محتدم

فؤاد لا الصبر يأسو جرح فاجعتي ... ولا ينهنه من أحزاني الكلم

قد كنت وحي يراعي حين أشرعه ... فالآن بعدك لا شعر ولا قلم

عبد الله عفيفي





ساكن الجنان المغفور له الخديو اسماعيل





الطائر الصيت والبلبل الفرد المرحوم عبده الحمولي





عبده الحمولي ومحمد العقاد والسيدة عمر الطرابة وخليل باش أغا ساكن الجنان الخديو اسماعيل





الأستاذ قسطندي رزق مؤلف هذا الكتاب

مقدمة

لقد أشربت محبة المرحوم عبده الحمولى منذ نعومة أظفارى يوم خالط المرحوم والدى بالزقازيق وزارنا فى دارنا وغنانا غناءه العربى فأعجبت به أيما اعجاب وارتسمت فى ذهنى صورة العروبة الفخمة بما مثّل امامنا من الحركات والأقوال التى صوّرت لى إباء العرب وفروسيتهم وعظمتهم وما أتاه من شجيّ التلحين وحسن الأداء وتفخيم اللفظ الدال على معناه والابانة فى مخارج الحروف فهو حريٌّ بأن يكنى بغريد الشرق الذى لا تفتح العين على مثله وأخذت منذ ذلك الحين أشعر بتيار موسيقيّ يتمشى في عروقى الى أن أضحيت من المولعين بالغناء العربى الذى لا أصبو إلا اليه وحزت ملكة التمييز بين جيّده ورديئه لا سيما اذا سمعت ركزاً لخليط مجدد . ولما هبَّ على الموسيقى العربية عاصف التجديد وحاول أن يقتلع جذورها من تربتها المباركة الخصبة شمّرت لصد ذلك التيار عنها غيرةً على عظمتها وسحرها وابقاءً للرمق الباقى منها إذ هى الآن والعياذ بالله واقفة على مفترق طريقين لا محيد لها عن سلوك واحد منهما فاما أن تحيا وتستعيد ماضى شبابها اذا تداركها أولو الأمر منا وإما أن يسجل عليها الموت الذى لا حياة بعده إذا القينا حبل المجددين على غاربهم يجهزون على تلحيننا القومى ويرتضخون لكنةً غربية بدلا من ترديد نبرنا العربى ويشوهون محاسن الموسيقى العربية التى وضع قواعدها أسلافنا الموسيقيون المصريون ويقضون على تقاليد الشعب المصرى الذى يغني بالفطرة ويحتفظ بصبغته وتقاليده

على أنه ليس من غرضى فى هذه المقدمة الوجيزة أن أعارض فى التجديد الذى يُقصد منه زيادة ثروة موسيقانا الشرقية والتدرج بها من حسن الى أحسن كما هو شأن كل فن ينقصه التنقيح والتحسين (والكمال لله وحده) أو أن أصرف المجددين المجتهدين عن التوفر على توسيع نطاقها والنهوض بها إلى أعلى مستوى يليق بعظمتها ومجد الشرق ويحفظ لنا ما خلفه لنا السلف من الموسيقيين العبقريين من قواعد ثابتة وقوانين مرعية إذ انى أرحب بكل تجديد مبنى على الأصول ويرجع الى مستقر معروف وأسلوب مألوف لكن المجددين والأسف يملأ جوانحى فى واد ونواميس الموسيقى فى واد وقد هاموا فى أودية الضلال وأضلوا سامعيهم وليتهم تصرفوا فى التجديد على حسب القواعد الصحيحة محترمين المقاييس وراعوا النغم والمقاطع والموازين الموسيقية والتوقيع بما يطابق معنى الأغنية المنظومة ومثل الموازين الموسيقية كمثل الأبحر للشعر ذى الأشطر الصحيحة القياس

أما الألحان القديمة فيتوفر فيها حسن التوقيع وضبط الايقاع ولو كان ملحنوها يقتصرون على

نغمة أو أكثر وهى فى كل حال خير من الألحان الحديثة التى لا يتوفر فيها حسن التوقيع وضبط الايقاع فضلاً عن عدم مراعاة ملحنيها لمعنى الأغنية أو الدور أو الموشح مهما كثرت أنغامها لعدم ضبطهم القواعد الأساسية التى يجب أن تُبنى عليها أغانيهم من جهة ولعدم تمكنهم من قتل النغمات درساً من جهة أخرى ليكفلوا الحصول على جمال التلحين .

فاذا استمروا على هذا المنوال قضوا على الموسيقى العربية قضاءً مبرماً وأضحت لا أثر لها فى الوجود . وما حماية الألحان التى تكاد تبتلعها عجمة التجديد الا الاحتفاظ بروح مصر الخالدة

هذا هو الداء الدفين لموسيقانا الذى يستعصي شفاؤه اذا أهملناه ولم نعالجه بسرعة وقد وصفته وصفاً لا يخالج الخبير فيه أدنى ريب أما الدواء فيلخص فما يأتي :

(١) وجوب تأليف لجنة فنية من أعضاء المعهد الملكى للموسيقى العربية ومن الموسيقيين والشعرآء فى خارجه ممن يشار اليهم بالبنان يكون من اختصاصها الاشراف على كل لحن جديد يُلحن والقيام بفحصه بدقة من الوجهتين التلحينية والنظمية (مع مراعاة ما اذا كان لفظه ومعناه منزهين عما يُعاب) حتى اذا حاز القبول يُرخص لصاحبه بنشره واذاعته ماذا و إلا تُجرَى مصادرته بمساعدة الهيئة الحاكمة ضماناً لتنفيذ شروط اللجنة المشار اليها

(٢) يعهد الى المعهد بألاّ يرخص لرؤساء التخوت الآلات الوترية بأن يستبدلوا العازفين السابق تشغيلهم على تخوتهم بعازفين جدد لا يفقهون طرق اشغالهم ولا مزاياهم الخاصة إذ ان لكل رئيس عادة خاصة ومزية خاصة وروحاً خاصاً بدليل أن تخت الأستاذ محمد العقاد كان لا يشتغل الا برئاسة عبده الحولى ولم يستطع أى قانونجى فى عصره أن يدوزن قانونه بالسرعة التى كان يدوزنه بها محمد العقاد الكبير ولا أن يصوّر نغماته على آلته وكان لكل رئيس تخت خاص وعازفون خصوصيون لما فى الابدال من ضرر كما لا يخفى لا سيما فى عدم امكان دوزان الآلات واندماجها بعضها بعضاً لأن الدوزان والميزان لازمان للموسيقى الصحيحة وقد قال موزارت « الموسيقى ميزان »

(٣) أن يعهد الى المعهد فى تكليف أشخاص للتجول فى البلاد الريفية للبحث عن ذوى الأصوات الحسنة من الصبية الريفيين بين جماعى الأقطان والعمال بالمصانع والمحالج وغيرها لاستحضارهم وتعليمهم أصول الغناء على الطراز العربى مبتدئين بترويض

أصواتهم كترويض الأجسام على الرياضة البدنية وتمرينها على المقـامات تدريجياً واختبارهم أخيراً فوق المآذن على حد ما كان يروض أوتار صوته المرحوم عبده الحمولى على مأذنة جامع الحنفي واتباعًا لخطط الموسيقيين الغربيين فى مثل ذلك . ولا غرابة فى انتقاء الصبيـــة من بلاد الريف فى الوجهين القبلى والبحرى لأن عبده عبقرى الشرق رأت عيناه النور فى (حامول) ومحمد عثمان الصعيدى أصلا (من طهطا) وُلد فى حى بولاق حيث كان يتمرن على أعمال البرادة فى ورشة . ويقوم المعهد بدفع نفقات هذا النشء ويحتم عليه أن يعلمه الموسيقى العربية بحذافيرها وعلى حسب قواعدها مع ادخال النظم الحديثة المختارة فيهـــا بشرط أن تلائم الذوق المصرى ، ولا تمس جوهر موسيقانا أو تشوّه محاسنها .

(٤) على الصحافة المصرية الحرة التى يناط بها ارشاد الأمة الى سبيل الهدى ألاّ تألو جهداً فى لفت نظر الأمة والمجددين على صفحات جرائدها إلى وجوب مراعاة الشروط السابق الايماء اليها احتفاظًا بجمال موسيقانا وثروتها وقوتها التى هى أشهر من أن يُنبه على وجوب الاحتفاظ بطابعها الشرقى وصبغتها وذوقها السليم المصرى البحت لأن الدين إمحاض النصـــيحة والصراحة حياة الحق ومثلها كمَثل عصـــير الشجرة فلا تحيا إلا به وبدونه تيبس أغصانها وموتًا تموت وكل شعب يقبل الأمور على علاّتها بدون تمحيص ولا بحث ولا برهان استناداً على عوامل مؤثرة أو جاه أو ثروة أو دعاية غير صحيحة يكون هدفاً للتغرير والخدعة وقد وجدت لزامًا علىّ فى إبان النهضة القومية فى جو الحرية والدمقراطية أن الفت النظر الى مجابهة الحقائق بلا وجل ولا محاباة ولا تقليد أعمى بل بثقة وصدق وشجاعة وحسن نية فى ظل مليك البلاد المعظم جلالة فاروق الأول الدمقراطى الذى ولا شك سيحذو حذو جلالة والده فى السهر على الفنون الجميلة وغيرها ، ويعمل على النهوض بمصر الى ذروة المجد والسعادة ولولا مجهود ساكن الجنان والده لما كان لأى هيئة فنية أو رسمية فى مصر من أثر ولا قامت للموسيقى قائمة. وعسى المحدثين بعد هـــذا التنبيه أن ينزعوا عن طائش رأيهم فى التجديد ويثوبوا الى الصواب فان الرجوع الى الحق محمدة والمضي فى الباطل منقصة . وفقنا الله الى السبيل السويّ وهو مالك الامور ؟

المؤلف

لمحة

فى تاريخ الخديو اسماعيل

ونصرته للفنون الجميلة

لما كان همّ المغفور له الخديو اسماعيل نشر العلوم والمعارف ، و إحياء الزراعة ، وتوسيع نطاق الصنائع الوطنية ، وترويج التجارة ، وتثقيف المرأة ، وتشجيع الفنون الجميلة ، وفي مقدمتها الموسيقى العربية ، والغناء والتمثيل ، نشط للجري في سبيل الأمم المتمدنة ، ولم يألُ جُهداً في تحسين الصلات ، وتمكين الألفة بين المصريين ، و بين الجاليات المتوطنة في مصر ، حتى بلغت في عصره الذهبي ذروة المجد ، وأوج الحضارة والمدنية ، وأصبحت حرِيَّة بأن تُعد قطعة من أوربا لا من أفريقيا كما صرَّح بذلك شخصياً

ومن مآثره الجليلة ، أنه كان أبا الفلاح يدافع عن كيانه ، ويحمى ذماره ، وكان شغوفًا بالزراعة إلى أبعد درجة ، وكان يحب مصر حباً صحيحًا متغلغلاً في قرارة نفسه ، فاحتفظ بتقاليدها القومية ، وطابعها الشرقي الذي اتَّسَمت به ، وتفانى في رفع منارها في بلاد الغرب ، و باهى بشعورها ، ونشر لغتها ، لغة الجمال والمجاز ، وتعظيم الناطقين بها في أنحاء الشرق ، بدليل ما عرضه سنة ١٨٦٧ في معرض باريس الذي اشتركت فيه الحكومة رسمياً ، من تماثيل قديمة ، ومن مومياء لرعمسيس الثاني ، الملقب بسيزوستريس أكبر الملوك الفاتحين ، التي أُكتشفت سنة ١٨٨١ ولغيره من الفراعنة ، ونماذج للحياة المصرية القديمة ، كبيت شيخ البلد ، وهياكل ، ومصانع للتفريخ التي لم يعترها أدنى تغيير ، منذ خمسة آلاف سنة ونيّف لغاية الآن ؛ بالرغم من أن في خلالها دالت دول ، ودُكَّت عروش ، وأشكال « وكايل » و بيوت على أقدم طراز ، فسيحة الارجاء ، تطل نوافذها من الداخل على ردهات مقامة في

وسطها فسقيات مزينة بالفسيفساء ، وعلى سطوحها قبابٌ جميلة ، وبخارجها تُرى مشربيات بارزة بديعة الصنع . وكذلك عرض الحياة المصرية الحديثة بما امتازت به من مصنوعات فائقة الوصف ، كالأقمشة المطرزة بالذهب ، والأواني الخزفية ، والجلود المدبوغة والمنقوشة نقشًا بديعًا . ومن آلات الطرب : العود ، والقانون ، والكمان ، والناي ، والربابة التي كان يفضلها على الكمان لأنها مصرية بحت ، والمزمار البلدي ، والصنوج ، والصاجات لزوم الرقص البلدي ، والدربكة ، والرق ، والطار ، والنقرية « والسنتير » مما كان مهوى أفئدة المتفرجين والزائرين للمعرض من سائر بلاد الغرب لا سيما اسكندر الثاني ، وفرنسيس يوسف أمبراطوري روسيا والنمسا ، وفكتور عمانويل الثاني ملك ايطاليا ، وغليوم ولي عهد بروسيا ، والبرت ادوارد ولي عهد انكلترا ، والسلطان عبد العزيز الذين طأطأوا رؤوسهم المتوّجة إكباراً وإجلالاً لتمثال ومومياء رعمسيس ، وسائر المعروضات جملةً ومفترقًا ، وأضحوا يتأملون تأملاً ملياً في سر تحنيطها ودقة مصنوعات المصريين حتى انتهوا الى استهتار ما أتاه الغربيون من ضروب الابتكار ، وصنوف الاكتشاف والاختراع .

على أن مجهوده لم يقف عند هذا الحد فحسب ، بل أنه لما قفل راجعًا الى مصر بعد رحلته الى أوربا حيث شاهد المباني الناطحة للسحاب ، والمنشئات البديعة ومسارح التمثيل والغناء ، والمدارس ، والمعاهد العلمية ، والأندية الأدبية ، دبت فيه الغيرة الصادقة على مصلحة مصر ، فأخذ على عاتقه أن يقيم فيها اقتداء بالغرب القصور الفخمة ، ويشيّد دوراً للعلوم ، ومعامل للصنائع . فأنشأ في ربيع سنة ١٨٧٣ مدرسة السيوفية للبنات المجانية ، داخلية وخارجية ، ومدرسة ثانية بالقربية لشدة الحاجة اليها ، أمّتها بنات الأمراء والعظماء ، وأكابر الموظفين . وكانت برامجهما تشمل تعليم اللغتين ، العربية والفرنسية ، والجغرافيا ، والرسم ، والموسيقى العربية ، وأشغال الابرة ، والتطريز ، والطبخ ، والتدبير المنزلي . وشجّع الأهلين على وجوب تثقيف عقول البنات بنوع خاص ، لتضرب المرأة بسهم وافر من العلم يرفع منزلتها ، وتبلغ به المكانة اللائقة بها ، بين الأمم المتمدنة ، وتكون عضواً قوياً في المجتمع الانساني ، وكوكبًا منيراً يستضاء به ، في حياتها الزوجية ، ومثالاً صالحًا ، في تربية

ابنها وابنتهـا ، فينشآن عضوين سليمين عقلاً وروحًا وجسماً ، نافعين لنفسيهما ولأمتهما معًا (والعقل السليم في الجسم السليم)

حديقة الأزبكية

ومما لا يختلف فيه إثنان ، أن الازبكية كانت مستنقعًا ينبت فيه النبات المائي الكثيف ، و ينقف بيض البعوض الناقل للعدوى ، فأُزيلت بناءً على أمره السامي تلك المياه الراكدة ، بمعرفة برهان بك مدير الادارة بوزارة الأشغال العموميـة سنة ١٨٣٧، وغرست الأشجار على اختلاف أنواعها ، صفوفًا منظمة ، واكتست أرضها بثوب سندسي قشيب ، يشرح الصـدر ، و يقرّ العين . وأقيمت فى وسطها الفسقيات التي تنفجر من فوّهاتها المياه المتلألئة ، ورُبي فيها أجمل أنواع السمك ، وأُنيرت مصابيح الغاز في أرجائها ، وبُنيت الجبلاية على أبدع طراز ، وهي لا تزال ماثلة أمامنا للآن ، وصفّت الأكشاك الحديدية حولها من الداخل ، حوت تخوتًا للطرب ، غنّى فيهـا أشهر المغنين والمغنيات ، فصيّر مجهوده وابتكاره من المستنقع الآسن رياضًا تجري من تحتهـا الأنهار ، وأطياراً تغرّد على أفنان خمائلها ، ووجوه حسان تلوح في غدران مناهلها ، وتحت ظلال نارجيلها ، و يُقدَّر مسطحها بنحو ١٧٠٫٠٠٠ متر مربع . وكانت أرضهـا موقوفة لآل البكري ، واستبدلت بأطيان بناحية بهتيم ، تزيد على مساحتها أضعافًا مضاعفة . وقد أصدر أمره الكريم بتشييد مسرح للكوميديا بناحية منها في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، واحتفل بافتتاحه فى مساء ٤ يناير سنة ١٨٦٨ حيث بوشر التمثيل دون أن يمضي على إنشائه اكثر من اثنين وأربعين يومًا .

الأوبرا

أما الأوبرا ، فقد بُنيت سنة ١٨٦٩ في مدة لم تزد على خمسة شهور ، وبلغت تكاليفها نحو ١٦٠ الف جنيـه ، فأحضر اليها من أوربا فرَقًا للتمثيل من أعلى الطبقات . وكانت أول الروايات التي مُثلت فيها بوجه التحقيق رواية « ريجولوتو » التي حضرها كلٌّ من الخديو اسماعيـل ، والدوق والدوقة داوست ، وذلك في أول نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، كما جاء بالجريدة الرسمية بتاريخ ١ منه .

ولشدة ولعه بالمصرية كلف مارييت بك آنئذٍ بتأليف رواية « عائدة المصرية » وأناط ڤردي الموسيقي الطلياني الشهير بتلحين أنغامها الشجية ، فقـام بتمثيلها أقدر

الممثلين والممثلات في مساء ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٢ ، وعزفت الأوركستر الطليانية بنغماتها الشجية ، عزفاً أخذ بمجامع القلوب ، وسُرَّ منه الخديو اسماعيل سروراً أدى به إلى منح ڤردي وجوقتــه ١٥٠٫٠٠ فرنك ذهب . ثم أنشأ بعد ذلك المسرح الهزلي الفرنسي "La Comédie Française"

التمثيل العربي

أما ما كان من أمر التمثيل العربي ، فكانت حجر زاوية بنائه ، فرقتا التمثيل لسليم نقاش ويوسف خياط . ومن الروايات التي حضر الخديو اسماعيل تمثيلها ، أذكر روايات « أبي الحسن المغفل » و « هارون الرشيد » و « أنيس الجليس » وبعض روايات أخرى لموليار الشاعر الهزلي الفرنسي مثل روايات « البخيل » و « الطبيب رغم أنفه » و « الشيخ متلوف » و « النساء العالمات » التي قام بتعريبها عثمان بك جلال المعروفة بما يأتي

"L'Avare, le médecin malgré lui, Matluf, ef les femmes savantes

ولما كانت الروايات التمثيلية من أنجع الوسائل ، وأفعــل العوامل في تهذيب الأخلاق وتنوير الأذهان ، وحث النفوس على الفضائل والمحامد ، بمــا تصوره للحاضرين من مناظر الفضيلة والرذيلة ، والعدل والظلم ، والوفاء والغدر ، والصدق والكذب ، إلى غير ذلك من الخصال ، بارزة تحت ثوب من اللهو والفكاهة والجد فضلاً عما تنطوي عليه من حقائق ثابتــة ، ووقائع تاريخية ، وحوادث وعِبَر لهذا الكون ، تتكرَّر على مرور الأيام (ولا جديد تحت الشمس) عمد المغفور له الخديو اسماعيل إلى تشجيع أبناء وادي النيل على غشيان دور الأوبرا ، ومسارح التمثيل الراقي ، والملاهي البريئة ، رغبة أن يريهم بعين النقد ، ونور البصيرة ، العبَر في حياة من مضى من الأمم ، اتباعاً للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بدلا من سماعهم القصص الخرافية ، وحماسة عنترة بن شداد ، وحروب الزناتي خليفة ، والزير سالم ، وسير أبي زيد الهلالي سلامه ، وقصص الف ليلة وليلة ، وحضور الألعاب البهلوانية والأراجوز التي اتسع مجالها عند المصريين ، وأصبحت مهنة لأرباب الجهالة والدهاء يتفننون في متنوع أساليبها ، جرًّا لمغنم من أهل السذاجة فيهم ، وذلك في بدء توليه الأريكة الخديوية . وكان لشدة عطفه على تلاميــذ المدارس العليا كالمهندسخانة

مثلا أو غيرها ، يبعث اليهم تذاكر خصوصية إسوة بأولاده الأمرآء لكي يحضروا معهم التمثيل الروائي في الأوبرا

و بالجملة فان فن التمثيل كان معدوماً فأوجده في مصر العزيزة ، دون أن يتمتع بمزاياه سائر البلدان الشرقية لما أن العرب كانوا بوجه عام يقتصرون على عرض منتجات قرائحهم في سوق عكاظ ، وكانوا يعلقون على جدار الكعبة الشريفة الشعر الاكثر طلاوة الذي صيغ من أخلص النضار . فمن أين يا تُرى يمكن أن تستنير عقولهم بالحكم والمواعظ والعبر المستمدة من الوقائع التاريخية ، والحوادث الواقعية ، التى تمثلها تحت الحس الروايات التمثيلية إذا غابت عنهم معرفة فوائدها ولم يستعملوها بين ظهرانيهم لأنهم يتخذونها هزؤًا ، و يصفونها بالمهنة السافلة ، بدليل أن الأدوار التي يجب أن تقوم بتمثيلها المرأة خاصة على المسرح في فرقة يوسف خياط كان يُعهد فيها اضطراراً إلى غلام لم يتمكن من الاجادة فى تمثيلها بطبيعة الحال ، حتى أن الشيخ القبانى نفسه أول الممثلين وأبرعهم فى زمانه ، كان رغم تقدمه فى السن يقوم بدور المرأة ، لما كان عليه فن التمثيل من قبيح السمعة ، وتكون المرأة كما قدَّمت معرَّة قومها اذا جرأت على الاشتراك فيه بعكس الغربيين ، وعلى رؤوسهم ملوكهم وعظماؤهم وعلماؤهم وحكماؤهم فانهم أحلوا هذه المهنة فى أعلى منزلة وأرفع مقام من الحضارة والمدنية . وقد عُنى بتأليفها أكابر شعرائهم ، أمثال شكسبير ، وموليار ، وراسين ، وكورنيل ، وڤولتير ، وفيكتور هوجو ، و برنارد شو ، وغيرهم . فهل فى هذه الحالة يتهمون بالزيغ والخبث ، والتسكع فى بيداء الغرور والغواية ؟

الموسيقى

أما الموسيقى ، فان من اطلع على تاريخ مصر الحديثة ، وتدبر ما للمصريين فى أساليب معيشتهم من شديد الميل إلى المرح والجذل ، وحب الغناء العربى بالفطرة ، وتفضيله على سواه أيقن أن ديدنهم ومذهبهم توجيه عزائمهم إلى الاتساع والابداع فى أساليب الغناء بشرط ألا تشرد عن قواعدها الأساسية ، وألا تصيبها عجمة تسأمها الطباع . وليس ذلك بغريب لديهم لما أن المغفور له محمد على باشا الكبير نابوليون الشرق المصلح العظيم ، و بالرغم من ان أصله من قوله يعد أول المولعين بالموسيقى الشرقية فأسس فى مصر مدرسة للأصوات والطبول سنة ١٨٢٤

ومدرسة بناحية الخانقاه فى شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ ، ومدرسة للعزف بالنخيلة فى ابريل سنة ١٨٢٩ ومدرسة للمحترفين (الآلاتية) سنة ١٨٣٤ . وانتقل هذا الميل بالوراثة منه إلى أبنائه وأحفاده ، بدليل أن الخديو اسماعيل شغف بها شغفًا شديداً وأرهف غرار عزمه لتوسيع نطاقها ، فأصبح للعلوم والفنون الجميلة نصيراً ، وللموسيقى الشرقية والغناء العربى حاميًا وظهيراً . فما كاد يظهر عبده الحمولى فى عالم الغناء فى القاهرة حتى قربه الخديو اسماعيل اليه ، لما ألفى فية من عبقرية وبرخامة صوت وكان له من أكبر المشجعين على التصرف فى وضعه واشتقاقه ، ليكسوه لباسًا يستوفى به زينته وجماله ، فأوفده فى الحال على حسابه الخاص الى الاستانة ليقتبس عن الموسيقى التركية الغنية ما يروق له ليختار من نغماتها ما يلائم الذوق المصرى ، ويطابق الروح الشرقي . فأدمج فى الموسيقى العربية من النغمات التركية ، النهوند ، والحجاز كار ، والعجم عشيران ، وسائر الآهات ، مما جعل الفن مدينًا لعبده وبالتالى لساكن الجنان الخديو اسماعيل الذى هيأ له جميع أسباب النجاح ، وأطلق له العنان فى مجال الاصلاح حتى ألحقه بمعيته ، وخصص الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى لتعليم أبنائه .

في تعضيده للادب والأدباء والصحافة

وقد عين الشيخ علي الليثي شاعراً بالمعية السنية والدكتور احمدحسن الرشيدى طبيبًا له ، وقرَّب اليه الشيخ على أبا النصر المنفلوطى الشاعر الكبير ، وعبد الله باشا فكرى ، وألحق نقولا بك توما باحدى وظائف الحكومة ، وأجزل لابراهيم المويلحي بك العطاء الذى به استعاض عما جرَّته عليه التجارة من خسارة ، وله اليد الطولى فى تشجيع الصحافة على الانتشار فى أنحاء القطر فى الزمن الذى لم يكن به فى مصر الا الجريدة الرسمية تنويراً لأذهان الأمة ، وتوسيعًا لنطاق النهضة الأدبية التى بها تُرفع من كبوة الجهل السائد فيها ، وحض رجالها على إدمان البحث والكتابة فيما ينمى ثروة البلاد ، والحث على إحياء الصنائع وترغيب الأغنياء من المصريين فى إنشاء المعامل طلبًا للاستغناء عن المصنوعات الأجنبية ، أسوة بجده المغفور له محمد على باشا الذى شجع عائلة الزند اللبنانية على تربية دود القز بأن منحها على ساحل بحر مويس بجوار الزقازيق أرضًا واسعة سميت بكفر الزند وزرعت بأشجار التوت لتغذية دود الحرير حتى نمت تلك الصناعة وازدهرت فى عهده

وقد ظهرت سنة ١٨٧٣ فى عالم الصحافة جريدة مصرية شكلا وعثمانية النزعة فعلا باسم « كوكب الشرق » لصاحبها سليم حموى بك آنئذ ، وكانت تصدر فى الاسكندرية ، ولما احتجبت عن قرائها لحاجة صاحبها الى مال عمد الى طلب إعانة من الخديو اسماعيل ، فلما مثل بين يديه ، سأله عن المقدار اللازم من المال لاستئناف عمله فأجابه قائلا « ان خمسين جنيهًا تكفينى يا أفندينا » فامتعض من جوابه وأمر بصرف هـذا المبلغ الضئيل له ، وكان يود من صميم قلبه أن يعطيه ما يكفيه أعوامًا لا شهراً ولا يومًا إذ لم يخلق فى العائلة العلوية المحمدية من هو أسخى منه يداً ، ولا أطيب نفسًا . فأخذ المبلغ حموى بك نادمًا ندامة الكسعى ، لأنه تحقق بعد فوات الفرصة أنه لو ضاعف مبلغه أضعافًا مضاعفة لما تأخر الخديو عن صرفه لينهض به من كبوة العوز ، و يتمكن من استئناف إصدار جريدته التى قضي عليها بعد حين

أما جريدة « الاهرام » التى أنشأها المرحوم بشارة باشا تقلا شيخ الصحافة وكبيرها بمعاونة أخيه المرحوم سليم بك الشاعر المفلق ، والكاتب المتفنن سنة ١٨٧٥ فانها تعتبر أول جريدة عربية أنشئت فى القطر المصرى فى عهد الخديو اسماعيل بعد كوكب الشرق والجريدة الرسمية . وكانت تصدر بادىء بدء فى الاسكندرية حتى سنة ١٨٩٨ ، و بعد ذلك نقلها صاحبها الى القاهرة . وكانت المورد العذب الوحيد الذى استمد منه الشعب المصرى الأدب وأصدق الأخبار ، وأدق المباحث المفيدة للمجتمع ماديًا وأدبيًا .

قنال السويس

أما قنال السويس ، فكان تمامه على عهد الخديو اسماعيل ، وفُتح فى اليوم السابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩ باحتفال باهر دعا اليه أمبراطور النمسا والامبرطورة أوجينيا زوجة الامبراطور نابليون الثالث . وأقيمت فى وسط ساحة الاحتفال ثلاث منصات خشبية مرتفعة مكسوة بالديباج والحرير ، جلس على المتوسطة منها أصحاب التيجان ، وأولياء العهد ، والأمراء ، والعواهل . وعلى المنصة التى على اليمين جلس من علماء الدين الاسلامي الشيخ مصطفى العروسى شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدى العباسي مفتى الديار المصرية . ولما تُوفي تعين بدله نجله الشيخ محمد أمين

المهدى ، ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، على ما رواه لى السيد امين المهدى حفيده ، ولكن الخديو اسماعيل استصدر فرمانًا شاهانيًا بتعيين قيم عليه بصفة استثنائية الى أن يبلغ رشده لأنه يعطف على البيوت المصرية الطيبة العنصر . وقد اشتهر بغزارة العلم وطول الباع فى أصول الشريعة الغراء حتى كانت تعد فتاويه المسماة بالفتاوى المهدية مرجعًا من المراجع الشرعية الراجحة التى يعمل بها على المذهب الحنفى .

أما المنصة الثالثة فجلس عليها الأحبار ، وفى مقدمتهم القاصد الرسولى ونصبت المظلات لجماهير المتفرجين والزائرين على الشاطئين الاسيوى والافريقى ، وعند نهاية الاحتفال قدم العلماء الشكر لله على نعمه الجزيلة ، وتلاهم الاحبار فأنشدوا ترتيلة الشكر المعروفة بـ "Te Deum" وتعانق العلماء مع الاحبار رمزاً الى تعانق الصليب بالهلال ، وتجلى روح التعاون والمحبة بأجلى معانيه أمام ملوك الغرب مما دحض زعم رديارد كبلنج القائل بأن الشرق والغرب ضدان لا يجتمعان وظهر للعيان أن أبناء النيل تحت حكم الخديو اسماعيل مصريون مهما اختلفت عقائدهم الدينية ، وتباينت نحلهم وأصبحت الصحراء القاحلة مزارع خصبة بفتح القنال الذى جنت منهُ مصر فوائد جمة مادية وأدبيةوسياسية تزداد كل يوم بازدياد الصلات وتوثيق عرى التعاون بين الشرق والغرب – هذا فضل من أفضاله ومأثرة من مآثره فان لم يكن له سواهما لكفى .

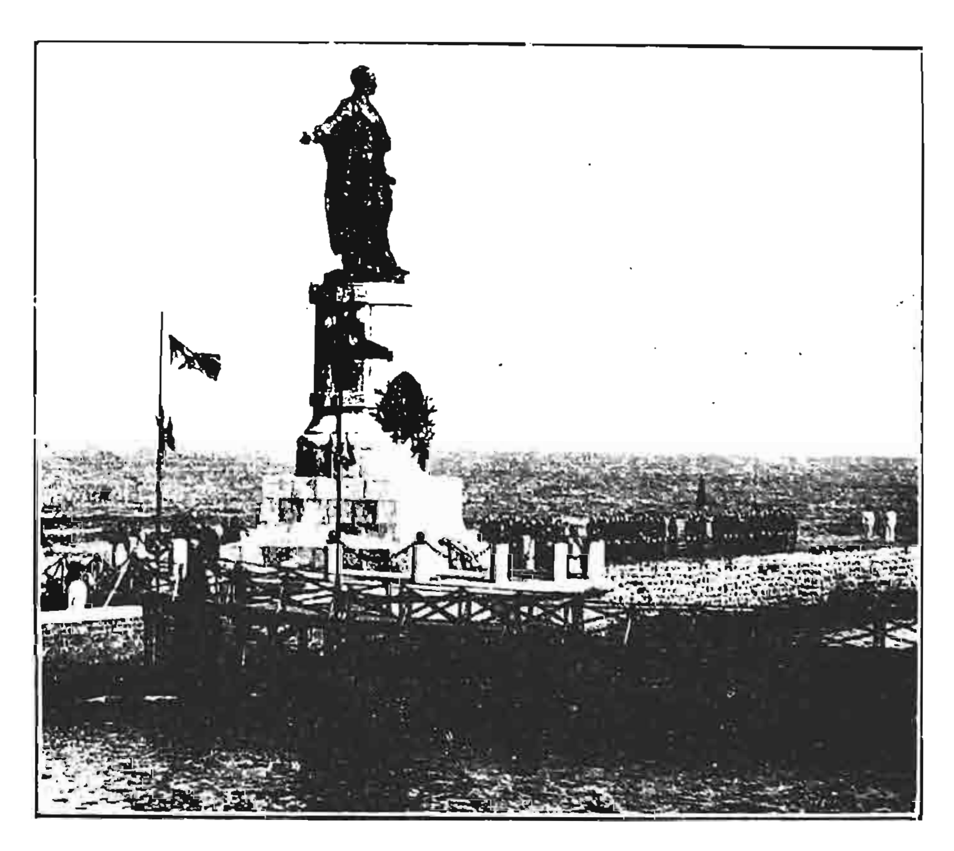
على أن الملوك زائريه قد استعرضوا أجناسًا من الأمم ونماذج



(الأمبراطورة أوجينيا على ظهر الهجين)

مختلفة تقع تحت حكمه السعيد ابتداء من الاسكندرية الى خط الاستواء ممن حضروا هذا المهرجان من الوفود من الفلاحين والصعايدة وقبائل العرب والسودانيين لابسين على رؤوسهم العقال والطرابيس والعمائم والطواقى واللبد وهم يلعبون على صهوات خيلهم العربية المطهمة على أصوات مزمار الفناجينى الدمياطى ويركبون أسنمة الهجن وظهور الحمير للسباق على أصوات الرباب ودقات الطبول البلدية وقد آثرت الامبراطورة فى الذهاب الى القصر على ضفة الاسماعيلية. والاياب منه ركوب الجواد والهجين على العربة الاوربية.

ومن دواعى الأسف الشديد أن مصر لم تقم للخديو اسماعيل اعترافاً بفضله بجانب تمثال فردينان دى لسبس تمثالا له فى قنال السويس الذى حفره بأرض مصر



(تمثال فردينان دى لسبس)

برجال مصر. وقد أميط الستار عن وجه تمثال الثانى باحتفال فخم فى اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٩ الذى يماثل اليوم الذى احتفل فيه بفتحه. حقاً ان ذلك قد وقع ذهاباً الى الحكمة المأثورة القائلة بأن لا نبى يكرم فى بلده



(الأمبراطورة أوجينيا)

والأدهى من ذلك أن الخديو اسماعيل لما عمد الى إلغاء السخرة التى كانت حجر عثرة فى سبيل القيام بأعباء الزراعة تصدت له الشركة واضطرته الى سحب أمره إنجازاً للعمل وطبقاً لما هو منصوص عليه فى عقد الاتفاق بينها و بين سالفه المغفور له سعيد باشا سنة ١٨٥٤ وليت المسألة وقفت عند هذا الحد ، بل طالبه نابوليون بدفع مبلغ ١٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه ترضية له جزاء دفاعه عن الفلاح المسكين وميله الى تخليصه من السخرة التي وجد أن لا مسوغ لبقائها فى عصر المدنية وهى من بقايا الظلم فى عهد الفراعنة فى إبان بناء الاهرام ، ورفع المسال الذى امتدت أغصانه حتى عهد المماليك ، الذين كانوا يستعبدون الرعية و ينهبون أموالهم . على أنه من جهة أخرى استعاض عن هذه الغرامة الفادحة بأن استرجع من شركة القنال أرضاً مصرية فى وسط الصحراء تمتد الى حدود الداتا يقدر مسطحها بـ ٦٠٠٠ هكتار أرادت أن تغتصبها لنفسها وانتهى بضمها الى أملاك الوطن . وقد قدرها نابوليون آنئذ بمبلغ ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك أى ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه . ولا يعزب عن بال الباحث المنصف أن لهذا المجهود العظيم قيمته الأدبية الغير ملموسة ، فضلا عن قيمته المادية الواضحة بما يسجله له التاريخ بالفخر المبين بين ما قام به من عظائم الأعمال .

ومما لا ينكره عليه المغرضون أن العمارات التى شيدها ، والقصور الفخمة التي بناها قد انتفعت بها الحكومة على توالى السنين بأن اتخذتها مقراً لمختلف الوزارات ومركزاً للمصالح الحكومية والمعاهد العلمية والفنون الجميلة

وقد نزع الى تقريب المسافات وتسهيل المواصلات ، فبنى ٤٢٦ كوبريًا منها ٢٧٦ فى الوجه البحرى و ١٥٠ فى الوجه القبلى وحفر ١١٢ ترعه أهمها ترعة الاسماعيلية البالغ طولها ٩٨ كيلومتراً وحفرها ١١ مليون متر مكعب وترعة المحمودية وترعة البحيرة مما أدى إلى إصلاح نحو ١ر٣٧٣ر٠ فدان من أراضى الصحراء أنتجت ما تقدر غلته بـ ١١ جنيه أو ريعًا سنويًا قدره ١ر٤ ر٠ جنيه ومما يؤيد ذلك ما جاء فى كتاب بيتر كارابيتس القاضى عن أدون دى ليون القنصل الأميركى فى سنة ١٨٧٥ حيث قال ما يأتى بنصه وحرفه « ان التصليحات والتحسينات والأشغال العموميــة التى شرع فيها الخديو اسماعيل وأنجزت فعلا فى مدة الاثنى عشرة سنة فى مصر كانت مدهشة وعجيبة ولا مثيل لها فى أى قطر من الأقطار بلغت مساحته أربعــة أضعاف مساحة القطر المصرى وسكانه أربعــة أضعاف سكانه »

تضحيــة الخديواسماعيل وتشجيعــه للتجار المصريين

لما زاد فيضان النيل سنة ١٨٧٠ وهدّد ثلاث قرى فى القطر بالغرق أمرالخديو اسماعيل بأن تكسر الجسور بين أطيانه الخاصة فغمرتها الميــاه وسببت له أضراراً قدّرت بأربعة ملايين فرنك . فآثر نفع الفلاح على نفعه ، وضحى بأطيانه فى سبيل حماية الفلاح من الأذى الذى كان سيناله من الفيضان .

وتبيانًا لتشجيعه التجار المصريين وايثارهم على الأجانب فى جنى الأرباح ولو كانت من ماله الخاص اجتزىء من تاريخ المرحوم الياس الأيوبى بايراد ما يأتى بحروفه :

« ومن أفضــل ما يحسن ذكره بمناسبة أفراح الأنجال أن طه باشا الشمسى ناظر الخاصة الخديوية فى ذلك الحين وهو حمو حضرة صاحب المعالى احمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية الآن ، كلف عدة محال تجارية بتقـديم مناقصات لتوريد كل ما يلزم من فرش وبياضات ودنتلات ورياش لجهاز كل من الأميرات العرائس . فلما قُدّمت وقع اختيار طه باشا على مناقصة محل پاسكال الفرنسوى ويعرفه كل من زار مصر القاهرة حتى سنة ١٨٩٢ ، لأنهــا على جودة البضاعة المقدمة نماذج منهــا كانت على رخص فى الأثمان يرغب فيه . ولكنه لما عرَض ما وقع اختيــاره عليه للخديو اسماعيــل سأله الخديو « ألم يتقدم فى هــذه

المناقصة محل مصرى وطنى مطلقًا ؟ » فأجابه طه باشا « نعم يا مولاى » فقد تقدم ضمن آخرين محل مذكور ، ولكن الأثمان التى عرضهـا مُبالغ فيها لا توافق ، لأنها تزيد خمسة وعشرين فى المائة على الأثمان التى يطلبها محل «باسكال» فقال الخديو اسماعيل « أرني مناقصته والنماذج المرفقة بها » فقدمها طه باشا فوجد الخديواسماعيل أن الأثمان المكتوبة على تلك النماذج تزيد حقيقة خمسة وعشرين فى المائة على ما يطلبه محل باسكال لكنه وجد أن نوع البضاعة واحد عند الاثنين فضرب بمناقصة محل باسكال عرض الحائط ، وقال لطه باشا « خذ كل ما نحن فى حاجة اليه من محل مذكور وادفع له خمسة وعشرين فى المائة فوق ما يطلب . فبدا فى عينىّ طه باشا استغراب بالرغم من أن فمه نطق بعبارات الامتثال . فقال الخديو اسماعيل له «يا طه باشا اذا كانت المحال التجارية المصرية لا تنتفع ولا تستفيد من أفراح أولادى . فمن أفراح مَن تريد ان تستفيد وتنتفع ؟ » فاغتنمها محل مذكور وهى طائرة وزاد على أثمان كل ما قدمه ما امكنه زيادته . فكان ذلك من أسباب الثروة التى أحرزها » اه .

أفراح الأنجال

أقيمت ابتداء من يوم ١٥ يناير سنة ١٨٧٣ الأفراح البهيجة احتفاء بزواج الامراء توفيق وحسين وحسن أبناء الخديو اسماعيل من ربات الصون والعفاف الأميرات أمينة هانم بنت إلهامي باشا ابن المغفور له عباس الأول وعين الحياة هانم بنت الأمير احمد باشا ابن المغفور له ابراهيم الأول وخديجة هانم بنت الأمير محمد على الصغير ابن رأس الأسرة المحمدية العلوية المغفور له محمد على باشا الكبير وزواج أختهم الأميرة فاطمة هانم بالأمير طوسن ابن المغفور له محمد سعيد باشا ودامت أربعين يومًا كاملاً ، باعتبار عشرة أيام لكل عرس من الأعراس الأربعة ولا يزال الآن ذكر محاسنها يسير فى الآفاق . ولذلك قد زينت العاصمة بأبهى الزَين ، ورفعت أقواس النصر فى أهم الميادين . وأقيمت الأكشاك والمنصات للجوقات الموسيقية ولتخوت المطربين والمطربات . وفى مقدمتها تخت المرحوم عبده الحمولى الذى اذا أنشد نقل بنغماته الساحرة من سمعه إلى جنة الخلد وتخت (ألمظ) التى فتنت العقول برنين صوتها الرخيم ، ناهيك بأشهر الراقصات المصريات

وفى مقدمتهن صفية وعائشة الطويلة اللتين استعبدتا القلب والنظر فيما قاما به من حركات وتموجات ورشاقة وخفة

ميثاق الخديو اسماعيل

ومما يحسن إيراده تفكهة للقارىء وبياناً للحقيقة بمناسبة تزويج الأمير حسن من الأميرة خديجة أن الخديو اسماعيل حينما ادخلها المدرسة المعدة للأميرات وتبين من فحوى كلامها توقد ذهنها وسرعة إدراكها وعدها بالزواج من أحد أولاده إذا اجتهدت فى طلب العلم . فعنّ له يوماً أن يزور تلك المدرسة ليتفقد حال الطالبات فيها ، فلما وصل الى الأميرة خديجة ، سألها قائلا « الى أين بلغتِ من تعلم القرآن يا ابنتى ؟ فأجابته من فورها وقالت « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد » فسرَّ الخديو وارتاح لجوابها وقال لها « نعم نعم » ثم برَّ لها بوعده فلا غرابة فى لطيف إشارتها الى سابق وعده وما بان له فيها من فرط الذكاء وهى دون البلوغ ، لأن البنت أفطن من الولد بطبيعة الحال الى السنة الثالثة عشرة من العمر حيث يقف ذكاؤها عند هذا الحد لأسباب طبيعية ولا يتعداه خلافاً للولد ، فان ذكاءه يطرد نموه و يسير نحو تمام الادراك على ما أثبته هربرت سبنسر فى كتاب « التربية » . على أن معنى اسماعيل مطيع الله كما ذكره صاحب القاموس . وفى شفاء الغليل قال السبكي « و يستحب لمن رُزق ولداً فى الكبَر أن يسميه اسماعيل اقتداء بالآية . ولأن معناه عطية الله » . فاذا توارت شمسه وراء الأفق ، فان أشعتها كما قال فكتور هوجو لا تزال ساطعة الأنوار .

و بالجملة ، فقد كان عصره عصر رخاء وجذل وكان ديدنه ومذهبه توثيق عرى المصافاة بين قومه ، و بذل النفس والنفيس فى سبيل ترفيه نفوسهم وترقية عقولهم لما أنه كان من أحب الناس الى المسالمة التى بها كان يحقق رغائبه . وكان جديراً بأن ينطبق عليه المثل القائل "Son métier était Roi"

أصل الموسيقى

الموسيقى من أقدم الفنون عهداً فى تاريخ الانسان ولا يُعلم أصلها بوجه التحقيق على حد سائر الأمور النفيسة الأخرى ، وقد أدجنت سماؤها وتنكرت معالمها أحقاباً متطاولة ، لعجز الأقدمين عن استقراء حقائقها ، وغفلتهم عن ادراك دقائقها ، أو معرفة أسماء الذين اكتشفوا بادىء بدء الاصوات الجميلة ممن احتبلتهم حبول الردى ولذلك فقد عُزى إلى آلهتهم رجماً بالظن الفضل فى إيصال هذا الفن الى النوع الانسانى .

على أنه ينبغى لنا فى هذه الحالة أن نُخلد بثقتنا الى التوراة التى هى المرجع الوحيد الواضح الاعلام المعتبر كمعين نستقي منه الأخبار عن الموسيقى درءاً للشبهات وقد جاء فيها ذكر يوبال من السلالة السادسة لقايين الذى كان أول من عزَف على القيثارة والمزمار بحذق أخذ بمجامع قلوب سامعيه ، وكانت فى زمنه القيثارة مركبة من عشرة أوتار يشبه شكلها مثلثاً متساوى الاضلاع . أما المزمار فانه يختلف عن مزمارنا الحاضر فى الطول والحجم ولا يُعلم غيرهما البتة من سائر آلات الطرب قبل الطوفان وقد نقش أبناء نوح عليهم السلام شكليهما على العامودين الذين شيدوهما تخليداً لذكر اختراعهما بين الامم الذين ظهروا بعد الطوفان وخدمة للعلوم والفنون الجميلة

ومما لا تخالطه شبهة أن الموسيقى كانت فى أول عهدها مقصورة على الصوت الطبيعى الى أن تنبه الانسان بذكائه على سبيل الاتفاق الى اختراع الآلات عند سماعه صفير الهواء المتولج فى الخصاص والثقوب فاستعمل للنفخ أنابيب القصب وللعزف أوتار القسى

ولا ريب أن أقدم الآلات الموسيقية للنفخ ، كان بناءً على ما أيده قدماء المؤرخين المزمار والبوق والناى وربما كان الاخير أقدمها وهو أول آلة أخذها اليونان عن المصريين القدماء . وليس بخافٍ أن ما من أمة من الأمم أغفلت هذا

الفن الجميل ولو كانت متوغلة فى التوحش والهمجية لما يحيط بها من العوامل الطبيعية ويكتنفها من الظواهر المؤثرة التى تكسبها جذلاً ومرحاً وتثير فى نفوسها الميل الى محاكاتها وتقليدها وحسبك الهوآء فانه يموج بالموسيقى ولولا تموجاته وروحاته وغدواته لأضحى غير صالح للتنفس وما الارض إلا صدى الكون وبناء عليه فما على الانسان الذى حباه الخلاق العظيم بجميل الصوت ولطيف الحس وحب الجمال الا أن يرفع عينيه نحو السماء ويسبح باسمه الاعلى هاتفاً وممجداً وحامداً إياه على عطاياه التى يتنعم بها فى كل حين

كان الشرق على ما جاء فى الكتب المنزلة والتاريخ أقدم من الغرب الذى اقتبس عنه المدنية والحضارة والعلوم والفنون ، فضلا عن أنه مهبط الوحى ومركز جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وكان بالتالى قدماء المصريين أول وخيرَ أمة بلغت من الثقافة والحضارة والرقى مبلغاً جعلها مضرب الأمثال فى العالم الذى كان يضرب فى ظلمات الجهل وتبعهم البابليون واليونان والرومان . واذا سرَّحنا الطرف فى طرائق تفننهم فى التحنيط الذى لا يزال لغزاً لم يحله للآن علماء الغرب فى عصر الاكتشاف والاختراع للجيل العشرين وصهر المعادن وتبسطهم فى علم الكيمياء وضروب الصنائع والفنون الجميلة والبناء والهندسة وتأملنا ما بلغوه من المراتب العُليا فى مذاهب الحضارة والبذخ ، وما كان لهم من استفحال الملك أيقنا أنهم أيضاً أول من استعملوا الموسيقى فى سائر احتفالاتهم الدينية داخل الهياكل حيث كانت تقدم القرابين لآلهتهم وخارجها وفى أفراحهم ومآتمهم وساحات القتال تحميساً للجنود بدليل ما يرى لآلاتها الصوتية والوترية من صور على جدران هياكلهم وعلى تماثيلهم الضخمة فضلا عن ان كهنتهم كانوا يتخذون فن الغناء علاجاً للأمراض العقلية فإليهم وحدهم يرجع الفضل فى انتشار الفنون والعلوم والصنائع على ما شهد بصحته بيتشر المؤرخ والبحاثة فقال ما ترجمته ملخصاً :-

« إذا أمكنك أن تقصد إلى سراديب الأموات من قدمآء المصريين »
« ونفضت ما علق بجثثهم المحنطة من الغبار وعجنته عجناً واتخذت منه أشكالا »
« وخبزته فى فرن وأسميت تلك الأشكال رجالا قدَّمتهم نُصب عيوننا بصفة »

« وطنيين أو معلمين كان مثلك كمثل من قدَّم التعاليم القديمة التى أبلاها تناسخ »
« الملوين لجيلنا الحاضر طلبًا لفائدته ، وخدمة للرقيّ والحضارة وقيامًا باحتياجاته »
« الضرورية »

وقد ذكر ابن خلدون ما يأتى فيما يختص بالغناء لاعتباره عاملا كاليًا للعمران ولازمًا لحياة الانسان لا سيما فى مصر، بلد الحضارة والفنون حيث يتعين الاستشهاد به فقال « و إذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث فى العمران إذا توفر وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجيّ ، ثم إلى الكمالى ، وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننًا فى مذاهب المذوذات »

ثم أخذه الاسرائيليون عن المصريين مدة إقامتهم فى مصر وجعلوه شعيرة من شعائرهم الدينية كما كان يفعل المصريون ، ولذلك كانوا يؤلفون فى معابدهم جوقة للترنيم والعزف حتى اشتهر بين ظهرانيهم داود النبى عليه السلام بتنظيم الأناشيد وترتيل المزامير وكان معروفا بحسن الصوت ، وقد اتفق أن ضاقت عليه الأرض برُحبها فى أثناء مرض إبنه العزيز وزاد به الجزع الى حد ان أهمل نفسه وامتنع عن الطعام واتسخت ملابسه ، ولكنه لما مات ولده وواراه فى التراب اغتسل و بدّل ثيابه وحلق رأسه وتعطَّر وأمسك بقيثارته وعزف عليها ألحانًا شجية ولما سئل عن سبب عزفه أجاب قائلا « لكى ألطِّف ما بنفسى من ماضى الجزع الذى لم يغن عنى فتيلا إذ أنه قد حلّ القضاء وولدى لا يرجع إلىّ بالعويل والبكاء خلافًا لى فانى حتما ذاهب اليه ولاحقٌ به »

وقد أخذ اليونانيون الفن أيضًا عن المصريين حينما اتصلوا بهم وتعاملوا معهم فى أنواع التجارة وغيرها فى عهد أمسيس أحد الفراعنة للدولة السادسة والعشرين ومهروا فيه وأحكموا أصوله و بلغ منهم مبلغًا ساميًا حتى ان فلاسفتهم وقفوا عليه جهودهم وحذقوا علمه كسقراط الذى كان يشنف آذان أصدقائه ومعاشريه بغنائه الشجيّ ، وأفلاطون الذى استرسل اليه وأطنب فى فضائل الموسيقى قائلا ما معناه « انها غذاء النفس ومبعث الاتزان والفطن وهى عطية آلهة الفنون الحرّة التى تحوّل

ما فينا من شاذّ مُتَنقِّل الى محكم ثابت وترد كل تنافر الى جناس متناسب وتبصرنا طريق الهدى . وقد أردف أيضًا فى كتابه « الجمهورية » ما مؤداه « ان الموسيقى علم يجب تعامه كالرياضة البدنية فالأولى تهذب النفس وتصلح ما فسد منهـا . والثانية تقوى الجسد » وأزيد عليه رمزاً الى مزايا الموسيقى الفريدة فى بابها والجزيلة الفائدة فأقول أن الزيادة فى استعمالها تؤدى الى زيادة الجذل والسعادة ونعمة البال خلافًا للرياضة البدنية فان فى الافراط فيها ما يؤدى الى الاضرار بالجسم لما يكلفه من عناء فوق الطاقة .

ومما يُروى فى خرافات اليونان أن أرفيوس كان يتسلط بأغانيه على الوحوش الضارية فيجعلها أطوع من بنـانه وكان يستوقف البحار الهائجة ويُرقص الصخور ويحرك الأشجار فتسجد عند سماعها . وقد ذكر عن قدماء المصريين أن أنفيون بن جو بيـتر بنى أسوار طيبة بصوت العود الذى كان يجيـد العزف عليه حتى كانت الحجارة تتجمع وتتلاصق وتتراصّ بعضها فوق بعض وذلك فى أثناء عزفه ، وقال الدكتور كلارك البحاثة « ان الغناء على نغمات الموسيقى كان عادة مألوفة عند قدماء المصريين فى أثناء قيامهم بالعمل »

أما لفظة موسيقى باللاتينية (musica) فهى مشتقة من لفظة musa أى بالفرنسية « muse » ومعناها إلاهة من آلهات الفنون وهن التسع بنات لجو بيتر ومنمنوزين وجميعهن أخوات شقيقات رمزاً إلى اتحـاد الفنون وارتباطها ببعضها بعضًا يترأسن أنواع الفنون الحرة . فالأولى اختصت بالتاريخ ، والثانية بالشعر الحماسى (الفروسية) والثالثة بالخطابة ، والرابعـة بالغناء ، والخامسة بالرثاء ، والسادسة بالروايات المحزنة « تراجيـديا » ، والسابعة بالروايات الهزلية « كوميديا » ، والثامنة بعـلم الفلك ، والتاسعة بالرقص ، وكنّ علاوة على ما ذُكر يقمن بتطريب جو بيـتر كبير الآلهة بأصواتهن الجميلة . وأناشيدهن الشجية على قمة جبل الاولمب برئاسة أبولون الذى كان يعزف أمامهن على نايه المشهور .

ومما يُلاحظ أنه لم يُعرف شئ عما اذا كان الأقدمون قد استعملوا للآلات الوترية القوس المسمى بالفرنسية "archet" وبالانكليزية "bow" لأنهم لم يسبق

لهم معرفته بدليل انهم كانوا يستعيضون عنه بريش الطير أو بعفق الأوتار بالأصابع ولا يخفى انها كانت فى بدء ظهورها غير مستوفاة التركيب وغير جيدة الصنع الى أن تدرّج تحسينها بواسطة صانعيها شيئًا فشيئًا الى حد الكمال والاتقان كما سترى فيما يلى فان الفيولونسيل والفيولا والفيولينا (أى الكمنجة) التى ظهرت فى أواخر الجيل السادس عشر كان أول صانع لنوع الكمنجة من الأنواع الثلاثة المذكورة جاسبار دا صالو الطليانى الذى وُلد حوالى سنة ١٥٤٢ إلا ان بعضهم يزعمون ظهورها قبل ميلاد جاسبار وفى كل حال فانها لم تبلغ الغاية المرادة من الدقة فى عصره وكانت مهملة وعديمة النفع وقفا إثره مارجينى تلميذه وأدخل عليهـا التحسينات اللازمة كما فعل بعده أندريا آماتى (١٥٣٠ – ١٥٨٠) الذى حذق عملها وقرع صيته الاسماع حتى كلفه شارل التاسع عشر ملك فرنسا الذى كان معدوداً من أعظم هواة الفن بصنع ٢٤ كمنجة متنوعة الحجم لزوم كنيسته الملكية فقام بصنعها جميعًا وامتدت اليها يد الضياع فى ابّان الثورة الفرنسية

أما ما كان من أمر العرب فانهم نقلوا الموسيقى عن اليونان والفرس وأشهر الكتب التى ترجموها عن فلاسفة اليونان بمعرفة مَهرة التراجمة مؤلفات فيثاغورس فى الموسيقى والحساب وغيرهما من العلوم الرياضية وشغفوا بها شغفًا أدى الى ان وسمت قواعدهم الموسيقية وأغانيهم بالطابع اليونانى

بدهى ان العرب كانوا أهل نجعة وخيام وأُلاّف بادية وأنعام لا يجنحون الى إقليم معين وليس لهم مقر يرتافون منه – حالة منافية لطبيعة العلم وما يقتضيه من القرار والتوفر على البحث والاستدلال ومناقضة لقواعد الحضارة والعمران لتصديهم الى شن الغارات ومواصلة المغازى والمشاحّات – فلما ظهر الإسلام ولأَم صديع شملهم اشتغلوا بالفتوح وانصرفت عزائمهم الى توسيع نطاق ملكهم لا سيما بعدما أوتوا النصر المبين كانوا من أبعد الناس عن الاشتغال بأسباب العلم وأشدهم أنَفَةً عن انتحال الصنائع لانهماكهم فى تدبير شؤون دولتهم وسياستها وحمايتها خشية أن يكونوا مغلبين لغالب أو طعمةً لآكل ولم تحفزهم وقتئذ الحاجة الى ضبط قواعد لغتهم فكان سيبويه صاحب صناعة النحو والفارسىّ والزجّاج والزمخشرى وأمثالهم

من فرسان الكلام وكلهم عجم بالنَسَب قد اكتسبوا اللسان العربى بالمربى ومخالطة العرب وكذا حَمَلة الحديث الشريف الذين حفظوه عن أهل الاسلام اكثرهم عجم أو مستعجمون لغةً ومربىً وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً وكذا اكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم كما ذكره ابن خلدون وظهر مصداق قوله (صلعم) « لو تعلّق العلم بأكناف السماء لناله قومٌ من أهل فارس »

ولما رسخت قواعد دولتهم ورأوا فى أكثر الممالك التى وطئوها من أسباب الحضارة والرقىّ والتضلع من أنواع الفنون ما حبّب اليهم درس العلوم والصنائع انصرفوا الى طلبها بصريمة محكمة وذلك فى اثناء المئة الثانية للهجرة بعدما دوّخوا الممالك واستولوا على أعنة أمورها وزال ما كان بينهم من المنازعات على الخلافة وغيرها .

وأول من اشتهر من العرب يعقوب الكندى الملقّب بفيلسوف العرب من القرن الثالث وله عدة تآليف فى المنطق والفلسفة الناطقة وشروح على كتب أرسطو وكانت له عدة مصنّفات فى الموسيقى والهندسة والحساب والهيئة وجاء الفارابى الذى له عدة تآليف فى الفلسفة والموسيقى والسياسة المدنية وغيرها وله تعريب كثير من كتب أرسطو ولابن سيناء كتاب المدخل الى صناعة الموسيقى ومنهم ابن باجة ابو بكر محمد بن يحيى التجيبى السَرَقُسطى المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس كان من أكابر فلاسفة العرب بالأندلس وكان له باع طويل فى الموسيقى والطب وعلم الهيئة والرياضيات . وكان الرازى من المتقدمين فى الطب والموسيقى والمنطق والهندسة وصفوة القول ان المؤرخين من العرب هم أكثر من أن يأخذهم الاحصاء ومن العلوم التى بحثوا فيها وتكلموا عليها العلم الطبيعى الذي أخذوه عن مصنفات أرسطو وغيره من متقدمى اليونان فبحثوا ضمنًا فى الأصوات والنغمات فى الكلام على المسموعات وكانوا والحق يقال أهل صنائع بديعة وفنون غريبة وتجارة رائجة وزراعة نامية وكان العلم مصباحاً يضىء جنودهم أينما حلوا فى كل بلاد وطئتها حوافر خيلهم وافتتحوها حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسيا الى أقاصى افريقيا ووسط اوربا . ولو لبث الدهر باسماً لهم ومسالمًا الى يومنا هذا لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ممن اقتبسوا عنهم علومهم وفنونهم وصنائعهم وضربوا فيها

بسهم وافر منها .ومما لا يختلف فيه اثنان أن الافرنج الذين خلفوا العرب قد أخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات كالبارود والورق والخزف والسكّر والزجاج وتركيب الأدوية وتصفية المعادن وفنون النساجة والدباغة وذلك دليل قاطع على تمام تمدنهم وشغفهم بالفنون الجميلة وعلى رأسها الموسيقى التى كانت فى ابّان بداوتهم وجاهليتهم مقصورة على الترنم بالشعر وتغنى الحداة منهم فى حدآء إبلهم والفتيان فى فضآء خلواتهم وكانوا يرقصون على الدف والمزمار فلما جاء الإسلام وتغلبوا على الفرس واختلطوا بهم سمعوا تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم وكلما ازدادوا غرقاً فى النعيم والترف ازداد تولعهم بالغناء بمقدار ما نقص من خشونتهم وألفوا عوائد من اتصلوا به من الروم والعجم الذين اشتهروا بالتبحر فى علم الموسيقى . وكفى بتسمية الأنغام الموسيقية بألفاظ فارسية دليلاً على مالهم فيها من المزايا الظاهرة على حد الشعر حتى سميت بلادهم ببلاد الجمال الشذيّة

على ان الغنآء كان فى زمن الجاهلية من خصائص الامآء وتسمى عندهم الأمة المغنية بالقينة والكونية.وقد زعموا أن أول من غنى من الامآء جاريتان كانتا لمعاوية ابن بكر من قبيلة عاد العمالكة وهما المدعوتان فى الاخبار بالجرادتين وقد قيل انهما وضعتا ألحاناً أُعتبرت من الطبقة الأولى

وقد ذكر بن خلدون ما يأتى –

« وقد ظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائر بن جابر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريح وانظاره وما زالت تتدرج الى أن تمكنت أيام بنى العباس عند ابرهيم بن المهدى وابرهيم الموصلى وابنه اسحاق وابنه حماد » . اه وكان أحسن الناس غنآء فى الثقيل على ما قيل هو ابن محرز وفى الرمل ابن شريح وفى الهزج طويس وكان الناس يضربون به المثل فيقولون أهزج من طويس وكان ينقر بالدف دون أن يعزف على العود وقد أخذ عنه أسرى الفرس فى اثناء اشتغالهم بأعمال البنآء وغيرها كثيراً من النغمات والالحان والموازين وكان يلقب (طويس) بالذائب لأنه غنى البيت الآتى

قــد برانى الحب حتى كدْتُ من وجدى أذوب

وقال صاحب الاغانى عن ابن شريح ما يأتى « ان ابن شريح عندما شعر بدنو أجله أحزنه أن يموت بدون أن يترك لابنته شيئًا من الثروة فأجابته هذه قائلة « لا تحزن يا أبى فقد وعت الذاكرة جميع الحانك وستكون هذه الالحــان مورداً كبيراً لى بعدك . وهذا ما حدث فقد تزوجت ابنته بسعيد بن مسعود الهزلى فاخذ عنها غناء أبيها فصادف به نجاحًا كبيراً وجنى منه فوائد جمة .وقد مات شريح حوالى سنة ٧٢٦ مسيحية بالغًا من العمر خمس وثمانين سنة »

وقد سُئل شريح مرةً عن قول الناس، فلان يصيب وفلان يخطيء وفلان يُحسن وفلان يسيء فقال المصيب المحسن من المغنين هو الذى يشبع الألحــان ويملأ الأنفاس ويعدل الأوزان ويفخّم الألفاظ ويعرف الصواب ويقيم الإعراب ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم الصغــار ويصيب أجناس الايقــاع ويختلس مواقع النبرات ويستوفى ما يشا كلها فى الضرب من النقرات. فعرض ما قال على معبد بن وهب فقال « لو جاء فى الغناء قرآن لما جاء إلا هكذا »

جميله

نبغت جميلة فى فن الغناء وقالت ان الفضل فى نبوغها يرجع الى سائب خاثر الذى كانت تسمعه يغنى ويعزف على عوده وقد جاء ابن شريح ومعبــد ومالك وجميع الموسيقيين المشهورين المدينة ليتلقوا فن الغناء عن جميلة فى مدرستهــا ففى ذات يوم غنت جميلة لحنًا من تلاحينها فى شعر لحاتم الطائى فصاح جميع من حضر وقالوا ان هذا الغناء لجدير بداود

عزة الميلاء

عزة الميلاء تلميذة رائقة وسميت الميلاء لاعجابها بنفسها وميلها فى مشيتها وكانت تغنى أغانى القيان من القد

سائب خاثر

تعلم سائب خاثر الغناء عن اماء كانت مهنتهن ترديد المراثى فى حفلات الموتى وكان يغنى بدون أن يصحب صوته بآلة لاكتفائه بعصا كان يضرب بها الأرض ليزن الغناء ولــكنه تعلم العزف على العود أخيراً وهو أول من غنّى بالعربيــة الغناء الثقيل وأول تلحين له البيت الآتى

لمن الديار رسومهــا قفر لعبت بها الارواح والقطر

ابو عثمان سعيد ابن مسجح — ابو عثمان سعيد بن مسجح هو أول من ابتدع طريقة للغنآء العربي على سلم الأصوات مما اقتبسه من الفرس واليونان آخذاً عنهما أجمل ما فيهما من الأصوات ومهملاً ما لم يلائم ذوقه منها

ابن محرز — مُسلِم بن محرز أصله من الفرس تلقى الألحان عن عزة الميلآء فى المدينة ويُنسب اليه اختراع الرمل كما ذكر فى كتاب الأغانى وهو أول من غناه وما غناه أحد من قبله وأول من غنى رملاً بالفارسية سلمك فى عصر الرشيد . ولما شخص ابن محرز الى فارس حيث تعلم الحان الفرس وصار الى الشام تعلم الحان الروم فمزجها ببعضها بعضاً وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب

ابو كعب حنين ابن بلوع — ابو كعب حنين بن بلوع المعروف بالحيرى كان مسيحياً

محمد بن عائشة — لا يعرف له أب وكانت أمه ماشطه وتسمى عائشة

سلامة القس — سلامة القس أخذت الغنآء عنه جميلة ومعبد وابن عائشة

يونس الكاتب — كان شاعراً مفلقاً ومغنياً بارعاً وقد أخذ الغنآء عن ابن شريح وابن محرز والفريض وهو أول من الف كتاباً فى الاغانى حوى معلومات وبيانات ذات شان ولكنه فُقد كما فُقد كتاب آخر فى الموسيقى وضعه خليل بن احمد

ومن أشهر المغنين أيضاً ابن شريح والفريض ومعبد وحكم الوادى وفيلج بن ابى العورآء وسياط ونشيط وعمر الوادى وابرهيم الموصلى وابنه اسحق وغيرهم

الغنآء القديم والغنآء الحديث

لما زها العصر العباسى الأول فى زمن الرشيد والمأمون واطلقت الألسنة والافكار أخذ المغنون يفكرون فى تعديل الالحان واستنباط أسلوب جديد . وأول من تجرأ على ذلك ابرهيم بن المهدى أخو الرشيد وكان من الطامعين فى الخلافة فلما استتب الأمر لأخيه المأمون انصرف هو الى الغناء كما انصرف خالد بن يزيد الأموى الى الكيميآء لما يئس من الخلافة وكان ابرهيم من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات وأطيبهم فى الغنآء وأحسنهم صوتاً وهو يعد من الطبقة الاولى فى عصره . لكنه كان مقصراً عن ادآء الغناء القديم على طريقة الموصلى فكان يحذف نغم الاغانى الكثيرة

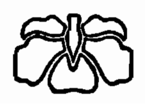
العمل حذفاً شديداً أو يخففها على قدر طاقته وانما تجرأ على ذلك بما له من المنزلة عند الناس فكان اذا عوتب قال « أنا ملك أغنى كما أشتهى » وصارت له طريقة يسمونها الغناء الحديث وسموا طريقة اسحق الطريقة القديمة

وانقسم المغنون فى ذلك الى قسمين وأصحاب فن الغناء يعدون عمل ابرهيم بن المهدى فساداً فى هذه الصناعة لأنهم يفضلون القديم فأخذوا فى الرجوع اليه

على ان ذلك بعثهم على اعمال الفكرة والتعمق بهذا الفن وانتهى ذلك الى عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر من أهل العصر العباسى الثانى فكان من كبار العلماء المفكرين ولا سيما فى علوم الأوائل والموسيقى والهندسة فوضع كتاباً فى النغم وعلل الاغانى سماه (الآداب الرفيعة) نال شهرة واسعة ونأسف لضياعه مثل ضياع أكثر ما وضعه العرب فى الموسيقى والغناء قبل كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى (نقلاً عن تاريخ آداب اللغة من الجزء الثانى للعلامة المرحوم جورجى زيدان)

أما الموشحات فذكر عنها ابن خلدون ما يأتى « وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً اسماطاً وأغصاناً أغصاناً يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة واكثر ما تنتهى عندهم الى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل فى القصائد ويتجاوزون فى ذلك الى الغاية واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك عنه ابو عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزّان شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية » اه

ومن هذه الموشحات خرجت القدود التى جاء بها شاكر افندى الحلبى الى مصر فى المائة الاولى بعد الألف على ما ذُكر فى باب حياة عبده الحمولى فليراجعه من يشاء



عبده الحمولى

تاريخ حياته ومجهوده الفنى ومعاملته فى المجتمع

وما جرى له

وُلد المغفور له عبده الحمولى سنة ١٢٦٢ هجرية (تقريبًا) بمدينة طنطا ، وكان والده الملقب بالحمولى (نسبة الى حمول أو حامول من أعمال مركز تلا مديرية المنوفية) يمارس تجارة البن . وكان للفقيد أخ أكبر منه سنًا وما عتّم أن وقع بينه وبين أبيه شقاق حتى فرّ به من وجهه وهام كلاهما فى الخلوات مشيًا على الأقدام ولما تعب المرحوم عبده من السير لصغر سنه حمله أخوه على كتفيه واستمرًا على هذا المنوال الى أن صغت الشمس الى الغروب وضعف نفساهما من التعب دون أن يجدا أحدًا يأنسان بصحبته أو يلجآن الى ضيافته . وقد هدتهما أخيرًا خاتمة



(عبده الحمولى بين الأزهار)

المطاف الى رجل اسمه شعبان لبى طلبهما بكل ارتياح وآواهما على الرحب والسعة . وكان المضيف من حسن الصدف يشتغل بصناعة الغناء والعزف على القانون ، وما لبث ان سمع صوت عبده الرخيم حتى افتتن به وعاد به الى مدينة طنطا حيث اشتغل معــه مدة وجيزة ، وحضر به آخراً الى مصر واشتغل معه بقهوة عثمان أغا المشهورة التى كانت فى وسط غابة من الأشجار موضع حديقة الأزبكية حالاً . ولما استقرَّ بهما المقام فى مصر زوَّجه بابنته طمعاً فى الانفراد عن مواقف المنافســين له بتزية استغلال مواهبه العبقرية وحده ، وكان من وراء علمه أن المرء لا يخلو من أضداد على حد قول الشاعر. لأن « المقدّم » الرجل الطائر الصيت فى فن الغناء ظهر له منافساً وذلك بعد أن علم بعبده وأعجب بصوته وانتهز الفرصة التى فيها كان يغلظ شعبان لعبــده فى الكلام ويسيء معاملته استناداً الى رابطة المصاهرة وتوصل بدهائه الى توسيع شقة الخلاف بينهما مما أدى الى تطليق ابنته ثلاثاً فألحقه بتخته واستمر يغنى على الطريقة المعروفة عند محترفىّ هذا الفن من المصريين وقتئذ وأصلها يرجع الى رجل اسمه شاكر افندى من حلب الشهباء التى عصا التسيار فى هذه الديار فى المائة الأولى بعد الألف حيث كان فن الألحان فيها مجهولاً فنقل اليهــا عدة تواشيح وبعض قدود كانت البقية الباقية من التلاحين التى ورثها أهل حلب عن الدولة العربية بدليل أن الحلبيين الأذكياء ينزعون الى الموسيقى وتهفو قلوبهم فى أثر الطرب ولذا لا تخـلو دورهم ومجامعهم لغاية الآن من الآلات الموسيقية التى يحسنون غالباً العزف عليها ولما تلقاها عنه بعض المحترفين من المصريين ضنوا بها طمعاً وحرموا غيرهم من الانتفاع بها دون أن يذيعوها على الملأ طلباً للتفرد بها ولو تأذى الفن بمثل هذا الاحتكار وكانت مقصورة على أمهات المقامات وبعض ما تفرَّع عنها مما يقاربها ولا يشرد عنها فأخذ المرحوم عبده بما حباه الله من مواهب فذة فى صقلها وتهذيبها مضيفاً اليها ما عنَّ له من النغمات تمشياً مع نواميس الرقي والاصلاح ونفحها بروح مصرى وكساها بجلباب عربى ووسمها بطابع بهيج وذوق سليم فرماه لذلك المحــترفون الرجعيون بالزندقة وقاطعوه بشدة لشروده عن البالى مــن غنائهم وتبديل نبره الحلبى بالأنغام المصرية فأفرغها فى قالب على أسلوب رشيق ضارباً عرض الحائط بكل الاغانى التى تعتورها الركاكة ويشوّهها اللحن أو يتجاذبها التنافر مما تنقبض منه الصــدور وتسأمه النفوس . فانتهى به الأمر أن انتصر عليهم جميعاً واضطروا الى الجرى على منهاجه بعد ان باءوا بالذل والخسران . فأخذت الموسيقى فى ذلك الوقت تتدرّج وترتقي بعد أن أنعشها من كبوتها حتى بلغت ذروة الكمال لاحتوائها على أنواع من السحر وعوامل من التطريب بما أدرجه فى صلبها من نغمات النهوند والحجاز كار والعجم

عشيران التى تلقنها عن مشاهير المطربين فى الاستانة طيلة الرحلات المتعددة التى قام بها وهو بمعية ساكن الجنان أبى الأشبال الخديو اسماعيل محيي الفنون الجميلة فى وادى النيل الذى يرجع اليه كل الفضل فى إنماء مواهب عبده الفنية وتوجيهها للنهوض بفن الغناء العربى الى المستوى اللائق به لما وجد فيه من ميل فطرى وسعة تصرف فى النغمات . فكان يتنقل من نغم الى نغم ، ثم إلى أنغام أخرى ويحيط بكل فروعها ويعود إلى النغم الأساسى بطريقة فنية وتصرف غريب ولم يدع فى الغناء القديم شواذاً إلا ردها إلى قواعدها أو مسموعاً قبيحاً إلا طرح معايبه وألبسه أنصع جلباب متحاشياً اللغو والحشو والتعمية مرتفعاً عن مقام التلفيق والتحدى منزهاً عن النسج فى التلحين على منوال المحدثين بخروجهم عن جادة الصواب ومسخ محاسن الغناء العربى الصحيح

وبالجملة فانه استطاع علاوة على تهذيبه التواشيح والقدود التى تلقاها على الطريقة الحلبية الوصول الى التوفيق بين المزاجين المزاج التركى والمزاج المصرى بمعنى أن أهل الطبقة الحاكمة فى مصر كانوا لا يطربون من الغناء العربى لكونهم يرجعون إلى محتد تركي فأصبحوا بفضل ما أدمجه من النغمات التركية التى سمعها وهو فى الأستانة على ما سبق الايماء إليه يميلون إلى سماعه ويفضلونه على سواه على حد ما حدث للمصريين أنفسهم فانهم أعجبوا بالنغمات الجديدة التركية التى عدّلها ومزجها بالنغمات المصرية بما يلائم أذواقهم ونفحها بروح العروبة وعجنها من طينة الحرية فدرَجت من مهد السيادة الشرقية والمجد المصرى الأصيل ونالت استحسانهم بالاجماع بعد إن كانوا ينفرون منها ولا يرتاحون إلا إلى نغمات الأنين والتوجع التى اقتصروا عليها فى محيطهم الضيق

على أننا إذا تأملنا عمله هذا وما نجم عنه علمنا أنه لم يقتصر على التوفيق بين أنغام الجنس المصرى والجنس التركي فحسب بل تجاوز هذا الحد وفات هذه النتيجة الفنية وصعد إلى ذروة العُلى من الوجهة الاجتماعية بايجاد صلات بين الشعبين متينة الأسباب حتى تقاربت قلوبهما بعد التباعد وامتزجت أرواحهما امتزاج الماء بالراح ، وتمكنت بينهما الألفة ردَحاً طويلاً تمكناً لا يشوبه كلال أو يعتريه ملال

وكثيراً ما كان يذكر فى « بشارفه » وأدواره عبارة (آمان يا للى) والآهات التى أخذها عن الموسيقى التركية وكان ينقل ترجمة الأغانى التركية إلى العربية وينظمها الشعراء ، مثال بشرف « بلبل الأفراح غنى آمان فى الرياض السندسى » ببعض التصرف تمشياً مع الغزل العربى

وتفكهةً للقارىء أروى الواقعة الآتية للدلالة على ما كانت ترمى اليه الأغانى من الأنين

السائد على العقول وهو أن سائحة أمريكانية سمعت رجلاً يغنى بالقرب من فندق الكونتيننتال بشكل غريب الدور الآتي «حبيبي حبيبي شوفوه لى يا ناس * شرد منى و بيده الكاس - أترجاك تعمل معروف » فأوعزت من فورها إلى ترجمانها بأن يعطيه بالنيابة عنها دولاراً ليستعين به على شراء أى دواء من أقرب أجزاخانة طلباً لاسعافه بالعلاج ليتخلص من مغص كاوى كانت تتوجس منه خيفة وترى بسببه أنه لم يبق من عمره إلا اليسير فضحك الترجمان لكلامها وقال لها ياسيدة « ليس المغنى بمريض . إنما هو عاشق ومغرم صبابة فدهشت من قوله وسألته عن معنى غنائه وما كادت تقف على كنه ما احتواه من معانى البلادة والخمول حتى ضربت برجلها الأرض قائلة « دم فول » إنه حقاً عاشق كسول وعليه أن يبحث عن حبيبته ، وليس للناس شأن فى ذلك . ولقد قالت الحق الذى لا ريب فيه لأن المرء أحق بأن يعين نفسه من أن يعينه الغير ، ولا خير فيمن لا يعين نفسه ، والكسول كالميت لا فائدة ترجى منه ، والأدهى أنه يشغل مكاناً أوسع من مكان الميت وليست أغانى الأمة إلا رمز أمانيها ومحك نفسيتها ، ومجس قوميتها وثقافتها وقد قام المرحوم الياس الأيوبي بايراد هذه القصة فى تاريخه (عن الخديو اسماعيل) ونسب ما جاء بها من النقد الى لورد كرومر . ففي الاستشهاد بما قالته السيدة الأمريكانية هنا أو بما قاله الأخير فى الموضوع استنتاج واحد ولو اختلفت النسبة

على أن تأثير الوحشة المؤلمة والتعب المضنى والجوع والظمأ فى ظهيرة اليوم الذى خرج فيه عبده من بيت أبيه طريداً شريداً كانت لا تزال مرسومة في مخيلته ، حتى أنك كنت تراه فى آخر أيامه يقطب وجهه وينقبض صدره ويتقلص بشره كلما دخل عليه وقت الغروب ويعزى كما لا يخفى انقلابه الفجائي من السرور الى الكدر والانقباض فى نفس ذلك الميعاد الى ما كان منقشاً فى صفحة ذهنه من ذكراها المؤلمة وذلك دليل واضح على قوة ذاكرته وما كان فى نفسه من الشمم والاباء وحرصه على كرامته الشخصية بالرغم من صغر سنه حتى أمام والده الصادر عنه الضيم المسىء والعذاب الأليم اللذين كان يوجههما إلى إبنه الاكبر دون عبده الصغير الذى لم تفرط منه هفوة . ولذا كان فى أثناء تكدره ينام على التخت وقت الغناء حتى اذا استيقظ رجع الى النغمة التى وقف عندها قبل نومه من غير مراجعة آلة ما أو استنفاض التخت أو الاسترشاد بأحد العازفين فيه كأن الطبقة قد انتقشت فى صفحة ذهنه وأنها فى كن من تأثير جميع الأصوات التى مرَّت عليه وهو فى نومه أو غيبوبته وأغرب مافى هذا الأمر أن الحضور كانوا يمهلونه وينتظرون تيقظه بكل سرور حتى اذا

ما استأنف غناءه بعد نصف ساعة أو ساعة يهزون أعطافهم ولو حدث مثل ذلك البطء من أى مطرب آخر لغادر السامعون أماكنهم وانصرفوا الى منازلهم

ومما لا يختلف فيه اثنان انه كان يصور معاني أغانيه وما تخلل أجزاءها من أحوال وحوادث على أوضح صورها وأشدها تأثيراً فى عقول السامعين الذين يعجبون لسماعه يغنى دوراً من تلاحينه (حجاز كار)

أشكي لمين غيرك حبك أنا العليل وانت الطبيب
اسمح وداوينى بقربك واصنع جميل إياك أطيب

ويستغربون تشخيصه أمامهم صورة العليل ومر شكواه من داء حبه العقام وطلبه من الطبيب أن يشفيه منه . ودور « أنا حبيت وزاد قلبي هيام » فانه يخيل اليهم أنهم يقرأون الحب على وجهه . وأنه ذهب بفؤاده كل مذهب ويرى الشوق عظمه . ودور « سيكاه » تلحينه كان يغنيه فى حلوان بالكازينو . وقد ظهر فى عصر ساكن الجنان الخديو توفيق يوم ان نقلت محطة حلوان من المنشية (بالقلعة) الى باب اللوق حيث هى الآن وكان هذا الخط تابعاً لشركة سوارس وقد غناه فى حضرة الخديو توفيق فأعجب به وهو كما يأتى

متع حياتك بالأحباب ما أحلى المؤانسة فى حلوان – أنسك ظهر
شأن الطـــــرب يشفي الأوصــاب – للي حضر
وكيد زمانك واتهنى وافرح وطيب
وانفي همومك بالأكواب – سعدك قمر

ودور (راست) تلحينه « المطر يبكى ياناس لحالى » اذا غناه رفرف السامعون عليه بأجنحتهم ورأوا المطر ينهمر عليه ودور (بياتى) تلحينه أيضاً « بسحر العين فيذكرهم فتور الجفون وسحر العيون وما يليه من نحول الخصور وابتسامات الثغور وسريان الريح برياً الزهور الخ الخ على ما وقفت عليه بنفسى وسمعته بأذنى وأيده حضرة الاستاذ قسطندى منسى الموسيقار من معاصريه

ولما كنت أعرف المرحوم عبده حق معرفته من حيث أطواره ونفسيته وعبقريته لما كان بينه وبين والدى من قوى الجمعة وتمكن الألفة بينهما فضلاً عن كثرة غشيانه الزقازيق عاصمة الشرقية حيث كان له عزبة بناحية الشولية على ترعة الاسماعيلية بمركز بلبيس يبلغ مقدارها ٧١١ فداناً من الاطيان المرملة التى كان قسم منها يبلغ نحو ٨٦ فداناً يؤجر بثمانية جنيهات والبقية منها كانت تحت

التصليح كان عُهد الى المدعو ابرهيم حامى أخى معاون محطة حلوان فى ادارة شؤونها و بعد وفاته قام المرحوم باسيلى بك عريان صديقه الحميم بالاشراف عليها بنفسه وتولى دفع الأقساط المستحقة عليها للبنك وهو الذى اشترى منزله الكائن بالعباسية بشارع « عبده الحمولى » المسمى باسمه وكان معدوداً من أكابر ملتزمى الاسماك هو وحسن عيد وعويس الذين اعتادوا التزام حلقات الاسماك فى القطر المصرى من وزارة المالية وقد تولى باسيلى بك أمر ولده الدكتور محمد الحمولى الذى فاته والده وهو فى الرابعة من سنيه واهتم بشأن تربيته اهتمامه بولده الخاص وفآء لوالده بعهده أرى واجبًا علىّ وخدمة للتاريخ أن أذكر كلمة موجزة عن حياته الخاتمية والفنية وأبين للقارىء الكريم كيف وقع القاؤه الاغانى فى النفس موقعًا جليلاً وأربى على الاكفآء من المحترفين لفن الغنآء من أبناء عصره تذكيراً لمعجبيه بأساليبه الحسنة وحبه الشديد للاتقان واتحافًا للمحدثين الذين لم يسمعوه بما رقّ وراق من سلامة ذوقه وكمال ترتيبه وقوة ابتداعه ليقفوا على حقيقة أمره وما كان له من القدح المعلّى فى جميع فنون الغنآء فأقول كشاهد عيان سمع صوته الرخيم وسبر غور نفسه النبيلة بتمثيله للعواطف أحسن تمثيل فانه كان يغنى وهو مشروح الصدر عن عاطفة ووجدان ألحانًا وأدواراً تعبر عن نفسيته فيدركها السامع متأثراً بمثل تأثره . ولم يمتز عن سائر المغنين فى عصره ليس بصوته القوى الرخيم وتلحينه الشجي الخاص به فحسب بل بما حباه الله من روح يسيطر عليه فى ابان « السلطنة » على جميع النغمات فيأتى من غرائب التفنن فى الغنآء والالقآء البديعين ما يحمل أفكار سامعيه على أجنحة تصوراته الساحرة فيُخيّل اليهم انهم ارتقوا الى المراتب العلوية ورأوا أشياء لم يروها ولم يحلموا بها فضلاً عما له من لطيف الحس وشديد الحب للجمال اللذين أمكنه بهما أن يبث فى نفوسهم روح الغيرة والعظمة ومتانة الأخلاق والحماسة العربية وكافة المحامد والفضائل ذلك سر تفوقه على نحو ما حدث لكل من بتهوفن الموسيقى الغربى الأوحد وجون ملتن الشاعر الانكليزى الكبير وأبى العلاء المعرى الشاعر العربى فان الأول كان أصم لم يمنعه الصمم عن التلحين ولو لم يسمعه وكان الثانى والثالث أعميين لم يبصرا ما حولهما فقام كل واحد منهما بوصف الجنة وجمالها وبهائها ورياضها ومائها والخلود وما ذلك إلا بما أوتوا من روح الالهام وما تغلغل فى نفوسهم من لطيف الحس وحب الجمال وروح الحب على نحو المثل القائل « اعطنى حبًا أعطك فنًا » ومن أحكم ما يحسن ايراده بنصه الانكليزى معربًا بقدر الامكان

Art is much but love is more,
Art symbolises heaven. but Love is God
And makes heaven

اذا كان فى الفن شىء كثير فان فى الحب شيئًا أكثر فالفن يرمز الى السمآء والله محبة وهى للسمآء صانعة - وقيل أيضًا « أحب وحلّق » "Love and soar" وبالجملة فان فقيدنا « عبده » كان للموسيقى معجزة وسيداً عليها يتحكم بها ولا يأتمر بأمرها كالموسيقيين السابقين واللاحقين الذين كانوا وأصبحوا عبيداً لها ولا أبالغ اذا جاهرت قائلاً بأن أريكتها ما زالت شاغرةً بوفاته الى وقتنا هذا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وهل يُظن يا تُرى أن تنجب مصرنا عبقريًا آخر يماثله أو يدانيه ؟

ومما يؤثر عنه انه بينما كان يغنى بالهيام فى منزل صاحب السعادة الفريق أحمد زكى باشا ياور ساكن الجنان الخديو اسماعيل وأمامه الاستاذ نخله المطرجي (الحلبى) أكبر العازفين على القانون فى مصر وكان قانونجى السلطان عبد العزيز افتتن الحضور بشجى ألحانه وساحر نغماته التى كان يغنيها براحة ودعة محركاً بين أصابعه حباب المسبحة الكهرمان ولما لم يَسَعْ المطرجى اللحاق به لقوة صوته وغريب تصرفه وسعة حيلته الفنية وبُحته وقهقهته الماسّة مقامات الموسيقى كلها إنتهى وانتهى به الأمر أن أمسك قانونه وطرحه امام « عبده » دلالةً على عجزه وقال له «خلاص ياسى عبده أجيب لك منين » ايمآءً الى المقامات العالية التى كان يأتيها ولا قِبل لأعظم عازف بها على حدّ ما كان يقصر عنه باع الاستاذ محمد العقاد الكبير القانونجى الشهير حالما كان يحاول عفق أوتار قانونه الخالى من العُرب التى لم يألفها طلبًا لتصوير نغماته فكان يشير اليه عبده مبتسماً بأن يكتفى بامساك « بمب » على قانونه فى اثنآء لعبه بالنغمات .

وكان أحيانًا يندّ عن المألوف ويتحول فى الدور من نغمته الاولى الى نغمة ثانية ثم يعود الى الاولى ويقفل بها الدور بعد ان يفوت بصوته مارش النسر وينزل متسلسلا الى القرار على حد ما حدث ليلة رواج الاستاذ ابراهيم سهلون الكمانى فغنى دور « أصل الغرام نظرة » على نغمة الرصد ولما أطلق بصوته العنان فى سمآء التطريب أبدل جواب النغمة بالسيكاه وتسلطن بها على الرصد ونزل متسلسلا وأقفل الدور رصداً مما أدهش الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب الملحن الكبير وكاد يشق ثيابه من شدة الذهول وصاح قائلا « الله أكبر سبحان الوهاب ياسي عبده »

ومما يماثل ذلك ما حدث لعمر بن أبى ربيعة يوم غنته عزة الميلآء لحنًا لها فيه شىء من شعره ، فشقَّ ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها . فلما أفاق قال القوم : « لغيرك الجهل يا أبا الخطاب. فقال والله انى سمعت مالم أملك معه لا نفسى ولا عقلى » . وقد روى عنه المرحوم أنطون الشوا والد الاستاذ سامى الشوا أمير الكمان أنه كان لقوة صوته يضطر إلى إعلاء كمانه ثلاثة مقامات عن المعتاد كلما كان يشتغل على تخته خلافًا لما كان يفعل بينما يكون شغالاً مع محمد عثمان فانه يوطىء كمانه ثلاثة مقامات إلى أسفل تمشيًا مع صوته

وقد امتاز عن معاصريه من المحترفين فى غنآء القصائد والمواويل والأدوار يبدأهُ من القرار الهرمى المتين والقوى الواسع الى الجواب ماسًا جواب الجواب محيطًا بالمقام من أوله الى آخره إحاطة الهالة بالقمر . وكان يستمر فى القآء القصيدة ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات من دون أن يشعر من الاستمرار أو التكرار بتعب أو يرهقه عجز أو إعيآء فاذا استعيدت منه حركة من حركاته التى كان يلقيها فتارةً كان يغنيها مع تحسينها بادخال شىء جديد عليها (ولكل جديد لذة) وطوراً كان يستبدلها بغيرها على طراز أبدع فيصير السامع أحير من ضب الى أن ينتهى به العجب بأن يؤثر الثانية على الأولى لما وجد فيها من طلاوة وعذوبة وآونة كان نزولاً على رغبة الطالب يبدأ بالحركة نفسها المطلوب إعادة القائها ويخرج منها إلى نغمات غريبة يعرضها عليه فجأة متنوعة الألوان متشعبة الفروع وصحيحة الأوزان ثم يعود اليها طبقًا للأصول الفنية سالمًا منصوراً

أما تلحينه فحدّث عنه ولا حرج لما توفر فى صوته القوىّ من صفات نادرة فى القرار والجواب وحسن التوقيع ودقة الايقاع ومناسبة الأصوات وجناس النغمات وتشخيص الانفعالات الملائمة بلطيف الاشارات وخفة الحركات فتتمثل أمام السامع صور ما يلقيه على أتم معانيها ويرجع إعجاز تلحينه الى تعدد نغماته وتغييرها وتشكيلها ورسم ألوانها التى تحاكى ألوان زهور الربيع وكثرة المقامات حتى يخيل الى السامع أن نغماته إن هى إلا قطع التبر ، وان معانيها إن هى إلا أُخذ السحر

وبالجملة فان صوته السحرى اذا سخره لأى نغمة من النغمات أو بعبارة أخرى اذا انتقل من نغمة الى اخرى أو من الأدنى الى الأوسط والى الأعلى فمحال أن يقلده مجازف من المحترفين أو يدرك شأوه خلافًا للملحنين الآخرين فان تلاحينهم كانت سهلة التقليد وقريبة المتناول لسهولة القائها وبساطة مآخذها فضلاً عما فيها من جودة ومتانة وحسن حبك ولذلك كانت سريعة الانتشار لما تقدم من الاسباب وكان يتلقفها المحترفون والهواة عن الملحن الذى لحنها بأسرع من لمح البصر

و يقلدونه فيها تمام التقليد أما طالب تقليد تلاحين عبده فهو من المستحيلات لما فيها من مهارة فنية ومناعة بديعة وحيلة واسعة فكان وأيم الله آيةً من آياته فى قوة البديهة وحسن الارتجال وغريب التصرف بأساليب الغناء وضروب التطريب وقد يُخيّل اليك اذا لحن من فوره مذهباً أو دوراً انه يقرأ الفاتحة أو يتلو فى لوح مسطور واليك الدليل المقنع كما أثبته لنا معاصروه الذين رأوه وسمعوه يلحن لساعته الدور الآتى نظم الشيخ على الليثي أحد شعرآء أبى الاشبال الخديو اسماعيل وهو :

(مذهب)

أنا السبب فى اللى جرى ما حد غيرى اللى انظلم
طاوعت أسباب الهوى حتى غدا خصمى حكم

(دور)

يا قلب أضناك الهوى لم تستمع نصح النصوح
يا قلب قد عز الدوا علّم عيونك أن تنوح

(دور)

لام العذول وما درى هيهات أن يدرى العذول
لو كان يعلم ما جرى كفّ الملام ولا يقول

وقد سمعت الاستاذ محمد السبع المطرب المعروف ومساعده على التخت يقول بأن تخت عبده يشبه مدرسة أو جامعة فنية متنقلة يتعلم فيها المحترف جمال الفن و يتضلع من قواعده الاساسية و يقف على أصوله وفروعه واذا لم يتدرّب على يديه لا يستطيع أن يفهم عظمة الموسيقى الشرقية وسحرها وتأثيرها فى العقول وتغلغلها فى النفوس لما كان يأتيه من ضروب التجديد وأنواع المفاجآت وسريع التنقل من نغمة لاخرى و بالعكس بطريقة فنية بشرط أنه كان يحرص فى جميع ذلك على قواعد الفن ولم يخرج عنها قيد شعره ليس فقط في كل ليلة بل فى كل ساعة وفى كل وصلة غنائية حتى ان السامع نفسه كان يقرأ فى ثنايا أغانيه صفحة من نفسيته أو فذلكةً من حياته و يقف بتعبيره على كنه أفكاره الشخصية وغاياته السامية وميوله الشريفة ويرجع استظهاره و بيانه الى ما استخرج من مأساة حياته من عِبَر وتجارب مما كان باعثًا على قوة تعبيره عن عواطف النوع الانسانى على اختلاف مشاربه وتنوع نزعاته بمعانٍ سامية انفردت عبقريته بالتطبع بها وتمثلت

فيهـا المثُل العليا بأجلى مظاهرها فهو الموسيقي المصري المشرق نوره على الآفاق كالشمس وسيبقى للموسيقى رمزاً على مرور الأزمان ، وللغناء العربي الذى أحياه ، زعيماً لا ينازعه منازع

ومما رواه لى حضرة صاحب العزة مخائيـل بك تادرس رئيس الادارة بالدائرة السنية سابقاً وصديق عبده الحمولى ووالد حضرة الاستاذ تادرس مخائيـل تادرس المحامى أمام المحاكم الأهلية والمختلطة اجتزىء منه بما يأتي لضيق المقام وتمادياً من سأم القارىء قال « انه تعرف بعبده الحمولى قبل أن يبلغ رشده يوم كان يلبس جلباباً من التوبيت الأسمر مفصـلاً على الذوق الاسكندرى ذا فتحة على صدره يتدلى منها أوستيك فضة وعلى رأسه طربوشاً صغيراً غامق اللون من القالب العزيزى . وكان خفيف الروح ، سريع الخاطر ، رخيم الصوت وكثيراً ما كان يشكو من تهالك المتقدم على المكاسب و إجحافه بحقوقه كما كان يفعل به المعلم شعبان قبله حتى انتهى الأمر بقطع الصلات التى كانت بينهما ، وأسس لنفسه تختاً خاصاً وأخذ نجم سعده يضيء و يتجلى فى فلك الغناء حتى كسف بتألق شعاعه بهاء من سبقه من المحـترفين والتف حوله القاصي والداني واستوى على عرش الموسيقى الشرقيـة فى العصر الذهبى لأبى الأشبال المغفور له الخديو اسماعيل الذى كان يجزل له العطايا و يعطف عليه عطف الوالد الحنون جزاء خدمتـه لفن الغناء العربى وتشجيعاً له على الاستمرار فى الاجادة والاتقان - شأن كل حاكم عادل يحرص على فنون قومه وعاداتهم ونزعاتهم ومميزاتهم القومية . وقد سمعت من حضرة مخائيل بك المذكور أن الخديو اسماعيل دعا عبده ليغنيه فى قصره ليلة كانت تهب عليه ريحٌ بليل ، ولما أراد أن يخلع عنه البالطو الذى كان يلبسه أمره الخديو بالدخول به مع رجال تختـه والجلوس على أرض الصالة المفروشة بالسجاد على الطراز العربى ليتسنى للعازفين على الآلات أمثال « القانونجية » وغيرهم أن يقوموا بعملهم بدون صعوبة فبدأ البلبل الصياح يغنيه أدواراً عربية تتخللها النغمات الساحرة والآهات التى طبقت نواحي السماء فاجتذب اليه قلب الخديو اسماعيل وصبت روحه الى سحر الموسيقى العربية دون سواها فكان يضع يده الكريمة فى جيب عبده كلما أعجبته نغمة من نغماته دون أن يعرف غرضـه من ذلك إلا أنه لاحظ أنه مد يده الفياضة إلى جيبه اثنى عشرة مرة . ولمـا انتهت السهرة وخرج من السراى وضع يده فى جيبه وقلّب فيه طرفه واذا به اثنى عشر قرطاساً وفى كل قرطاس مئة جنيه ذهباً فناول من فوره رجال التخت قرطاسين اثنـين واحتفظ بالباقى . فهل وجد بين الملوك من كان أسخى من الخديو اسماعيل يداً ؟ . كلا والف كلا ، فكان أجود من حاتم واستمد عبده الجود منه و به اقتدى فى إغاثة الملهوف

وعمل المعروف . على أنه كان صالحًا يقيم الصلاة فى مواقيتها و باراً بوالده وقد فرّ من وجهه كما تقدم بيانه لكونه غير راض عنه لاشتغاله بفن الغناء الذى كان وقتئذ يعد فى مصر مهنة محتقرة ومستقطة لمحترفيها من عيون الناس وحدث نقلاً عن المقطم الاغر بتاريخ ١١/ ٩/ ٩٣٤ بتوقيع حضرة رزق الله شحاته الموسيقار « ان الخديو اسماعيل قصد زيارة مديرية الغربية فأراد سعادة المدير أن يجعل الاحتفال بقدومه فى غاية الفخامة والأبهة ورأى أنه لا يكمل السرور فى تلك الحفلة إلا باحضار اعظم المطربين . فدعا المرحوم عبده الحمولى ، ورأى أن هـذه خير فرصة يسترضى فيها والده عنه فقال لسعادة المدير أريد أن أطلب منك شيئًا واحداً ، وهو أن تجعل أبي يرضى عني . فأرسل سعادة المدير تلغرافًا فى الحال لوالده فحضر الحفلة الليلية وكان عبده جالسًا فى حضرة الخديو اسماعيل وحاشيته فدعاه المدير الى جانبه وسأله هل أنت غاضب على ابنك ، وأنت تراه فى حضرة أفندينا فكان جوابه « أنا وابني وأولادي عبيد لأفندينا وأقبل عليه وعانقه »

على أن « عبده » كان عفيف النفس عالي الكعب ، كتومًا اذا أطلعته على دخائلك ، ناهيًا برجال التخت من المساعدين له والعازفين عن الحط من قدر المهنة ومن قدر شخصياتهم بدليل أنه كان ينبّهُ عليهم فى أثناء الأفراح والأعراس التى أقيمت سنة ١٨٧٣ احتفاء بزواج أنجاله الأمراء توفيق وحسين وحسن بألا يلتقطوا شيئًا مهما غلا ثمنه مما كان يبدره الأمراء والأميرات من الجواهر والنقود الذهبية – تلك عادة كانت شائعة فى عهده الذهبي بين الناس لا سيما في أفراح أولاد العظماء والوزراء اقتداء بهم والناس على دين ملوكهم

ومن حسن ما وصفه به المرحوم محمد العقاد الكبير فقال : « انه كان يخيل اليه عندما يبدأ عبده غناءه بآنية من ورد وزعفران قد أُفرغت على رجال التخت وأن أرض السرادق قد غطيت بالآس والرياحين والفل والياسمين فتسطع الحاضرين رائحة أطيب من فأرة مسك فضلاً عن انه كان يشبه له انه يرى حول عنقه أطياراً من الجنة تغنى معه وتناغى مناغاة الحمام وتنوح واياه ناهيك [illegible] نادرة وابتساماته واشاراته التمثيلية التى تبث فى النفوس الجذل والغبطة والسعادة ونعمة [illegible] لا تقدر [illegible] . وكان صوته مليئا ويُكنى فنيًا بالتينر والباريتون "baryton, tenor" وقد [illegible] عنه أن غنيا دعاه الى داره فى الاسكندرية تمهيداً للاتفاق على الغناء فى ليلة زواج إبنه . وكان [illegible] الغني جامد الكف فأنف منه عبده وغادر داره بدون أن يُلبي طلبه . و بينما هو عائد الى الفندق وجد امرأة شمطاء على باب دار معلقًا عليهـا بضع رايات ومرصوصًا فى فنائها وخارجها بعض مقاعد

خشبية « دكك » فعرف بداهة أن ذلك باكورة تجهيز عرس قريب مزمع إقامته فى تلك الدار الحقيرة فعرض نفسه للغناء بالمجان وعرّفها نفسه وسألها عن اسم صاحب الدار فأجابته المرأة وقالت « هل ما تقوله حلم أو علم » وأنى مثلنا أن يستحضر عبده الحمولى مطرب ساكن الجنان ولى نعمتنا الخديو اسماعيل ونحن لا نملك شروى نقير » فأكد لها تحقيق الحلم وغنى فى الليلة المعينة مطيباً قلوب أصحاب البيت الكبيرة نكاية بذلك الغنى المقتر واسداء للمعروف مصداقاً لما رثاه به المرحوم احمد شوقي أمير الشعراء إذ قال ضمنًا

يحبس اللحن عن غنيّ مدل ويذيق الفقير من مختاره

وهناك نوادر أخرى ومميزات اختصَّ بها عبده تنبه لها العارفون بفن الغناء ووقف معاصروه على كنهها اكتفيت فيها بما ذكرته هنا ، فلو أردت استيفاء الكلام على جميع خصاله ومناحي حياته الشخصية والفنية والاجتماعية لطال بي القول بما لا يحتمله هذا المجال .

وقد مات عبده (رحمه الله) فى مدينة حلوان بالسل الرئويّ فى فجر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ بعد ان صنع فى حياته العظائم ، وأقام للموسيقى الشرقية والغناء العربي بناء رفيع الدعائم . فلا تحسبن يا صاح أنه مات وهجع ، وهمد صوته الرخيم الرنان ، وسكنت جوارحه وخرس لسانه ، وقطع حبل نبراته العربية ؟ . كلا . فانه لم يمت ، ولم ينم ، لكنه استيقظ من حلم الحياة بل تحقق حلمه على حد قول الامام كرم الله وجهه « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » . أما نحن البشر فاننا بعكسه نسير بعد فى طريق وعث المبتغى وتنشب بيننا حرب ضروس لا يغني قتالنا عنها فتيلا . والحق الذي لا ريب فيه الخبر بأنه حي فى السماء فسح له ربه بجواره مكاناً سنياً ، تغمده الله برحمته وأجمل جزاءه فى دار النعيم .

وإثباتا للحكمة المأثورة عن الامام علي نورد هنا قطعة شعرية نفيسة عن خلود النفس للشاعر الانكليزي شلي بنصها لشدة ارتباطها بالموضوع وهي

Peace, peace! he is not dead he doth not sleep
He hath awakened from the dream of life.
'T'is we who, lost in stormy visions keep,
With phantoms an unprofitable strife.
He has outsoared the shadow of our night
He lives, he wakes, 't's Death is dead, not he.

◦◦◦○○◦◦◦

عبده الحمولى

مصلح اجتماعيّ فى ثوب مغن

كان عبده انموذج الرجل الصالح يحافظ على مواقيت الصلاة ويربأ بنفسه عن كل دنيئة صائناً من الدنس عرضه وأعراض الناس حريًا بأن يُعرّف بالمصلح فى ثوب مغن . لم يقتصر جوده على جياع أطعمهم أو عِطاش سقاهم أو عريانين كساهم أو مرضى واساهم أو سجناء زارهم أو مقترعين دفع عنهم البدل العسكري حتى بلا سابق معرفته لاشخاصهم بل تجاوز ذلك كله الى أن بلغ حدود الساقطات اللواتي إذا لحهن بوجه الصدفة فى طريقه وهو عائد الى بيته فى عربة مستصحباً معه بعض رجال التخت بعد الانتهاء من سهرته الغنائية استوقف لوقته الحوذي وجمعهن حوله وأفاض عليهن من سجال عُرفه عن تهلل وابتسام ما يملأ العين ويستعبد الحرّ ثم انصاع ناصحًا لهنّ وقال : «يابنات الله يتوب عليكم » هذا ما رواه لى الاستاذ محمد الشربيني العواد مؤكداً انه رآه يفعل ذلك رأي العين وهو حيٌّ يُرزق ويبلغ من العمر ثمانين سنة . فطوباكَ يا عبده ! يا مَن عرفت بحنكة وذكاء فى جسم الضالة ألوتر الحساس وضربت عليه بريشتك الخفيفة الشفيقة لتثوب الى رشدها وتستقيم على الطريقة المثلى للصالحين والصالحات عاماً منك أن الذنب ليس ذنبهن انما الذنب كل الذنب لا يقع إلا على اولئك الذين أضلوهن وجرّوا عليهن بأول هفوة ارتكبنها ذيول العار والخزي وقد طلبتَ اليهن التوبة من الغفور الرحيم ايماءً الى قوله تعالى « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » والى الحديث الشريف « ان التائب من الذنب كمن لا ذنب لهُ »

أجل إن الطبيعة قد اختصت الرجال بالقوة والسلطان على النساء اللواتي ألقين أزمّة الزعامة إلى يديهم الخشنة وامتثلن لارادتهم وأخلدْنَ اليهم بثقة عمياء (وهى محاسب دقيق ذهابًا إلى قول سبنسر فيلسوف انكلترا) Nature is a strict accountant فزينوا لهن ركوب ما لا رأى لهن فى ركوبه وما هنّ إلا طامعات فى حياة زوجية طاهرة وغافلات عما ينفجر عليهن من الدواهى بل موقعات انجاز وعود عرقوب وليسمح لى القارىء الكريم أن أتمثل ببعض أبيات من آخر قصيدة بعنوان « من الملوم » للمرحوم نقولا رزق الله الشاعر العصري جرأتُ على ايرادها لشدة ارتباطها بالموضوع دون أن يتهمني القارىء بالحشو والشرود عنه قال ما يأتي

هم أضـأُولكِ ثم قالوا برآيه نحن منها فهم أضلُّ سبيلا
إن يكن ذنبكِ الجهالة والفقر م فعدِّيه عـذركِ المقبـولا
كلهم مذنبٌ اليكِ وما لا قيتِ إلا مضلَّلا وبخيـلا
أو يعدُّوا لكِ المحبةَ ذنبًا فاسألي اللهَ عفـوَهُ المأمولا
هفوةً للهوى هفوتِ ومرَّت ثم جرَّت عليك تلك الذيولا
لم ينل جانبًا عقابٌ فظيعٌ كعقابٍ بهفوةٍ قد نيـلا
أيها العـادل الحكيم ترفق واتق اللهَ فى النساء قليـلا
إمنع الارضَ أن تدور ولا تمنع م فؤاداً الى الهوى أن يميـلا
أيها الناس ذنبكم ذلك الذنبُ م فكونوا إذا حكمتم عدولا
أو فجودوا على الفتاة بما يحفظ م وجهَ الفتـاة حرّاً جميـلا
فضـلُ من جاد للفقير بمـالٍ فضـلُ من علَّم الغبيَّ الجهولا

وكفاه فى العار فخراً وما ابهى جمال القلب جمال التضحية وما أعظم حبه للفقراء والأشرار وما أعظم تضحيته للحزانى ومضطربى البال بدليل أنه فى ليلة غنى الملك الجواد الخديو اسماعيل ولما أجاد سأله الخديو قائلاً يا عبده اطلب تُعطَ فأجابه لفوره وطلب بأن يعفو عن نشأت باشا مدير القليوبية آنئذ الذى كان صدره واغراً عليه ويبعث اليه رحمة ومغفرة لا لعانًا وسبًّا فعفا عنه وكان ارتياح عبده للعفو عنه أعظم من ارتياح الأخير له لأن العطاء خير من الأخذ ولو طلب عبده من الخديو اسماعيل مالاً جزيلاً لنفسه دون سواه لناله حتماً لأن كلام الملوك ملوك الكلام ولكنه آثر الخدمة العامة على خدمته الخاصة

على اني أرى ما يماثل ذلك واكثر منه بدليل أن فى الأوساط المسيحيـة أشخاصًا من رجال وسيدات كرّسوا حياتهم لخدمة المجتمع ببـذل النصح للساقطات فى محالهن لينزعن عن عيشتهن الفاسدة وهم لا يأبهون لما قد يلحقهم جميعًا من غضاضة بغشيانهم منازلهن لاعتقادهم فى أنفسهم بأنهم فى ذلك يؤدون واجبًا انسانيًا شريفًا ذهابًا إلى أن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى حتى أن منهم من يتناول من جيبه مبلغًا من المال يدفعه الى من يراها فى حاجة ماسة اليه لتكف عن غوايتها وتقيم به أود معاشها موقتًا إلى أن تحترف مهنة شريفة وكثيراً ما نرى جمعيات مؤلفة من فضليـات

النساء الغرض منها منع تعاطي الأشربة الروحية والسموم المعروفة بالمرفين والهيروين ابقاء على حياة مدمنيها وحفظاً لاحساساتهم ووجداناتهم الشريفة فلا يُرمى بذنب من يفعل مثل ذلك بل يشكر عليه ولو لابسهم فى بيئتهم . هذه هى ضالة المصلحين والمصلحات المنشودة وتأييداً لها لا بأس من ايراد ما قاله أدون مركهام الشاعر الاميركي وهو « ان المتعصب رسم دائرة صغيرة لنفسه وجعلني أنا الجاحد الضال خارجها ولكني والحب عوني غلبته وقد رسمت معه دائرة كبيرة وجعلت الضال داخلها » وكم كان يرتل القديس فرنسواى داسيز أناشيده عن الشمس والطبيعة إذ أنه عظّم الشمس وغنى قائلاً الشمس أختنا والقمر أخونا والريح أختنا والماء أخونا والنار أختنا والارض أمنا والعصافير اخوتنا الصغار والزهور اخواتنا الصغيرات وهو لا يعتبرها غريبة أو دخيلة لأنها تمثل جزءاً من العائلة البشرية وتعبد إلاهاً واحداً مثله » وكان حقًا علينا نحن المصريين أن نعتبر عبده الحمولى الموسيقار العربي مصلحًا قوميًا ومربيًا اجتماعيًا استطاع بما حباه الله من الشعور وقوة الالهام أن يفتح لنا ما تنكر من ذرائع الاصلاح واتخذ من الذين تاهوا فى شعاب الباطل وكثيراً ما هم وأتابهم الى هداهم أنصاراً وأصدقاء حريين بأن يكونوا أعضاء للعشيرة البشرية نافعين فى البلاد وعاملين على احياء مجد مصر وأقدر من سواهم على إدمان تعاطي العلم والصناعة والتفرغ لهما عن ركوب متن غرورهم

كرم الحاتمي -- ويُحكى عنه أنه بينما كان يلعب النرد (الطاولة) مع خليل بك ابراهيم من كبار موظفي مصلحة الجمارك بدكان المدعو ابسطولي تاجر الطرابيش بالاسكندرية (وهو الدكان الوحيد الذى اعتاد أن يغشاه عبده دون المقاهي على ما أكد لي صاحب المعالي سعيد ذوالفقار باشا السراي الملكية يوم ١ يوليو سنة ١٩٣٥ وكان يكلمه عبده بالتركية لعدم معرفته العربية) لمح رجلاً مسناً عن ذكره لي الأستاذ جاك رومانو صديق عبده - يرقب إنتهاءه من اللعب بفارغ الصبر فاستبطن عبده كنهه في الحال وترك الطاولة وتوجه نحوه وكان عبده يلبس باصبعه خاتمًا ثمينًا من الزمرد مسوري الشكل المعروف اصطلاحًا بال Capuchon لا يقال ثمنه عن الف جنيه ولما اقترب منه بلده عاد إلى مجلسه وأراد استئناف اللعب تنبّه احمد افندي عبد المنعم الباشكاتب بالمحافظة من عدم وجوده باصبعه فنبه نظر جاك افندى رومانو الجالس بجانبه إلى ذلك وأخذ كلاهما يلومانه على تصرفه به فاعتذر اليهما مما جرى بحجة أن النقود التى معه لم تكن كافية لسد حاجته فاضطر إلى تسليمه اليه ليتصرف به كما يتراءى له واحتجّ لنفسه قائلاً لهما

«دوام الحال من المحال فالدنيا غدور والدهر عثور وذكرها القول المأثور « اكرموا عزيز قوم ذل»

مواساة الفقير — بينما كان ساكنًا بحارة التمساح (بقسم عابدين) بجوار منزل صديقه حضرة مخائيل بك تادرس طلب ذات يوم من أيام شهر شعبان من الأخير أن يذهب معه إلى جهة الخنفي بشارع سيدي صالح حيث كان يوجد دكان بقالة « وبيش » للمدعو علي افندى التمر الخزنجي سابقًا بسراي الجزيرة للمغفور له الخديو اسماعيل ليشتري منه مايلزمه فى شهر الصوم المبارك فاشترى بالفعل أرزاً وسكراً وفواكه ناشفة وحلويات متنوعة بستة عشر جنيهًا دفعها اليه مما كان معه ولم يبق فى جيبه سوى ٢٧٥ قرشًا صاغًا وقفل راجعًا مع صديقه إلى منزله وقال له فى الطريق « ربنا أكرم من كل كريم فالذى رزقنى مصروف شهر رمضان ليس بعسير عليه أن يرزقنى مصروف العيد وما كاد ينتهي من حديثه هذا ويقترب من منزله حتى أقبل عليهما رجل رث الثياب وسلم عليهم، وأخذ يقبل يد عبده فما كان من الأخير إلا أن اخرج من جيبه مبلغ الـ ٢٧٥ قرشًا وأعطاه اياه فاعترضه مخائيل بك ولامهُ على أعطائه كل المبلغ بدون أن يبقي لنفسه شيئا منه فأجابه عبده قائلاً انك لو وقفت على حقيقة حال هذا الرجل لعذرتنى فيا أتيت لأنه كان من أكابر فراشيّ العاصمة وكان يملك مفروشات وسجاجيد وفضيات ثمينة وهو الآن كما تراه لا يملك شروى نقير فقد تجاوز بصنيعه الحد الصحيح المعقول الذى اختطه السيد المسيح الذى قال «إذا كان لك ثوبان فاعطِ واحداً منهما لأخيك تلك الحكمة المأثورة البليغة لجديرة بأعلى اعتبار ولي أن أعتبره هنا غبين الرأي ولا يبرأ في هذا التهور من الملام

حقًا أن مثل هذه التضحية ينطبق عليها قول أحد علماء النفس من الانكليز ومفاده معربًا كما يأتي « أن الماء الذى لا يسمع أنين البائسين وآلام المرضى هو غير طاهر ولو باركهُ كل قديس فى السماء أما الماء الذى انصب فى آنية الرحمة فهو طاهر ولو تلوث بالرمم وتأذى بالجراثيم »

اضطهاد المحافظ له - كان عبده من أكرم الناس شيمة وأصدقهم عهداً لا يلتبس الحق بالباطل وقد أُشرب حب الدمقراطية . اتفق على ما ذكره لى مؤخراً الاستاذ سامى الشوا نقلاً عن الاستاذ محمد كامل الرقاق ان طلب منه أحد محافظيّ مصر فى عهد الخديوى توفيق أن يغني فى ليلة معينة بداره فاعتذر عبده اليه من ذلك لسابق تعهده بالغناء فى الليلة نفسها مع شخص آخر فلم يرق للمحافظ الارستقراطى اتباعه شرعة الدمقراطية المرعية واضمر له الحفيظة وأخذ من ذلك الحين يقاطعه

مقاطعة جديّة أسفرت عن حرمانه الغناء عند عظماء العاصمة مدة ستة شهور تعني أنه كان يشترط على من يدعونهُ منهم الى حضور عرس من الاعراس بأنة لا يحضره اذا استحضروه للغناء فاضطروا الى الاستعاضة عنه بالشيخ صالح العربى الذى ظهر اسمه فى عالم التطريب فى ذلك الوقت أو غيره من المطربين فانزوى فى حلوان فى تلك المدة دون أن يشتغل ليلة واحدة فحضر اليه محمد كامل المذكور ورجاه بأن ينزل معه الى القاهرة لعل الله يفرج كربه فوافقه على ذلك ونزلا فى لوكاندة الكونتيننتال وبينما كانا يشربان فيها القهوة ويتجاذبان أهداب الحديث أقبل عليهما محمد بك يكن وكان فى داره عرس فخم مساء ذلك اليوم وبادر الى الاعتذار لعبده وقال له انه لتشديد المحافظ عليه فى عدم استحضاره الغناء أضطر إلى الاستعاضة عنه بثلاثة مطربين وهم محمد عثمان ويوسف المنيلاوى ومحمد سالم .

ولما كان عبده من أكمل الرجال عقلاً ولا يخشى فى الحق لومة لائم آلى على نفسه ألا يسترضى المحافظ لأنه لم يرتكب ذنباً يعاقب عليه وقال لمحمد بك يكن أن لأعضاء العائلة اليكنية قدماً فى الخير وفضلاً عليه فانه يجد لزاماً عليه أن يخدمهم بغنائه فى ليالى أفراحهم وازمع على الحضور خاسة فى منتصف الليل ورجاه أن يكتم هذا الخبر عن المحافظ الذى سيكون غالباً بين المدعوين وتم الاتفاق بينهم على ذلك فعاد محمد يكن بك الى داره وتركه محمد كامل الرقاق استعداداً للشغل على تخت المنيلاوى كرقق فى تلك الليلة فما كاد الحضور فى السرداق يرى عبده قادماً نحو منتصف الليل حتى دوى المكان بالتصفيق وصعد مباشرة إلى تخت يوسف المنيلاوى وبدأ يعزف على العود بدون أن يجسه أو يصلحه وغنَّى قائلاً يا ليل فرأى محمد الرقاق وهو على التخت المحافظ يُبدى لعبدى صفحته ويستعدّ لمغادرة مكانه وما كاد يسمع « يا ليل » ثانيًا حتى طرب واستقرّ فى مكانه فدوى المكان التسبيح بصوته الرخيم وانتقل من يا ليل إلى موال ثم إلى بشرف فدور على تخت يوسف الذى انضم اليه كل من محمد عثمان ومحمد سالم وخلب العقول بغنائه وأضحى المحافظ يطفر من الطرب وأخيراً صعد إلى التخت وحذ يقبل عبده مراراً وتكراراً ودموعه تتساقط على خديه وطلب منه أن يتناسى كان منه وتعانقا وتصالحا على مرأى من الناس فكان ذلك منظراً مؤثراً فى الحاضرين ودليلاً ساطعًا على أن الموسيقى ترمى وظيفتها إلى إيجاد المحبة وتهيّي أسباب السلام وظهر فى اثناء تلك الليلة ميل الجماهير المحتشدة إلى عبده واعترافهم بالاجماع بعبقريته وزعامته على جميع المطربين .

قوة ابتكاره — وللمرحوم عبده قوة عظيمة فى الابتكار والارتجال وقد فاجأ الحاضرين فى ليلة عرس فخم لأحد الاعيان فى الاسكندرية بتغيير دور « أد ما أحبك زعلان منك » (صبا) تلحين محمد عثمان وقلبه رأسًا على عقب فغناه فى الحال على نغمة النهوند ولأول مرّة لدى سماعه محمد عثمان يلقيه فى العرس نفسه فافتتن الحاضرون بما حباه الله من قوة الصوت والسلطان على المقامات والابتكار والتأليف فجأة بدون استعداد وكان محمد عثمان فى مقدمة من أعجبوا بقدرته الفائقة على هذا الابتكار وجهر بخضوعه لعبقريته وزعامته ولا أعتقد انه إذا أخذ لحنًا من ألحان أى ملحن وغناه يعتبر غير قادر على التلحين كلاً والف كلاً ولو عكف على التلحين للحّن الف لحن لكنه لضيق وقته كان يصرف معظم أوقاته فى مجالسة الامرآء ومنادمة العظمآء ومؤآساة الفقرآء

ومن الأمور المسلّمة والقواعد الثابتة فى علم الموسيقى أن الفضل يرجع إلى الملحن فى تلحينه الدور وإلى المطرب الناشر ذلك الدور على حدّ سوآء وليس للأول أن يستأثر وحده بهذا الفضل إذ لا فائدة تنجم له من تلحينه إذا لم ينشره المطرب مثل عبده بما أوتيه من قوة صوت وحسن القآء وكثيراً ما كان يأخذ الأخير عن ملحن كبير مثل محمد عثمان أدواراً يبدلها ويزخرفها بريشة رفائيل وينحتها بازميل ميكلانج وينفخ فيها من روحه ويلحنها تلحينًا خاصًا بما أوتيه من صوت فى إمرارها بجميع المقامات مما يعجز عن الاتيان بمثله الملحن الأصلى إما لضعف صوته أو لسبب آخر بمعنى أن ما لحنه الملحن مثلاً كان ضمن حدود معينة بحسب صوته وقضى فى إبرازه مدة من الزمن خلافًا لعبده فان الآلات الوترية لا تجاريه فى علو الصوت وأن ابتكاره وتفننه واسعان كالكون ولا حدّ لهما

على ان التلاحين المنسوبة للملحنين لا يمكن الجزم بصحة نسبتها كلها اليهم ولو كانت مدونة بأسمائهم فى بعض الكتب الموسيقية إلا إذا كانت تلك التلاحين مسجلة تسجيلاً رسميًا لأن الملحن الذى يدّعى أنها من بنات أفكاره وأنه هو الملحن الوحيد لها لا يجد أمام القضآء إذا دعت الحال إلى ذلك ما يثبت زعمه خلافًا لما هو حاصل فى بلاد الغرب فان فى خزائن أنديتها الموسيقية ومهارق معاهدها من مودعات تلاحين موسيقييهم فى ملفّات خاصة بكل واحد منهم ما لا ظلّ عليه للريب لأنها مسجلة رسميًا وثابتة ثبوتًا غير مأخوذ فيه بالظن والتكهن أو من طريق المشاعر كما هو حادث فى أنحآء الشرق

ومن المحتمل أن يُنسب تلحين دور إلى مغن أجاد فى القائه دون أن يكون ملحنه كما ينسب خطأً تلحين دور مُلحن على أعلى الطبقات إلى ملحن ذى صوت ضعيف

وليست الشبهة من جهة نسبة التلاحين إلى الملحنين بوجه عام مقصورة على الأدوار بل على مقاماتها أحيانًا مثال ذلك مذهب « ياما انت واحشنى وروحى فيك » تلحين محمد عثمان فان المقول عنه فى كتب الموسيقى انه بنغم الحجاز كار والصحيح ان نغمه « الشاه ناز » (دلال الملوك) وقد قام عبده بتغيير نصف تلحين المذهب ومن هنا يُستنتج أن الفضل لا يجب أن يكون مقصوراً على الملحن وحده بل الأوجب اتباعًا لشرعة الانصاف والمساواة أن يجمع الفضل بين الملحن ومؤدى اللحن

وأزيد على ذلك وأقول أن مذهب « كادنى الهوى وصبحت عليل » تلحين محمد عثمان لكنه منسوب إلى عبده كما جآء بكتاب كامل الخلعى ص ١٥٠ وقد يكون ذلك خطأً وهو من مقام النهوند قد غناه عبده وأبدع فيه ذات ليلة إبداعًا أدى إلى غشيان المرحوم عزت بك أحد كبار موظفى المالية وقتئذ وكان من أعاظم هواة الناى فنزل عبده من التخت وأخذ يؤآسيه ويشتمه بالأرواح المنعشة ويدلك أطرافه إلى أن أفاق وشكر له رقة عواطفه ولطيف إحساسه وشدة تأثير الموسيقى فى نفسه

ثم صعد الى التخت وأخذ يتم الدور وما لبث أن وصل إلى عبارة « بالطبع أنا أميل يا اللى تلوم دا شيء بالعقل انظر كده واحكم بالعدل » رغبةً أن يقفل النغمة بدلاله وتفننه حتى صاح أحد الحضور وقال يا ابن . . . . الـ . . . . إيه . . فقام العظمآء نحوه ليزجروه ويطردوه فقال لهم عبده وهو على التخت « سيبوه دا معذور كان » ولم يستقروا فى مجالسهم إلا بعد أن تحققوا صدق إعجابه بغنائه بعبارته العامية التى لم يقصد بها اساءته واعتبروها مدحًا فى موضع الذم

على انى أطلت فى الكلام على هذا الباب الى ما لعله أدّى إلى سأم المطالع فأقف منه عند هذا القدر إذ ليس من غرضى فى هذا المقام الاحاطة بكل ما القاه عبده من أدوار صادرة عنه ومذاهب ملحنة منه بل الاشارة إلى أنه كان يلقى من أدوار الملحنين ما كان يستحسنه ويجده مطابقًا لذوقه السليم فضلاً عن انه كان يغيرها فى الحال على أحسن طراز ويقلبها جملةً ومفترقًا حسب إرادته وقد دُعي مرة ، عبده ومحمد عثمان والمنيلاوى للغنآء فى عرس عظيم من عظمآء البلد على تخت واحد وقد شهدت بعيني رأسى وليس لأول مرة عبده رئيسًا ومحمد عثمان عوادًا والمنيلاوى مساعداً بدون أن يجرأ آعلى إتيان أى حركة أو نغمة انفراديًا فهو بلا مرآء أسبق المطربين الذى لا يُشق غباره

لطيف هزله وخفة روحه — وتطيباً للقلوب أروى من فكاهاته المليحة ومضحكاته المهذبة ما يضحك الحزين ويذهل الزاهد فضلاً عن أنه يبين جلياً أنه كان يمتاز عن سائر المطربين بالجاذبية الشخصية الوليدة فيه والتى تعتبر منحة طبيعية كمنحة الصوت والبكم البيان

دُعي ليغني فى الاسكندرية بدارعين من أعيانها أقيم فيها سرادق فسيح زُين بالفخر الرياش وفرش أرضه بالأبسطة النفيسة وكُلّف حاجب على الباب بأن لا يدخل أحداً من المدعوين إلى السرادق غير حامل تذكرة الدعوة ولما آن أوان الغناء وكان التخت على أتم استعداد دار البحث عن عبده فلم يوجد فى الداخل وأخيراً عند ما وصل صاحب العرس وحاشيته إلى نحو الباب سمعوا لجاجاً ولغطاً شديدين بين الحاجب وعبده فشرح لهم الأخير أن سبب تأخره عن مباشرة الغناء نشأ عن أن الحاجب منعه من الدخول بحجة أنه لم يحمل تذكرة دعوة فحملوه على أكتافهم إلى أن جلس على أريكته الموسيقية فارتجل موالاً وغناه وهو كما يأتى :

ليه حاجب الظرف يمنعني وانا مدعي — لري روض المحاسن من دما دمعي
كم أفتكر فى احتجابك واشتكي وانعي — سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح

قول لى بحق المحبة ما سبب منعى

يذيق الفقير من مختاره — كان لرجل حمّار يناهز السبعين امرأة فتانة المحاسن رشيقة القد وكان يحبها إلى حد العبادة ولما حملت منهُ وعدها وعداً وثيقاً بأنه يأتى بعبده الحمولى ليغني إذا وضعت ذكراً وأردف وعده بالطلاق ثلاثاً وولدت ولداً ذكراً فوجد نفسه أمام أمر واقع فاكتأب لوقوع الطلاق حتماً إذا لم يغنّ عبده وبعد أن قلّب الزوجان الرأى ظهراً لبطن ذهب الحمار إلى منزل الأخير يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وقصّ عليه الواقعة بحذافيرها فرّق عبده لحاله ولبّى طلبه وما كان منهُ حتى أرسل إلى داره فراشاً نَصَبَ أمامها سرادقاً يناسب المقام وعهد الى طباخ فى أعداد مالزم من مأكل ومشرب وغنى على تخته المشهور إلى أن شابت ناصية الليل كأنه مكافأ بأعلى أجر ثم مالبث ان نزل من التخت حتى أفرد منديلا بادر الى أن وضع فيه مبلغاً من جيبه ومده للحاضرين فجمع خمسين جنيهاً دفع منها المصروفات العمومية على ما سبق الايماء اليه وناول الحمار ما بقى منها ليُصرف على زوجته فى النفاس وبذلك الصنيع الجميل خاصت زوجته من الطلاق وأمست حليلةً لهُ تقاسمه السعادة والهناء .

واليكم ما جاء بمصباح الشرق : صادف عبده بعد السهرة فى الطريق رجل لا يعرفه وقال أن ابنه مطلوب للخدمة العسكرية وليس معه شيء من البدل ليعفيه منها فأخرج من جيبه صرة الدراهم التى تقاضاها أجرة الليلة وأعطاها له . و بلغه أن أحد تجار طنطا وقع فى ضيق يُخشى عليه فيه من الفضيحة فجمع ما لديه من الدراهم وأعطاه خمسماية جنيه ليستعين بها فى عسرته ويحفظ صيته فى تجارته

ودُعى للاحتفال بليلة خيرية فى مدينة سوهاج بأجر قدره ثمانون جنيهًا ولما رأى القوم يتبرعون بالمال وثب من فوق التخت ووقف فى وسطهم قائلا لأعضاء الجمعية « ولِمَ تحرموننى التبرع مثلكم ؟ وتنازل عن الثمانين جنيهًا » اه

« ساكنة » استاذة « المظ »

لما كانت المرحومة ساكنة أقدم المغنيات (العوالم) عهداً رأيت لزامًا علىّ أن أتكلم عليها أولاً فى هذا الباب الذى أفردته لعبده وألمظ لشدة ارتباطها بالموضوع من حيث المظ التى أخذت عنها فن الغناء وقد توخيت دقيق الاستقصاء من الذين عاصروها وتلمست الأخبار اختطافًا وتدريعًا فأقول بالايجاز « أن ساكنة » هى أول مطربة ظهرت فى مصر فى عهد عباس الأول حيث بزغ نجم سعدها فى سماء الغناء وزاد ضياءً حتى عهد ساكن الجنان سعيد باشا والى مصر وكانت متصفة بحسن الصوت الذى كانت ترسله إرسالاً بدون عناء فيبلغ صداه الرائح والغادي والبعيد والقريب وقد أعجب بها الترك الذين كانوا مقيمين فى مصر ولقبها العامة بلقب « بك » وكان لها مزاح يضحك الحزين ويفرح قلب العابد لما انطوت عليه من تهذيب لسان وخفة روح وقوة البديهة وسرعة الخاطر وكان المزاح فى ليالى الأفراح عادة مألوفة فى مصر حتى فى عصر عبده الحمولى الذى كان فيه يُحتم على صاحب العرس أن يستحضر مضحكين ينزلان إلى ميدان المضاحكة بين كل وصلة غناء وأخرى تخلصاً من الملل فى أثناء إنتظار تصاليح الآلات وطلباً للروح (بالفتح) .

واستمرت ساكنة تتمتع بحسن الأحدوثة فى غنائها الى أن ظهر فى أفق مصر هلال ألمظ فأخذ ينمو ويكبر حتى أضحى قمراً منيراً ولما سمعت ساكنة صوتها الرخيم العذب أخذت تتجاهلها ولكنها لم تستطع صدّ تيار نجاحها القوى ومنع اقبال الناس عليها فرأت تفاديًا من المنافسة غير المنتجة أن تضمها إلى فرقتها فتكون فيها تابعة لها وتحت أشرافها بدون أن تستطيع أن تزرى بصيتها أو تنزل من رتبتها فمكثت معها المظ مدة تدرّبت فيها على فن الغناء لحذقته لكن ساكنة فقد حقدت

عليها لعظم وقع غنائها عند الناس وهى ضمن فرقتها وأخذت تسيء الظن بها حتى تركتها والفت لها فرقة خاصة وأحرزت خطر السبق وقضت على صيتها قضاء مبرماً ومن ذلك الحين بدأ نجم « ساكنة » بالأفول وأخذ الدهر يقلب لها ظهر المجن إلى أن وافاها الحمام بعد أن بلغت سن الشيخوخة وذلك فى عهد المغفور له الخديو اسماعيل .



(السيدة « سكينة » المطربة الشهيرة « بألمظ »)

أما « ألمظ » فاسمها الحقيقى « سكينه » واسمها الفنى « ألمظ » وهو تحريف الماس تشبيهاً بماله من بهاء ورونق ولمعان واشارة الى ما لها من صوت رخيم رنان وجاذبية . أما صناعة والدها ، فقد تضاربت آراء الرواة عنها وتباينت أقوالهم فيها فمنهم من ذهب الى أنه بناء لأنها كانت تحمل قارب المونة على رأسها لتقدمه للبنائين وهى تغنى فى مقدمة زمرة من الفتيات العاملات معها ومنهم من قال أنه صباغ ، وقد ظهر أن الزعم الأخير هو الأصح وظلت طريقة الغناء شائعة فى مصر فى

الوجهين القبلى والبحرى حتى الآن وهى تجلب الجذل وتبعث على النشاط فى أثناء العمل وتطلق النفس من عقال السأم .

ومصداقاً لما تنتجه الموسيقى من التأثير فى العمل أشير الى قصة أنفيون جو بيتر الذى بنى أسوار طيبة بينما كان يعزف على قيثارته على حد ما قاله الدكتور كلارك من أن ذلك لم يكن خرافة .

على أن صوت يوسف المنيلاوى على ما شهد به المرحوم محمد المسلوب الكبير لم يكن الا شيئاً ضئيلاً اذا قيس بصوت ألمظ بالرغم من عذوبته ولينه ورنينه وقد صدق وجنر الموسيقى الشاعر فيما قال وهو أن الموسيقى مؤنثة وكانت امرأة

أما عبده فهو أسبق المطربين لا يشق غباره ويفوقها فى غريب تصرفه وعظيم تفننه فى ضروب الغناء وقوة التأثير فى النفوس بما أوتى من روح فنان و إلهام طبيعى وكثيراً ما كان يجمعهما عرس واحد تعنى أنه كان يغني للرجال فى «السلاملك» وكانت تغنى للهوانم فى الشرفة «الشكمة» (لفظة تركية) على مسمع من الحريم والرجال معاً . وكان احمد الليثى يصور نغماتها وهو فى السلاملك على التخت فكان يعلى العود كلما غنت عالياً حتى أنه لما عجز فى آخر الأمر عن مجاراتها فى تصوير نغمات صوتها المحلق فى الفضاء قطع أوصال العود وصرخ قائلاً « مين ينكر صوتك يا ست » . جرى ذلك فى عرس فخم لعظيم بدرب الجماميز أقيم فيه أربعة تخوت ولم يكن عبده حاضراً لتغيبه بالاسكندرية نقلاً عن رواية حضرة مخائيل بك تادرس صديقه الأمين وهو أوفى من عوف لما رأيت فيه من الولاء الشديد لعبده والترحم عليه ، وقد آلى مثلى ألا يرضى عن غنائه بديلاً

أما ألمظ فقد حاربت عبده ردحاً من الزمن ، ونافسته فى صناعة الغناء لكنه تفوق عليها

ألمظ مزاحة ظريفة — ومن المدهش أنها كانت ذات شخصية جذابة وكثيرة الميل الى المداعبة فى كل وقت لا سيما فى أثناء الغناء . ومن مستملح الفكاهات أروى انها ارتجلت دوراً غنته له قصداً لاول مرة رأته فى عرس بناحية الجيزة بعد ان اجتاز النيل على « المعدية » وهو بالمنيل (لعدم وجود « كبارى » فى ذلك الزمن) بقصد أن يستمعها . فقالت فيه ضمناً

عدى يا المحبوب وتعالى   وان ماجتشى أجيلك أنا
وان كان البحر غويطة   أعملك على القلب سنآلة

وقد غنته موالاً آخر فى عرس فخم جمعها و إياه وهو على تخته المشهور وهو كما يأتى :

يا الى تروم الوصال ، وتحسبه أمر ساهل   دا شيء صعب المنال ، وبعيد عن كل جاهل
ان كنت ترغب وصالي ، حصل شوية معارف   لأن حرارة دلالي ، صعبة وانت عارف

فما كان من عبده الا أن هدرت شقشق ارتجاله وغنى الموال الآتى

روحي وروحك حبايب   من قبل دى العالم والله
وأهل المودة قرايب الخ الخ

مما دل على أن الله فجر ينابيع الذكاء والبديهة على لسانه وحباه بلطيف الحس وسرعة الخاطر وسامى الشعور وقد اتفق لى أن عثرت فى أثناء المطالعة على ما يشابه ذلك مبنى ومعنى وهو أن شاعرة من شواعر الانكليز أهدت الى زوجها ديوانًا من الشعر الذى نظمته ذكرت فى افتتاحيته الأبيات الآتية التى اجترىء على إيرادها بنصها خشية ضياع طلاوتها اذا عربت وهى كالآتى

The love within my heart for thee
Before the world was had its birth
It is the part God gave to me
Of the great wisdom of the earth

ومن أدوارها التى امتازت بها وتداولتها الألسن اذكر ما يأتى

الوَىّ . الوَىّ   يا حلالى من الله عشقك يا خيّ
لازم أهشه دا العصفور   انكش له عشه . دا العصفور
دا ابن الأكابر . دا العصفور   على العشق صابر دا العصفور
طار وعلاً وعلاً وطار   ونزل على بيت العطار
وكبش مابس وادانى   ولوز مقشر واعطانى
لازم أهشه ، دا العصفور

يا سيدى أنا أحبك لله ، وربنا عالم شاهد   لاصبر على أحكام الله ، لما يبان لى معاك شاهد
خبط الهوى ع الباب ، قلت الحليوه أهو جالى   أتار الهوى كداب ، يضحك على القلب الخالى
ليه يا حمام بتنوّح ليه ، فكرتنى بالحبايب   ياهلترى نرجع الأوطان، ولا نعيش العمر غرايب

وذلك فضلاً عن انها كانت تغني أدوار عبده وكانت تقتصر فى الليالى التى تغنى فيها على دورين اثنين فقط تلبية لطلبات الجماهير الذين ينزعون عن سماع غيرهما لتفننها فى النغمات وقت التكرار ، وقد روى لى الاستاذ محمد الشربينى ما يأتى

« جمع قبل الزواج عبده والمظ عرس لخم بدار وجيه ، فبدأ عبده فاصلاً غنائيًا خلب به عقول الحضور من تلامذة المدارس العليا والحربية وهواة ومحترفين . ولما انتهى منهُ قام عمران مطيب المظ يتمايل كعزة الميلاء بملابسه الغاليــة والخواتم بأصابعه والكتينة والساعة الذهب على صدره وأخذ يخطب الجماهير كعادته المألوفة خطبة بمثابة مقدمة وقال « قولي لنا يا ست المظ الدور الفلانى وسماه حسب طلب الحضور فأجابته وقالت « رايحه أقول إيه بعد اللي قله سى عبده » فردَّ عليها وقال : قولى اللى تقوليه . قولى يالجال أخضر . فما لبثت تفكر فى ذلك مدة دقيقتين حتى رتبت المجل دوراً غنته ونال الاستحسان العام وكان مسك الختام ومن مزاياها أنها كانت تغنى أحيانًا فى سراى الخديو اسماعيل فى حضرة حرمه المصون وهى تلعب النرد مع رفع التكاليف أو تلوح منديلاً بيدها بدون أن تتحمل من تصعيد غنائها أو تعانى فيه جهداً على حد ما كان يطلق عبده صوته فى الفضاء متجاوزاً مطارح النسر وهو يلعب بحبات السبحة الكهرمان أو العنــبر التى كان يفركها بكلتا يديه ويشم رائحتها وكان لنغماتها الرنانة ما يذبذب فى آذان سامعيها مدةً من الزمن كما كان لصوتها من صدى يتكرر حدوثه بنفسه عدة مرات فى السراى حين الغناء ويكون سببه وجود سطحين متآزيين على جانبى الصوت يرد كل منهما صداه الى الآخر كما يكون مثل ذلك فى المرئيات عنـد تقابل مرآتين متآزيتن

وكانت قمحية اللون واسعة العينين كثيفة الحاجبين مسحآء الثدى وكان لها من عذوبة المنطق وجمال العقل والقلب ما يجعل لها أسمى موضع من النفوس إذ أن جمال العقل والقلب سرمديّ وهو لأفضل من جمال الجسم الباطل الذى عرّفه الفلاسفة وعلماء النفس بيغى قصير الأمد وغدر صامت وأذى لاذّ فلأجل ذلك أحبها عبده حبا انطوت تحته نغمة من نغمات حب الوالدات وحنانها على الفطيم (وشبيه الشكل منجذب اليه) ومنعها من الغنآء منعا باتا بعد أن تزوجها وكان تحته ليلة زفافها اليه مؤلفا من أكابر العازفين أمثال أحمد الليثى العواد والجمركشى وابرهيم سهلون الكمانى ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وأبدع عبده فى الغنآء إبداعا أخذ بمجامع القلوب وكان مدلوله دمعــة الباكى وقبلة العابد وتعزية الحزين وهادى المسافر ورسول السلام ومنعش المكتئب ومحمّس الجبان ولا أبالغ إذا وصف غنآءه فى هذا المقام كبستان فيه الزهور والورود والرياحين يفوح شــذاها على الحاضرين أو كمعرض تعرض فيه جميع النغمات الموسيقية التى خلقها الله وحصرها فى صوت الانسان حتى أضحى فى الشرق مهوى الأفئدة وبهجة الناظرين

وقد روى لى الاستاذ محمد الشربينى أن الخديو اسماعيل كان يأنف من عادات العامة فى العويل والصراخ وراء الميت و يتشاءم من ذلك فأصدر أمره الكريم بألا تمر الجنازات بساحة عابدين ولما سمع بوفاة ألمظ رخص لآلها بأن يمر جثمانها منها ولدى وصوله أطل من الشرفة بالسراى وترحم عليها مكبراً موسيقاها العربية وكان ساكن الجنان الخديو اسماعيل ولعاً بالموسيقى العربيــة فعين للمرحوم عبده ١٥ جنيهاً مرتباً شهريًا ولكل من ألمظ وأحمد الليثي وابرهيم سهلون ومحمد خطاب ١٠ جنيهات واستمروا يتقاضون هذه الرواتب بعد تولى الخديو توفيق الأريكة الخديوية وانقطعت فى عهد الخديو عباس . أما ساكن الجنان السلطان حسين فكان ولعاً بالموسيقى العربية (وهذا الشبــل من ذاك الأسد) إلى أبعد مدى بدليل أنه استدعى قبل وفاته بأربعين يوماً تختاً مصريًا مكونًا من الأساتذة محمد العقاد القانونجى وسامى الشوا أمير الكمان وعلى عبد البارى المطرب وحسنين العواد والبزرى العازف على الناى فغنوه غناء عربيًا ذا صبغة شرقية وروح مصرى انفسح له صــدره فأجزل لهم العطاء وأكرمهم إكرام اسماعيل أبى الأشبال وصاح عند انصرافهم قائلاً لهم اطلبوا إلى الله أن يطيل فى عمرى ليتسنى لى القيام باحياء الموسيقى العربية وتجديد شبابها وإعادة مجدها الأثيل ولم تعقب ألمظ نسلاً بل تركت لزوجها الحسرة على فقدها . كما أنها تركت له جواهر ونقوداً ومفروشات وشالات كشمير زين بها رياشاً لعدة غرف وبهو وردهة منزله وستائر الخ ومنزلاً بدرب سعادة باعه قبل سفره إلى أوربا للاستشفاء وقد غنى عقب وفاتها المذهب الآتى على نغمة العشاق

شربت الصبر من بعد التصافى ومر الحال ما عرفتش أصــافى
يغيب النوم وأفكارى توافى عدمت الوصل يا قلبى علىَّ

(دور)

على عينى بعــاد الحلو ساعة ولكن للقضـا سمعا وطاعة
دى غرشى الروح فى الدنيا وداعة عدمت الوصل يا قلبى علىَّ

ولما كان هذا المذهب وهذا الدور مدونين بالنوتة عن عبده بالمعهد الملكى بمعرفة الاستاذ داود حسنى لمَ يا ترى لم يتلقنه الطلبة فيه احتفاظا بسحر الموسيقى الشرقيــة وتوجد غيرهما أدوار له ولمحمد عثمان وابرهيم القبانى فما فائدة تدوينها الذى صرف عليه مبلغ طائل وهى من مودعات الخزائن ؟ ؟

أزواج عبـــده الخمس

كانت زوجته الأولى منذ ارتفع عن سن الحداثة إبنة المعلم شعبان القانونجي من طنطا ، والمظ الثانية ، والثالثة من جهة الامام الشافعي التابعة لقسم الخليفة خلفت له محموداً الذى سيأتي الكلام عليه أما الرابعة ، فقد رُزق منهــا بنات فقط كانت إحداهن المدعوة زينب تزوجت من محمد بن محمود القرا حنفي شيخ طائفــة الطباخين من ذوى اليسار طُلقت منه مرة واحدة ، ولما تصالحت مع زوجها أسكنهما عبده معه تأليفًا لقلبيهما وعطفًا على إبنتــه بداره بالجزيرة الجديدة المشهورة بجزيرة العبيط تبع قسم عابدين التي كانت مسكنه الثاني بعــد مسكن حلوان وتزوج محمد العقاد الكبير من الثانية منهن بعــد وفاة والدها ، وقد توفاهن الله جميعًا ، أما زوجته الخامسة وهى الاخيرة فهي سيدة تركية اسمها جولتار هانم وهى من أسرة كريمة بينها و بين عائلة المرحوم احمد باشا رأفت قرابة وكان الأخير محافظ الاسكندرية فمأمور ديوان الخديو اسماعيل . خلفت له محمداً ، وكان حين وفاة والده يبلغ من العمر أربع سنوات ربته أمه تربية حسنة وبعثته بعد إتمام دراسته بمصر الى المانيا ليتعلم الطب وبعد أخذ الشهادة دخل فى خدمة مصلحة الصحة وله شقيقة واحدة متزوجة فى طنطا ، وقد نقل الله والدتهما الى دار كرامته فى أواسط شهر مايو سنة ١٩٣٥ وقد عُين باسيلى بك عريان قيما عليهما حتى بلغا سن الرشد

محمود ولده – كان محمود أسمر اللون نحيف البدن مربوع القامة ساهم الوجه ماتعرفت به ليــلة زواج المرحوم يوسف شديد بالزقازيق وقد مات بالسكتة القلبيــة . أما فيما يختص بزمن وفاته ، فقد اختلفت الرواة فيه . فمنهم من قال انه مات ليلة زفافه ومن قائل أنه مات بعــد مرور ستة وعشرين يومًا على زواجه ، وما ذهب اليه الثانى هو الاصح الذى لا شك فيــه استناداً الى ما استقصيته من أخيه الدكتور محمد الحمولى

ومما لا يختلف فيه اثنان أن المرحوم والده عندما بلغه الخبر المشؤوم بوفاته تمالك وتماسك كأنه طود من الأطواد ، وكأنى بالحمولى الحمول للنائبات ، الجلد على الخطوب والنوازل ، وغنى مرتجلاً

الصبر محمود لمثلى على حبيبى وبعده والنار فى القلب ترعى والرب يلطف بعبده

وغنى مرتجلا أيضًا

ليــه ياعين ليــه ليه يا عين * يا حليــوة يا نور العــين * كبدى يا ولدى ياجميل ياجميل

لما رأيت البدن داب مني * ودمع عيني جرى بعدان نشف مني * كبدي ياولدي آه ياجميل ياجميل

وكثيراً ما كان محمد عثمان ينهاه عن الاستسلام الى الحزن ويقطع عليه وجهة الابتكار والتصنيف لمثل هذه الأغاني المحزنة محافظة على البقية الباقية من صحته

أمراضه وآلامه — أما عن أمراضه وآلامه فحدث عنها ولا حرج واليكم ما ذكره ابراهيم بك المويلحي بجريدة مصباح الشرق بحروفه « فلم يفارقه دآء الصداع طول حياته ، وكانت إذا اعترته نوبته ألقته على الأرض صريعاً يتخبط فى أشد الآلام لا يكاد من يراه على تلك الحال يصدق بنجاته منها فاذا أفاق لزم الفراش من عظم وقعها مدة طويلة ولم ينجع فى ذلك الدآء معالجة الأطباء وكان رحمه الله جلداً صبوراً على تحمل الآلام فى نفسه وبدنه ، فقد أصابه غير هذا الدآء من الامراض علل كثيرة بعضها فى إثر بعض حتى كان يقول انه قضى ثلثي أيام حياته فى المرض والثلث فى مراعاة خواطر الناس . وقد أصيب بخراج فى الكبد استعصى على الأطباء أمره ويئسوا فيه من نجاته حتى امتنعوا عن العملية الجراحية وقرروا أن النجاح فيها كنسبة الواحد الى المائة ، فألح عليهم المرحوم بوجوب عملها على أى حال فعملوا له عملية البزل فلم يخرج من الأنبوبة شيء فتركوها فى جوفه ببزلها وأمروه أن يستمر راقداً على ظهره لا يتقلب على أحد جنبيه طول ليله وأنذروه ان هو تحرك وانتقلت الأنبوبة من مكانها قُضى عليه ، ثم وكلوا به من يحرسه واستمر فى حالته التى تركوه عليها إلى أن غشيه النعاس فى آخر الليل ، وغفل الحارس عنه برهة فانقلب على جنبه فأصاب سن المبزل رأس الخراج من طريق الاتفاق فلم يشعر الحارس إلا وقد سال الصديد حول الفراش ، وأيقن بالخطر وأسرع الى الطبيب ، فلما حضر وفحص حالته قال: « ان يد القدرة قامت بما عجزت عنه يد الاطباء »

وما كاد يشفى من هذه العملية حتى ظهر فى الكبد خراج آخر ، فعملت له عملية ثانية بالاسكندرية . ثم أصيب بعد ذلك فى سنة ١٨٨٨م بالتهاب فى الرئة ، فكان ينفث الدم وتأكل جزء من إحدى الرئتين ومن هنا ابتدأ الدآء الذى مات به ، فعالجه الأطباء وأشاروا عليه بسكنى حلوان فسكنها ووقف سير الدآء فيه وسافر المرحوم فى سنة ١٨٩٦ الى الاستانه العلية وحظي هناك بالمثول فى الحضرة الشاهانية مراراً ، فأعجب أمير المؤمنين بمهارته فى فنه وحسن أدآئه فأسنى عطيته وبلّغه حسن رضائه » اه

ترفعه عن وظيفة مغن — وقال أيضاً ما أنقله بنصه حرفياً : « كان المرحوم الحمولى كبير النفس

عالى الهمة يحاول الارتفاع عن وظيفته وسعى في الخروج منها مقتصراً على الاشتغال بالفن لذاته لجهل الناس فى جيلهم الماضي بعلو قدر هـذا الفن وغفلتهم عن جلال منزلته بين الفنون وناهيك به أن أفلاطون وهو حكيم الحكماء جعله فى مقدمة علوم الحكمة وأول مراتب التهذيب ، وقد عمد المرحوم الى ذلك بالفعل فى أيام المغفور له اسماعيل باشا فترك مزاولة صناعته بالأجرة بين الناس وخرج من زمرة المغنين إلى زمرة التجار غير طامع فى الذهب الذى كان يسيل من حياله بممارسـة صناعته فى تلك الأوقات . فافتتح محلاً لتجارة الأقمشـة اشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين الف جنيه ، فما مضى عليها عشرون شهراً إلا وانتهت به سلامة نيته وحسن ثقته أن خرج منها صفر اليدين مديناً للشريك دائناً للناس يمنعه الخجل ويحجبه الحياء عن طلب الوفاء ، ولم يمتنع في أثناء ذلك عن الغناء بين الناس بل امتنع عن طلب الأجر عليه الى إن عادت به حاجة العيش الى مزاولة صناعته كما كان فى أول أمره . ولم يزل يتطلع الى غرضـه فى الانقطاع عنها كما فعل ودهره يحول دونه فلا يستطيع بلوغه الى آخر مدته »

فيستدل من كل ذلك أنه أرفع من أن تحوم نفسـه على استغلال مواطنيه والاتجار بالفن وان فراره من المهنة هو محمول على شرف نفسه وإبائه ، كما ان استمراره فى الغناء بلا أجر فى أثناء اشتغاله بالتجارة دليل على زهده فى المال وانصرافه عنه مما يخالف على خط مستقيم حال المطربين المجددين فى زماننا المادي فى القرن العشرين . وحال قريش فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي رضى الله عنه يقول للمسكوك من العملة « يا صفراء يا بيضاء غرى غيري »

الموسيقار العربى يلبى دعوة المنيلاوى — دعا الشيخ يوسف المنيلاوى المرحوم عبده الحمولى وحضرة مخائيل بك تادرس وآخرين لتناول الغداء بمنزله بكوبرى القبة بعـد أن اشترط الثانى على الأول ألا يأكل عنـده إلا أكلة مصرية بحت كالملوخية « المطراوى » المطبوخة بمرق الأرانب « البلدى » الشمرت فجهز ذلك الشيخ يوسف على الطراز المراد وأخذ المدعوون يغدون إلى داره وحضر عبده بملابسه العربية المكونة من جلباب جوخ وعباءة وكوفية « محلاوى » وبيـده عصا أبنوس شغل اسيوط فلما استقر به المقام وتفقد اخوانه المدعوين لم يجد بينهم صديقه الحميم مخائيل بك تادرس وما لبث ان أمسك بالعود ليغنى حتى قدم الأخير مهرولاً وقال له أنه حضر قبل انصراف الديوان بساعتين إكراماً لخاطره بعد أن استأذن من احمد فريد باشا رئيس الدائرة السنية آنئذ بالانصراف بحجة أنَّ أمراً مُهمًا طرأ عليه وأخذ يغنى ويبدع حتى الساعة الخامسة بعد الظهر واستغنى

الحضور عن الغداء بما غذى نفوسهم من غناء. وليس هنا محل الغرابة ولكن المستغرب ان الشيخ يوسف على ما هو معدود من أكابر المنشدين وأشهر المطربين فانه تأثر من حسن إتقانه حتى صاح قائلاً « سبحان الوهاب سبحان الوهاب » والدموع تتساقط على خديه على حد ما حدث للاستاذ الاسوانى العواد الفذ فأنه بعد ما سمع عبده يغنى دور (يا أهل العجب شوف حبك كوانى تعالى شوف) دهش وتعجب من حسن اتقانه وغريب تصرفه الفني ومال نحو الاستاذ احمد نسيم الشاعر الموظف بدار الكتب وقال له ليس العجب أن يعجب الحاضرون بغنائه الفريد المدهش وهم لا يعرفون للفن قبلة ولا دبرة بل ألا عجب هو أن أكون اكثر دهشة منهم على ما أنا عليه من تضلع من الموسيقى وأصبح أحير من ضب لا أتمكن من الاهتداء لمعرفة كيف علا صوته وانخفض فى لفظة « العجب » وتجمع وتفرق وتداخل وتخارج وتأصل وتفرع وأوغل وتخلص وتوعر وتسهل وأغار وتسلسل وأردف قائلاً أنه لو خير بين مدينة لندن ولفظة العجب لفضل الأخيرة على الأولى وما عليها وكانت لهُ بحة حلق طبيعية وعربية واليكم ما قاله كشاجم فى بحة حلق المغني

أشتهي فى الغناء بحة حلق ناعم الصوت متعب مكدود
كأنين المحب أضعفهُ الشو قُ فضاهى به أنين العود
لا أحب الأوتار تعلو كما لا أشتهي الضربَ لازماً للعود
وأحبُّ المجنبات لكي للمبادي موصولةً بالنشيد
كصبوب الصبا توسطُ حالاً بين حالين شدة وركود

المواويل (المواليا) — أذكر أوائلها وهي كالآتى : « يا مفرد الغيد يا سيد الملاح يا سيد » و « ما حد زيي على خله إنقضى حاله » و « محبكم داب وانتم لم دريتوا به » و حبك شغلنى عن الخلان والهاني ولما للموال الآتى من منافثة أذكره برأسه

أهل السماح الملاح دول فين أراضيهم أشكي لهم ناس لم يعرف أراضيهم
وكم حفظت الوداد ونسيت مواضيهم إنْ غبت عنهم بنار البعد انكوى
وإن مسنى قرب تجرحنى مواضيهم

فلما كرر عبده عبارة « دول فين أراضيهم أجابه محمد بك البابلى الفكه وقال « فى البنك العقارى » إسألنى أنا اقول لك ولا تتعبش « ملاحيبى كؤوسي قلت وانا مالي » و « موارد الصبر أحالي وأسمى لي » و « مين فى الفؤاد يا حبيبي غير جمالك مين » و « وحق من أطلعك يا فجر

متحنى » و « يا ناس أنا منيتي حلو اللمى ولطيف » و « بالبخت كنت افتكر بالانس ودا جالي » و « يا اللي القمر طلعتك يابو قوام عادل » و « يا اللي عليك الليالي نبكي ونناهد » و « وحيد الحسن يا اللى كل الجمال منك » و « من حق سود العيون يابو خدود وردي » و « مرّ الغزال الفريد من بعد ما سلّم » و « قم فى دجى الليل ترى بدر الجمال طالع » و « عوازلي فيك أطالوا اللوم وعيوني » و « يا حادي العيس خليني أسير وحدي » و « يا بدر تم الجميـل واطلع لنا بدري » و « يا بدر داري عيونك وخلي الخد باين لي » و « يا بدر إيه العمـل حيّرت أفكارى » و « الليل أهو طال وعرف الجرح ميعادُه » و « بدال ملامك لأهل العشق عللهم » و « إمتى الحبايب يجو ونشوف لواحظهم » و « فيك ناس ياليل يشكوا لك مواجعهم » و « ليـه حاجب الظرف يمنعنى وانا مدعي » و « الفجر أهو لاح قوموا يا تجار النوم » و « كل البدورا بتورد وخلّي لم ورد بدرى »

القصـــائد التى غناهـــا

قصيدة لأبى فراس

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر	أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم[1] أنا مشتـاق وعندي لوعة	ولـكن مثلي لا يذاع له سرّ
اذا الليل أضواني بسطت يد الهوى	وأذللت دمعاً من خلائقه الـكبر
تكاد تضيء النار بين جوانحي	إذا هي أذكتها الصبابة والفـكر
معللتي بالوعــد والموت دونه	إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر
تسائلني من أنت وهي عليمة	وهل بفتىً مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء الهوى لهـا	قتيلك ، قالت ، أيهم فهم كثر
وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا	فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

قصيدة لآخر

أسرت فؤاد المستهـام عزيزة	ملـكت قلوب العاشـقين بأسرها
جلست على عرش الجمال فأشرقت	شمس الجمال تضيء ساحة قصرها
من قال أنـــي أشكو الغرام واننى	لأقل قدراً أن أموت بحبها

(١) صابه « بلى » ابدلها « بنعم »

أنا عبدها[1] مهما تحكم أمرها   في كل حال عاجز عن شكرها
في الشرق شمس النهار نظيرها   في الغرب بدر ليس يغرب نورها

قصيدة لآخر

فيا مهجتي ذوبي جوى وصبابة   ويا لوعتي كوني كذا كي مذيبتي
ويا نار أحشائي أقيمي فى الجوى   حنايا ضلوعي فهي غير قويمةِ

قصيدة ليزيد ابن معاوية

نالت على يدها ما لم تنله يدي   نقشًا على معصم أوهت به جلدي
كأنه طرف نمل في أناملها   وروضة رصعته السحب بالبردِ
خافت على يدها من نبل مقلتها   فألبست زندها درعًا من الزردِ
أنسيةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت   من بعد رؤيتها يومًا على أحدِ
سألتها الوصل قالت لا تغرَّ بنا   من رام منا وصالاً مات بالكمدِ
فكم قتيل لنا فى الحب مات جوى   من الغرام فلم يُبدِ ولم يُعدِ
قد خلفتنى طريحًا وهي قائلةٌ   تأملوا كيف فعل الظبي بالأسدِ
واسترجعت سألت عنى فقيل لها   ما فيه من رمق دقت يداً بيدِ
واستمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت   وردًا وعضت على العناب بالبردِ
هم يحسدوني على موتي فوا أسفي   حتى على الموت لا أخلو من الحسد

قصيدة لآخر

حجبوها عن الرياح لأنى   قلت يا ريح بلغيها السلاما
فتنفستُ ثم قلت لطيفي   ويك إن زرت جفنها إلماما
حيِّها بالسلام سرًا وإلا   منعوها لشقوتي أن تناما

• قصيدة لآخر

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل   ففي حبه يحلو التهتك والذلُّ
تذلل له تحظ برؤيا جماله   إذا رضي المحبوب صح لك الوصلُ

---

(١) كان يقول تارة « انا عبدها .. » وطورا « انا عبدك ... »

ما اخترته من الحان المرحوم عبده الحمولى

١ – مذهب عراق

فؤادي أسألك قول لي تعلمت الهوى دا منين
وتاه فكري معاه قال لي أنا حاضر وانت فين
(دور) غرايب والنبى سيرك وحق اللحظ والخدين
أنا قلبى ما فيه غيرك وليه قلبك يساع اثنين

٢ – مذهب حجاز كار

مليك الحسن فى دولة جماله ملك عقلى وأفكاري وروحي
ومن تيهه أسر قلبى جماله وزاد في محبته وجدي ونوحي
(دور) أنا عاشق ومغرم يا حبيبي ومن مثلي عشق يا حلو مثالك
أعيش مسعد ولو يزداد لهيبي وأتهنى بأنعامك ووصالك

٣ – مذهب حجاز كار أيضاً

الله يصون دولة حسنك على الدوام من الزوال
ويصون فؤادي من نبالك ماضى الحسام من غير قتال
(دور) أشكي لمين غيرك حبك أنا العليل وانت الطبيب
اسمح وداويني بقربك واصنع جميل إياك أطيب

٤ – مذهب حجاز كار

كنت فين والحب فين لم يفارق لحظ عين

٥ – مذهب بياتى

أنا السبب في اللي جرى ما حد غيري اللي انظلم

٦ – مذهب نهوند يا منية الأرواح جد لي بوصالك يوم
العقل مني راح وهجر عيونى النوم
والمدامع مطر يا شقيق القمر
والقلب انفطر وازداد عذولي لوم

(دور) دا الهجر يا روحي زاد الفؤاد أشجان
ارحم بقا نوحي واسمح يا غصن البان
انعطف لي وميل والنبي يا جميل . . .
واشفي صب عليل في محبتك حيران

٧ مذهب نهوند

جاني الجميل والكاس على يده عمل أبيه من ورد خده
أسر فؤادي من حسن قده حبيت ولكن وعد علي
(دور أول) ليه الدلال يا حلو زايد دا هجر منك والا وحايد
جعلت حبك من الفرائض حبيت ولكن وعد علي
(دور ثان) محبوب قلبي يكفي دلال البعد طول ولا انت مالك
واصل يا حبي واترك دلالك حبيت ولكن وعد علي

٨ – مذهب حجازى دوكة

انت فريد في الحسن – والا جمالك ياحلو واصل وكيد الاعادي – يكفى دلالك

(دور أول)

من علمك على الدلال - والا دا طبعك كوى فؤادي الجبين والخال - احكم بشرعك

(دور ثان)

اسمح وجود بالوصال - يانور عينيه كوى فؤادى الخديد والخال - ارحم شوية

٩ – مذهب رصد

فؤادي جدّ به حالات لمين يا حلو أشكيها
وتحكم لي أنا ساعات أشاهد موقفي فيها
(دور) حياتي بعد بعدك نوح ووعدي ضيعك مني
وهو انت الفدا للروح وليه ترضى البعاد عني

١٠ – مذهب بياتى قديم وله تلحين آخر جركة

في مجلس التفريح مليت المدام - للي أحبه فقلت له عبدك ضناه الغرام - اسمح بقربه

(دور أول) سقمي ظهر لما هجر باهي الجمال يا رب يسمح
الشعر جعدي والخد وردي والمسك خال واللحظ يجرح
(دور ثاني) يا ناعس الأجفان أطلت الدلال والوصل ماله
إن جدت للمشتاق بطيب الوصال يفديك بماله
(دور ثالث) جسمي انتحل لما رحل حلو الدلال والخصر خده
إمتى يجيني واشرب مدام من صحن خده

١١ — مذهب جهاركاه

الحب صبحني عدم والجسم مني زاد سقام – شوف يا جميل
ارحم محبك بالوصال واترك بقى هذا الدلال – واصنع جميل

(دور)

يا منيتي إيه السبب في دي الخصام اللي جرى - قولي عليه
هو عذولى جالك ولام علشان كده عامل خصام وأنا ذنبي إيه

١٢ وكان في ضمن الأدور والقطع التي اشتهر بغنائها ما يأتي بالايجاز

يا منية الأرواح ، روح يا عذول يافاضي ، أنا وحبيبي راضي ، عذول وعامل قاضي الخ
ويا سيدي خدك وردي الخ . ويوجد مذهب قديم (رصد) غناه كثيراً وهو كالآتى

١٣ - توبي يا حلوه توبي انت قصدي ومطلوبي
شوفوا حالي يا اخونا دا العشق من الله وعدي ومكتوبي
إزاي أتوب يا اسمر ريقك أحلى من السكر
أنا أتوب وانت تسكر دا العشق من الله وعدى ومكتوبي

١٤ — مذهب عشاق (لحنه عقب موت ألمظ)

شرب الصبر من بعد التصافى ✿ ومرّ الحال ما عرفتش أصافى (سبق ذكره)

١٥ — مذهب سيكاه

متع حياتك بالاحباب – سعدك قمر (تقدم بيانه)

مذهب حسينى دوكاه

جندى يا نفس حظك منيتى الهجر تعطف

مذهب شرحه

حظ الحياة يبقى لروحي لما الهوى يجي سوا
قلبي طال نوحك ونوحي واللي جرح عنده الدوا
(دور) سحر الجفون خد منى قلبي وأنا اعمل ايه فى دى الهوى
ناس عجيب السقم زاد بي واللي جرح عنده الدوا

مذهب كردان

شربت الراح فى روض الأنس صافى على زهر الغصون وردى وصافى
وهنانى الزمان والوقت صافى سمح بالوصال محبوبي إلىَّ الخ
شرحه المطر يبكي لحالي ٭ والقمر يطلع يكيدني ٭ وعذولى ما رثى لي الخ

مذهب اوج

يا اللي خايف م الحب حسك تلامسني أحسن أنا هوّه
تصبح جريح القلب وتحسب صدقنى بالغصب والقوّه

مذهب حجاز

فؤادى من لحاظك يا حبيبى وليه جرحته والوصال هو مرادى
وسقمي زاد ولم طفيت لهيبي فرفقاً يا رشا واترك عنادى الخ

مذهب بياتى

قده المياس زود وجدى فى شرب الكاس قضيت عمرى
ده حبه كاس وسبب وعدى طول ليلي سهران ارحم قلبى

مذهب بياتى أيضاً

بسحر العين تركت القلب هايم ولا فى الفكر غيرك كل ليله
أشوف طيفك وانا صاحي ونايم كأني فى هواك مجنون ليلى الخ

مذهب شورى

حبيت جميل طبعه الدلال بالبدع والتيه أفناني
قصدى يتوب عن الخصام وأقول حبيبى ياناس هناني

(دور) لو كان وفاني بوعده يوم لو فى المنام زارني طيفه
ما كان كفاني لذيذ النوم لكن ده كله على كيفه

مذهب بياتى دارج الحلو لما انعطف أخجل جميع الغصون
الخد لما انقطف ورده بغير العيون الخ

مذهب نوأثر
كل يوم أشكي من جراح قلبي وكل ما اشكي من نار الغرام
العذول يفرح من بعاد حبي والله أنا ما اسلاه لو زاد الملام

مذهب نهاوند أهين النفس واتذلل اليكم واقول للقلب ذق نار الغرام
يقضينى عذابي حرام عليكم يدوم لى حسنكم طول الدوام

مذهب نهاوند كادني الهوى وصبحت عليل مثل النسيم فى روض الحسن
حبي قمر طالع على غصن كله أدب وطرب وجميل
مالوش مثيل

فمن قائل انه تلحين محمد عثمان ومن قائل انه تلحين عبده كما جاء فى كتاب الموسيقى الشرقي لمحمد كامل الخلعي

مذهب حجاز كار غرامك علمنى النوح يا حبيب القلب شوف
مع طيفك أرسلت الروح أترجاك تعمل معروف

ومما رواه لي حضرة الاستاذ بطرس باسيلي ابن المرحوم باسيلي بك عريان صديقه ورئيس قلم النشر والترجمة بوزارة الزراعة أجتزىء بما يأتي

لما شعر عبده بدنو أجله غادر حلوان ولما وصل إلى مصر أقلته عربة إلى منازل أصدقائه الذين زارهم واحداً واحداً واستودعهم الله إلى اللقاء وأعطى الحوذى جنيهاً واحداً أجرته و بعد قليل من الزمن انطلقت فى فجر الأحد الواقع ١٢ مايو سنة ١٩٠١ ألسنة البرق بما أصم المسامع حاملاً نعيه إلى ذو يه ومريديه وأصدقائه فى انحاء القطر المصرى خصوصاً والشرق عموماً فقضى مأسوفاً عليه مزوداً بصالح الاعمال تاركاً من جميل الذكر ما يستدرّ عليه المراحم مدى الدهور

قصيدة المرحوم احمد شوقى بك امير الشعراء

التي جادت بها قريحته الفياضة وتعد رمزاً للوفاء وصدق العهد للمرحوم عبده الحمولي قال:

ساجع الشرق طار عن أوكاره ... وتولى فن على آثاره
غاله نافذ الجناحين ماض ... لا تفر النسور من أظفاره
يطرق الفرخ فى الغصون ويغشى ... (لبداً) فى الطويل من أعماره
سلب الفن ألحن الطير فيه ... والمتين المكين من أوتاره
كان مزماره فأصبح داو ... دُ كئيباً يبكي على مزماره
(عبده) بيد أن كل مغن ... عبدُهُ فى افتنانه وابتكاره
معبد الدولتين فى مصر اسحا ... ق السعيدين رب مصر وجاره
فى بساط الرشيد يوماً ويوماً ... فى حمى جعفر وضافى ستاره
صفو مليكهما به فى ازدياد ... ومن الصفو أن يلوذ بداره
يخرج المالكين من حشمة الملك وينسي الوقور ذكر وقاره
ربَّ ليل أغار فيه القمارى ... وأثار الحسان من أقماره
بصبا يذكر الرياض صباه ... وحجاز أرق من أسحاره
وغناء يدار لحناً فلحناً ... كحديث النديم أو كعقاره
وأنين لو أنه من مشوق ... عرفَ السامعون موضع ناره
يتمنى أخو الهوى منه آهاً ... حين يلحى تكون من أعذاره
زفرات كأنها بث قيس ... فى معاني الهوى وفى أخباره
لا يجاريه فى تفننه العود ... د ولا يشتكي إذا لم يجاره
يسمعُ الليلَ منه فى الفجر يا ليـــــل فيصغي مستمهلاً فى فراره
فجع الناس يوم مات الحمولي ... بدواء الهموم في عطاره
بأبى الفن وابنه وأخيه ... والقوي المكين فى أسراره
والأبيّ العفيف فى حالتيه ... والجواد الكريم في إيثاره
يحبس اللحن عن غنيّ مدل ... ويذيق الفقير من مختاره

يا مغيثًا بصوته في الرزايا	ومعينًا بماله في المكاره
ومجل الفقير بين ذويه	ومعز اليتيم بين صغاره
وعماد الصديق ان مال دهر	وشفاء المحزون من أكداره
لست بالراحل القتيل فتنسى	واحد الفن أمة في دياره
غاية الدهر إن أتى أو تولى	ما لقيت الغداة من ادباره
نزل الجد فى الثرى وتساوى	ما مضى من قيامه وعثاره
وانقضى الدآء باليقين من الحا	لين فالموت منتهى إقصاره
لهف قومى على مخايل عز	زال عنا بروضه وهزاره
وعلى ذاهب من العيش وليـ	ـت فولي الأخير من أوطاره
وزمان أنت الرضا من بقايا	ه وأنت العزآء من آثاره
كان للناس ليله حين تشدو	لحق البوم ليله بنهاره

مرثية جريدة المقطم
المرحوم عبده الحمولي

جاء بالمقطم عدد ٣٦٨٣ بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٩٠١ ما يأتي

فَقَدَت مغاني الأنس ضحوة أمس منعش الصدر ومطرب النفس المرحوم عبده افندى الحمولي فخرست الدفوف وقطعت أوصال الأعواد حزنًا وأسيً على أشهر مَن اشتهر فى مصر بالغنآء والتلحين قُضي رحمَه الله مناهزاً الستين من عمره بعد ما بسمَ لهُ الدهر فنال الحظوة من الملوك والامرآء والعظمآء وكان سمحًا جواداً أنيسًا محبوبًا من صحبه ومعاشريه

أُصيب بعلة منذ عهد قريب فقصد الصعيد مستشفيًا حتى إذا عاد اليه أمل الشفآء أشار عليه الأطبآء بالسكن فى حلوان فلم يدفع ذلك عنه مقدوراً. وكان من رجال الخير وخير الرجال همةً فى المساعدة والاسعاف فقد أحيا الليالى التي لا تحصى وهو يطرب المدعوّين فى الأندية والحفلات التى خُصَّ دخلها بانشآء المدارس أو باعانة الفقرآء والمحتاجين

وقد جِيءَ بجثته بعد الظهر من حلوان الى مصر ثم شيَّعها خلق كثير جداً من الأعيان والوجهآء

والأدبآء إلى مدفنه فى باب الوزير وأقيم مأتمهُ البارحة فى منزله بالعباسية وسيقام فيه الليلة والليلة الآتية أيضًا ويُقتصر فيه على ثلاث ليالٍ. سقى الله مثواه وابل الرحمات وأجمل عزآء ذويه والمصريين عمومًا فيه

مرثية جريدة الاهرام

جاء فى الاهرام عدد ٧٠٣٦ للسنة السادسة والعشرين بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٩٠١ عن وفاة المرحوم عبده الحمولي ما يأتي -

فاضت روح المطرب المبدع والموسيقي الشهير، فاضت روح عبده افندى الحمولي على أثر دآء عيآء فحق لمصر أن تحزن لوفاته بقدر ما كانت تُطرب بنغماته بل حق للموسيقى العربية أن تبكيه وتستعظم الخطب فيه فقد كان فخارها ومعلي منارها فى هذا القطر بل فى كل قطر نَطق أهلهُ بالضاد.

وكان رحمه الله كريم الشيم عزيز النفس رقيق الجانب ونال الحظوة لدى الامرآء والكبرآء وما انتشر نعيُه حتى شمل الأسف كل عارفيه وكثير ماهم وفى الساعة الثالثة بعد الظهر أمس نقلت جثته من حلوان إلى القاهرة وشُيِّعت بمشهد لائق وبعد أن صُلي عليه دُفن فى مدفنه بباب الوزير.

وما زاد الأسف عليه وكان من أكبر الدلائل على كرمه وسخائه أنهُ ترك صبيةً صغاراً ليس لهم من عضد ولا سند سوى ذكر أبيهم فعسى يبقى لصدى صوته بقية تؤثر فى القلوب رحمه الله أوسع الرحمات

راى فى الموسيقى الشرقية والغنآء العربى

للعلامة الجليل صاحب العزة خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم الاغر

بمناسبة الاحتفال بآحياء ذكرى عبده الحمولى

ذكرت جريدة المقطم الاغر بعدد ١٤١٨٢ بتاريخ ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٥ ما يأتي : -

نشرنا يوم الجمعة الماضي وصفًا لحفلة أحيآء ذكرى المغفور له خالد الذكر عبده الحمولي وقد أقيمت على مسرح حديقة الازبكية يوم الثلاثاء ١٦ يوليو بدعوة من حضرة الاستاذ قسطندى رزق وننشر فيا يلي الكلمة التى ألقاها الاستاذ مصطفى الحكيم وقد كتبها حضرة رئيس تحرير

المقطم في هذه الحفلة لما فيها من التنبيه على حالة في الغنآء العربي الجديد يراها حضرة العلامة المتواضع صاحب العزة خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم جديرة بعناية أرباب الفن الموسيقى حرصاً على أصول الغناء العربي

* * *

عزيزي الاستاذ قسطندي رزق

وطنت النفس على أن اشهد احتفالك الكبير بذكرى أمير الغنآء العربي في عصر نهضة مصر الحديثة وأن اشاركك وأنصار هذا الغنآء المجتمعين الليلة لذكرى الفقيد العظيم غير أن طارئاً لم أكن أتوقعه طرأ عليّ وحال دون تحقيق هذه الأمنية

ولا أحاول هنا التنويه بما شهدت من عظيم غيرتك وحميتك في السعي لاحياء ذكرى عبده واطلاع أبنآء هذا العصر على ما فاتهم مما تمتع به أبنآء العصر الماضي فجزاؤك على هذا ما أنت شاعر به الساعة من اغتباط وارتياح وهو خير ما يجزى به العاملون

ولكن اسمح لي أن أضيف إلى جهدك الذى بذلت بالدعوة باللسان والقلم تنبيه أنصار الغنآء العربي والموسيقى الشرقية الى ما نحن مصابون به الآن وما نتوقعه إذا استمرت هذه الحال

فقد ابتلينا بدآء (التجديد) هذا في كثير من أمورنا - في اللغة والعادات ثم امتد إلى الغناء فأصيب الغناء العربي بهذا « الالحاد الفنى » المشهود الآن والذى يؤذى اسماع وقلوب عارفي هذا الفن والمعجبين به ولا أنكر اننا اقتبسنا في الأصل جانباً يذكر من غنائنا من الفرس ولا نزال نستعمل في موسيقانا الالفاظ الفارسية للأنغام والسلم الموسيقية ولكن كر الأيام وانقضاء الأعوام صقلا هذا كله فألفناه وأحببناه

ولا بد لغنائنا وموسيقانا من أن يتأثر باتصالنا بالغرب وموسيقاه المتقنة المهذبة الأصول والفروع ولا ريب في أننا من الناحية الفنية مقصرون عن الغرب تقصيراً كبيراً ولكن هذا لا يعني وجوب تطليق فننا أو مسخه فلا يبقى شرقياً ولا يصير غربياً

فاذا قيل أن هذا تحول أو « تطور » قلت أنه تحول بغير ضابط وافساد للذوق

لست من خصوم التجديد غير أني وأنا من عارفي أصول الموسيقى الشرقية والغربية ومن الذين درسوها والفوا العزف على بعض آلاتها أشعر باننا بهذا الالحاد الفنى المسمى خطأ تجديداً خاسرون ومن سوء الحظ أن يستعان على هذه الضلالة بذوى الأصوات الرخيمة المحبوبة من الجمهور من مغنين

ومغنيات فان جمال أصواتهم يستهوى الأفئدة و يطرب السامع فلا يفطن الناس إلى الالحاد الموسيقى والخروج على أصول غنائنا الذى هو من مميزاتنا

أرى من الضرورى أن اذكر حكاية الغراب الذى أراد ان يقلد مشى الحجل أو يكفى ماتقدم

فعسى هذا الاحتفال بأحياء ذكرى أشهر مغنى مصر فى عصر نهضتنا الحديثة أن ينبه المشتغلين بالموسيقى الشرقية والغناء العربى إلى ما نحن مستهدفون له من فعل هذه العاصفة التى أخذت تهب علينا والتى يخشى من أن تكتسح ما بقى لنا من هذا الفن البديع فننبذ الحرير الطبيعى مأخوذين ببهاء الحرير الصناعي وهو دون ذلك

والله يهدينا جميعاً إلى أقوم السبل وأصلح الطرق و يتولى ارشادنا وجزاء العاملين الحريصين على ارث الشرق والشرقيين

الموسيقى العربية وعبده الحمولى

لشاعر الأقطار العربية الأستاذ خليل مطران

(١)

مات عبده فمات فن وزال آخر شعاع من عصر توارت شمسه فى ظلمة الأبد فقد كان اسماعيل شمساً فى سماء مصر . وكان كل ذى شأن من معاصريه ككوكب يستمد منه نوره . فلما أفلت لحقت بها تلك الأنوار يتلو بعضها بعضاً إلى أن تم الزوال بوفاة صدّاح تلك العظمة الشماء وغرّيد ذلك الملك العظيم

وكثيراً ما كان عبده يبكي لحناً من ألحان ذلك العهد فيمثله لنا من خلال مدامعه الجارية ونغماته الشجية كأنه زينة منارة بألوف المصابيح حافلة بجماهير الفرحين الطروبين . وكأن مصر دار ذلك العرس تضحك بالأنوار لمستقبلها العابس . وكأن الامير أمير الزمان يومه وغده . وكأن الوفود من عرب ومن عجم أعوان دولة تشاد . وانما كانوا هَدَمَة أمل رفيع العماد . وكان « عبده » من على أريكته بشير السعادة الخالدة فى ذلك الاستقلال الزائل . فاذا فرغ من إنشاد صوته ورجعنا إلى أنفسنا نظرنا حولنا فرأينا دولة اليوم ورجال هذا الزمن . ولم يثبت لدينا من حقيقة ذلك الحلم الرائع إلا ذلك المغنى المنتحب على حالٍ حالت . ونعمةٍ زالت . ودولة دالت . ولقد كان فى مصر قبل

انقضاء هذه الأشهر الأخيرة مغنيان هما « عبده » « وعثمان » فاليوم نحن ولا مهنىء فى الفرح . ولا معزى فى الترح . إلا ما كان من قبيل رجع الصدى الذى يتردد حيناً بعد هتاف الهاتف

كان عبده مبتكراً يخلق اللحن خلقاً من حاضر ما يوحى به اليه فيحير به المهرة و يطرب السامعين ما يشاء التطريب بالنغمة والاعجاب بقدرة مبتدعها . وربما كسر القيد ونقض القاعدة وندّ عن المألوف فطار وحلق . وقد بكم العود ، وعيّ القانون ، وأنصت الناى . مطلقاً صوته يمرح فى سماء التطريب . فمن وثبة النسر إلى انحدار السيل . إلى خطف البرق . إلى تغريد القمرى . إلى نوح الحمامة. إلى أنين الجدول . كل هذا والصوت عال منخفض . جهورى خافت . رنان مرتجف . مشبع ضئيل . والنغمات تجتمع أصولاً وتتفرق فروعاً . وتتثنى وتتفرد وتتدانى وتتباعد وتتواصل وتتفاصل مفضية بعضها إلى بعض متسلسلة على مقتضى سلامة الذوق والمهارة الفنية منتهية إلى القرار



(شاعر القطرين الاستاذ خليل مطران)

وكان « عثمان » مؤلفاً بارعاً فى ترتيب الالحان . بصيراً بأخذ النغمات من مواضعها وجمعها على نسق مستحب . كلفاً بصناعته جادّاً فى اتقانها إرادة أن يستعيض عن طلاوة الصوت بحسن الاسلوب ولطف السياق . ولهذا كان لا يغنى منفرداً . ولا يطلق صوته إلا على أجنحة الآلات . فاذا لحّن أغنية وأسمعها الناس لأول مرة خرجت متقنة صحيحة الوضع رائعة للسمع . ولكن يبدو عليها أثر إعنات الفكر ويُشتم منها ريح الشمع المذاب فى السهر على تخريج أجزائها وتوجيه ضروبها . والملاءمة بين رناتها ومعانيها . على أن هذا لا ينفى أن « عثمان » كان ضريب « عبده » وأنه أثبت بنتيجة عمله أن لحسن التأليف مكاناً بجانب الابتكار وأن للاجتهاد منزلة قد تعادل منزلة الاختراع . بل أن المجتهد قد يكون ذا فضل على المخترع بما يهيئه له من مواد الابتداع . ومن الحق أن يقال أن « عثمان » كان فى أخريات هذه السنين واضع معظم الألحان فيأخذها « عبده » عنه ويكسوها من الحلل والحلىّ ما تشاء بديهته الخاصة به فبينا هي سوقة حسان إذا هي ملكات بتيجان . و بينا هي أشخاص ترمقها عيون المعجبين ، إذا هي أرواح تتنسمها قلوب المحبين

وعلى هذا كان « عثمان » يجدد للناس روح « عبده » و « عبده » يسمع الناس علم عثمان فهما العاملان المتكاملان أحدهما بالآخر على ما بينهما من تحاسد وتباغض وتباعد

هذه صفة « عبده » مغنياً وتلك منزلته التي لم يدانه فيها من أرباب فن الموسيقى إلا « عثمان »

أما أخلاقه فكانت أخلاق كرام الناس وبها شرّف قدر مهنته التى كانت إلى عهده تعد من المهن الوضيعة . فقد كان أنيس المحضر . كارهاً للغيبة راغباً فى مجالس الظرفاء المتأدبين ، محدثاً ذكياً لا تفوته شاردة ولا واردة من طرف الكلام جوّاداً جود الامراء متلطفاً وديعاً كأنه أبداً فى حضرتهم وفياً لأصدقائه لا يضن عليهم بما فيه نفع لهم ورضى . مجاملاً لذوى فنه محسناً اليهم لا يبغض منهم إلا من ركب الدنايا وأخلّ بما يسميه شرف الحرفة

ولو كتب الله له فسحة فى الأجل لعاش عيشة مقيدة بنظام . ولكنه كان مطلق هوى النفس كما هو شأن النوابغ ولا شك فى أن نعم الله الكثيرة قد حسبت عليه رحمه الله رحمةً واسعة

(٢)

أما وقد أشرنا بما يقتضيه المقام من الايجاز الى منزلتى « عبده » و « عثمان » فيجمل بنا تعميماً لفائدة هذا المقال أن نتكلم على فن الغناء العربي كما هو الآن ونبحث فيما إذا كان ينبغي أن يبقى كما استخلفنا عليه هذان الفقيدان أو أن يعدّل ويكيّف بحيث يصبح أتم تأثيراً فى النفوس وأصلح لأن يشربها ما هي فى حاجة اليه من الخلال الشريفة والفضائل

فالموسيقى فيما اشتهر من تعريفها انما هي تأليف أصوات تحدث طرباً فى قلوب السامعين . والطرب قد يكون سروراً وقد يكون شجواً ، ومعناه فى الحقيقة الانفعال الذى تولده الأنغام فى النفس أيّاً كان .

ومن أوصاف الموسيقى أنها فى بناء الأصوات كفن العمارة فى تشييد الابنية وتأليف أجزائها والمناسبة بين رسومها ونقوشها وتقاطيعها وتحلياتها يسميه الافرنج بموسيقى البناء على أن أساسها التناسب كما هو أساس كل فن نفيس وهذا التناسب فى الموسيقى يعرف اصطلاحاً بالايقاع ، والايقاع قديم قدم الموسيقى غير أن المغنين من العرب حصروه فى نغمة نغمة مما يغنون . فكان فى حقيقته مفضياً الى الملل بخلاف الافرنج فانهم استخدموه وسيلة للتنقل من نغمة الى نغمة ولاعطاء كل نغمة جميع الرنات التى يتم بها طربها الناجم عنها بذاتها أو باجتماعها مع سائر الانغام التى يتألف منها الصوت

ولا غرو أن يكون مغنونا على مثل هذا الجهل الذي أبقى الموسيقى العربية على حالها الفطرية

فان شعراءنا — إلا بعضهم — وكتابنا - عدا القليل منهم - لا يزالون الى الآن أرقاء الجناس ، وعبيد مراعاة النظير ، وخدمة السجع ، وذباحي المعاني الجليلة ، وناسخي الحقائق ، وماسخي الصور الجميلة فى الطبيعة ، وجاحدي وجدانات النفس وانفعالات الحس ليقتدوا بأمة هم تركوا عاداتها وأخلاقها ، وهجروا خيامها وصحاريها وأنكروا ملابسها ومآكلها ومشربها ، ولم يحتفظوا بشيء من خلالها ومزاياها . ولم يستبقوا منها إلا النسبة اليها . فلا هم يحسنون تقليد أدبائها ولا هم ينتزعون من لغتها لهم لغة خاصة فصيحة ذات أساليب ومصطلحات وألفاظ تمكنهم من التعبير عمّا يخالج ضمائرهم ويخامر نفوسهم بما ينطبق على الواقع ويكون صدًى حقيقيًا لما يشعرون به

كتب إعرابي فى صدر منظومة له « قفا نبك » فلم يستهل واحد منهم منظومة بعد ذلك إلا وهو واقف باكٍ . ونظم آخر أبياتًا كثيرة بروي واحد سميت قصيدة فتبعه فى ذلك فى كل ناطق بالضاد من صحراء الجاهلية الأولى العريقة فى الهمجية الى ساحة المعرض العام بباريس فى أجمع زمان لأسباب الحضارة وكل كتب القصيدة على ذلك النمط . وذكر أحد ظرفائهم ان الأرجوزة حمار الشعر فلم يروا عقب ذلك ارجوزة إلا ولها أربع قوائم تمشى عليها وهكذا هم يتقيدون بسلاسل التقليد . وكتاب اللغة الأجنبية يذهبون كل مذهب فى اختراع التراكيب وابتداع الأساليب التى يظهر معها كل خفي ويتجسم كل روحانى ، وتتمثل كل صورة ، ويصور كل شعور ، فهم أبناء عصرهم ونحن أبناء العصور الخالية . وهم يحيون بما ينظرونه ويحسونه.ونحن نحيا بما ننقله حتى فى التصور والحس.

ومعلوم أن الموسيقى شقيقة للأدب مطبوعة على غراره فكيف كان الأدب تكون الموسيقى . وهى الآن منحطة فى الشرق لأنه منحط وانحطاطهما على قدر . فكلاهما يجب نقده وتنقيحه وإخراجه الى ما تقضي به الحاجة الماسة . وإلا فأي مصلح للامة يكون أقوى فى البيان ؟ وأي بيان يكون أشد وقعًا فى النفس من الذي توصله اليها النغمة وتمزجه بها مزجًا ؟

على أن الاصلاح الذي نبتغيه ميسور إذ يكفينا أن نبدأ بتطبيق الموسيقى العربية على الموسيقى التركية تطبيقًا تدريجيًا الى أن يألفها الذوق، وتوضع لها قواعد ، وترسم علامات ، ويغنى الدور الواحد بنغمة واحدة وألفاظ واحدة في المنتديات وفي البيوت وفي الأسواق . فاذا وصلنا إلى هذه الدرجة انسقنا بحكم السير الطبيعي إلى ما هو أعلى فأعلى. وهكذا فعل الأتراك . اذ أخذوا عن الأروام الذين غناؤهم أقرب الى الغناء الشرقي . فأصبحوا الآن ينشدون في ملاعبهم أجل الروايات الموسيقية الاجنبية بألفاظ تركية ، وقد لا يمضي زمن حتى ينشيء بعضهم رواية موسيقية متقنة فيبلغون بها الغاية

وكان المرحوم « عبده » قد شرع فى نقل شيء عن الموسيقى التركية . ومنها أخذ الآهات الطويلة التي يصاعده فيها جمهور المغنين وهى أحسن مافي غنائنا الآن . غير أنه لم يتسن له معين على إحداث الرموز التى هى أساس علم الموسيقى والتى بغيرها لا تكون الأنغام الا فوضى . وأذكر انى شكوت اليه يوماً هذا القصور وقلت له . ان الرموز الموسيقية موضوعة منذ نيف وخمسة آلاف سنة . وأنها أول ما رسمت فى الهند وفي الصين . فمن المخجل أن تكون مصر سيدة الموسيقى فى الشرق الآن ولا يستطاع إثبات لحن من ألحانها على صحيفة يعلم منها اخواننا القاصون أو أبناؤنا الآتون أى فن كان فننا فى التلحين وما كان « عبده » وكيف كان أسلوبه ؟ وهل كان جديراً بالمحل الذى أحل فيه من إكرام الناس ؟ فأجابني : انه كان يود ذلك وأنه سعى ما سعى للوصول اليه فلم يفز بطائل ، وانه لم يجد واحداً فى القطر يستطيع أن يعرفه معنى لحن من الألحان الأجنبية تركية كانت أو غير تركية . وان كل ما حصله من مغنى الاتراك وأدخله فى المغنى العربي كان سماعياً اجتهادياً رائده فيه موافقة الذوق المألوف ، ومراعاة الاصلاح المعروف

لا جرمَ أن عملاً كهذا ليس مما يقوم به فرد اوعى صدره ما أوعى من المعارف الموسيقية المختلفة . وبلغت ثروته ما بلغت من السعة . وانما هو عمل شركة أو جمعية تستقدم أساتذة من الاستانة لتخريج جمهور من ذوي الفطرة الموسيقية والأصوات الحسنة على مبادىء هذا الفن . وتعليمهم حقيقة مقصده وشرف غرضه ، وتدريبهم على التأليف فيه كل بما يوحى اليه علمه وعقله وترشده اليهِ ملكته كما يفعل ذلك الذين يدربون على الانشاء ، ونتائج مثل هذا التدريس أبين من أن اطيل الكلام عليها فحسبي الاشارة

أما إذا بقيت الموسيقى على ما هي عليهِ الآن فانها بلا ريب تلذنا ولكنها تمثلنا أبداً باخلاق الرعاة الفوضى وإن كنا فى أزياء المدنيين الحضريين لأن هذه الأصوات الأنفية ، وهذه الأنات المرَضية ، وهذه النفثات الصدرية لا تصدر عن بأس وحزم ولا تدل على شرف وعلم

(٣)

بقي أن نصف كيف ينبغي أن تكون الموسيقى العربية ليحسن تصورها الذين يروعهم من الموسيقى الافرنجية دوي الطبل وقعقعة النحاس وطنطنة المثلثات الحديدية ، وخوار المعازف المعدنية ، إلى ما يماثل ذلك مما يختلط على ذهن جاهله ويسوء وقعه فى نفسه لعدم إدراك معناه . وانما الموسيقى

في إصلاح الغربيين فن كالكتابة أو الرسم سوى أنها تمثل لنا بالصوت مايمثله لنا الانشاء بالألفاظ التى تستثير فى مخيلتنا تصور مقصوداتها وما يمثله الرسم بالصور التى تنطبق على مرئياتنا

و بدهيٌ أن كلاً من هذه الفنون لا يرينا مما يماثله إلاّ جانباً ويدع لنا الجانب الآخر نتممهُ بما نتخيله أو نعامه أو نشعر به . فالكاتب إذا حدَّث عن عاصفة مثلاً وصف لنا شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يغتالها إلى أن تنطفىء فيشمل الظلام ويكون مهيباً . ونشر سحائب سوداء كثيفة ترسل فى الجو رعوداً مليئة الدوى ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللمعان ثم ساطعة ، وأطلق ريحاً هجوميًا عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهية مبانيه وتذري رماده وتجتث أشجاره العاتية وتصفع وجوه زجاجه بالبرَد وتجري بطرقه سيولاً فاذا أبلغ السهول منتهاه وصف لنا فى خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجههِ وقد لجأت الناس إلى مساكنها جزعًا ، وقد اطمأنت الأطفال بين ايدي آبائها وأمهاتها في مآمنها وانما يقف ذلك الطفل الصغير فى ذلك الموقف الرهيب ليحرك في قلبنا وتر حنان ورفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة فمن قرأ هذا الوصف رأى تكلح الشمس وافولها وانتشار السحائب السوداء ولمع الوميض المتتالي وتقلع الأشجار . وتقوض الجدران على التوالي وسمع زئير الرعد القاصف وهدير السيل الجارف . وركض الزمهرير العاصف وركوع البناء الواقف . ورأى فى أثناء هذا الحادث الجلل دهشة ذلك اليتيم الخائف وسمع خفقان قلبه الصغير الواجف كأن ما قيل حاضر بين يديه وكأنهُ منهُ على كثب ينظره بعينيه ويسمعهُ باذنيهِ مع أنهُ فى الحقيقة لم ير ولم يسمع من ذلك شيئًا . فالكاتب رمزَ لهُ بما ينبِّه عنده هذه التصورات الشتى ويجمعها على الشكل الذي أحبهُ فتم لهُ ما أراد على قدر مهارتهِ

وللألفاظ فى بلاغ قصده رنة لا تنكر . وللتراكيب امتزاج بالنفس لا يجحد . ولاصوات الحروف لعب بالدماغ والقلب لا ريب فيه . ولكن كل هذا ليس إلاَّ من المتممات . فاذا قدرنا بعد هذا أن رساماً تولى تصوير هذا المشهد فغاية ما يستطيعهُ تمثيل قدّة كالهلال من الشمس الحمراء فى جهة الأفق . وتكديس طبقات من الغيوم القاتمة في صدر السماء . وتحدير سموط كنسج المنوال من المطر الغزير . واقامة أمواج من الزبد في الطرق السائلة بالوحل والماء تلاطم من الحجارة أشباه انياب العجوز الفلجاء ، وامالة حائط وصرع شجرة وتقصف أخرى ، وتكسر زجاج ، ووقفة طفل بالي الأطمار في موقف الحيرة والجزع بعينين نجلاوين وقد سالت منهما دمعتان . ولكن الرسام يرتّب هذه الأجزاء ويحكم وضع كل معنى مقصود في اللون الذي يلونه حتى انك لتسمع الرعد وأنت تنظر

البرق وتحس الدمار وأنت ترى آثاره وتحس خفقان قلب الطفل وأنت ترى الانفعـال البادي على وجههِ والدمعتين المتسلسلتين من مقلتيه

وصفوة القول أن الكتابة فن منبه للتصور والحس رمزاً . وأن الرسم فن منبه لهما نظراً . فكان والحالة هذه لا بد من فن متمم لهذين الفنين لينبه التصور والحس سمعًا . وهذا ما بنيت عليه الموسيقى منذ بضع مئات من السنين في أوربا على اعتبار أنها فن نفيس مثلهما قابل لتأدية المعاني التى يؤديانها . وقد وصلت الآن في تلك البلاد إلى هذه الغاية . وأصبحت عاملاً من أكبر عوامل تقدمها العجيب

فلنصف الآن كيف نتخيل تمثيل الموسيقى للمشهد الذي ذكرناه آنفًا وإن لم نكن ممن لهم رأي في هذا الفن هنا اسأل الصديق الذي يقرأ هذه السطور أن يتخيل انهُ أجاب دعوتى وصحبني إلى دار غناء لأريه بسمع أذنيه ما نظره في الرسم بعينيهِ. فنحن الآن إذن جالسان في تلك الدار على كرسيين متجاورين . وهذه أمامنا مجالس الضاربين والعازفين

أنظر أيها الصديق أن عدد هؤلاء نحو المئة أمام كل منهم دفتر فيهِ رموز الأصوات التى ينبغي أن يحدثها في الأوقات المعينة له . وهذا كل ما عليهُ . وعلى الاستاذ الذي فوق المنصة أن يتنبه لعامة الترتيب ويمنع الشذوذ . اجمع حواسك الآن واصْغِ بكليتك فقد أشار الاستاذ بأن يبدأوا

ما ذا تمثل لك هذه السحابة من النغمات التى تخرج من الاوتار مضطربة سريعـة مبتدئة من القرار ؟ أليس هذا أول تنهد الريح المنذرة بالهجوم ؟ أو ليس فيهـا ما يشعر ببرد الزمهرير ؟ أتسمع كيف تترقى صاعدة متدافقة كأنها علت فوق الأرض ذاهبة في الجو كلما جازت شوطاً زادت قوة واتساعًا إلى أن تتخيلها بلغت السحاب ؟ هذا تنبيه يسمو بالفكر على مثل البساط الروحاني ليوصله إلى الأفق الأعلى ويشهده حادثاً جليلاً فقد دنت الغيوم من الشمس فاغرة فاها . وانضمت أصوات المعازف النحاسيـة إلى نغمات الأوتار وعلت الصيحة إلى منتهاها . حتى اذا غال السحاب الضارى جانبًا من الشمس وأدماها بأنيابه صكت الصنوج هذه الصكة الفجائية المنكرة التى ختمت بها حكاية الحال . فكأن الشمس قد انشقت كالقطعـة المحمية من النحاس الرنان . وكأنها انشطرت شطرين وتوارت بالحجاب . وبعـد هذا تأمل كيف تراجعت أصوات تلك الصيحة هابطة تدريجًا الى أن انقطع خوار المعازف ، واستقلت رنات الاوتار تنحدر كرش المطر في أول انهماره

إلى هذا المقام انتهت الانذارات

أنظر كيف أخذ جمهور النغمات يخرج من عامة الآلات متموجًا تموجًا ثقيلاً كأول تحرك البحر

ليهيج . أتسمع انسكاب الوبل الشديد وتدفق الميازيب وعصفات الريح الطويلة التى تبدأ مثل ارنان النادبة وتنتهي مثل غمغمة الأسد الجائع الذى جلس يأكل فريسته ؟ أتسمع قرع الحجارة تحت السيول ؟ أتسمع تقصف الأشجار المتكسرة ؟ أتسمع وقوع الصخور وتهدم الجدران يشمل كل ذلك دوى الرعد الذى يحدثه الطبل ويفرّعهُ الصدى إلى عدة رعود صغيرة متتالية يحدثها الطبلان الصغيران تحت النقر السريع المتتابع . أليس لكل صوت من أصوات هذه العاصفة ما يحاكيه إما في آلة أو في جمع صوتي آلتين على ترتيب معلوم ؟ ألم ترتسم البرق خلال غضب الرعد ورسم الشجرة الواقعة خلال تقصفها وهي تتكسر على متانة بها ؟ أو لم ترَ نواصي السيول واعرافها البيضاء خلال وكفها وتهورها وصعودها وتحدُرها . هذا منتهى ما يكون هول العاصفة

اسمع الآن كيف أخذت هذه العناصر الجمّة تتناوب مراوحًا بين بعضها والبعض . السر فى ذلك من جهة أن يستبقى فى النفوس شعور باستمرار العاصفة وقد تراخت قليلاً بعد الشدة كما هو شأن العواصف ومن جهة أخرى التمهيد لاسماع الناس أنة ذلك اليتيم فى حيرتهِ وخوفهِ . هذه أنة اليتيم تنطلق من أوتار ذلك العود الضخم القائم كالأمير بين الآلات كأنهُ سرير داود بين أسرة الملوك فى زمانه . أتشعر بما فيها من لذة وحنان ؟ ألست مدركاً من نفسك أنها زفير طفل حزين ؟ أما فى هذه الآونة عثرات أشبه بعثرات قدم الطفل المتحير فى خفتها وعدم انتظامها ؟ ولكن هنا انقطعت النغمة اللطيفة وعاد الأنذار بالهول . سيستأنف جميع ما سمعتهُ من الصيحات والجلبة غير أنهُ ملطف كأنهُ مسموع عن بعد ومن وراء حجاب كثيف . ولمَ هذا ؟ لأن ما يستأنف ليس أصوات العاصفة بالذات بل صداها فى دماغ ذلك اليتيم المروع الضعيف

هذا بيان واحد من الف من الأمور التى تصلح لها الموسيقى ويكون موقعها من النفوس بها كموقعها من النفوس بالرسم والكتابة . ومن المعاني ما يكون تأثيره بالموسيقى أشد وأمتن ، على أن لكل من هذه الفنون مزيته التى لا تجحد فى تنشيط العزم وازالة الملل . فان المرء بسمعه وبصره لا بأحدهما

فالى هذه الغاية الشريفة من إصلاح فن الموسيقى ينبغي أن تتجه الرغائب العامة فى مصر فان « عبده » كان خير مغنٍّ لزمانهِ وعهده عهد صبابة ورخاء . أما نحن فان أردنا النهضة من الحطة التى نحن فيها فينبغي لنا مغنٍّ ينهض عزائمنا الخائرة ويرفع أبصارنا إلى السماء

عبدة الحمولى وفنه

لحضرة العلامة المفضال صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق

الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

•••ooo•••

رغب إليّ الفاضل الأديب قسطندى افنـدى رزق أن اكتب له كلمة فى حياة عبده الحمولى وفنه . وجه إليّ هذه الرغبة فى رسالة يقول فيها « انه وفق إلى تصنيف كتاب فى الموسيقى الشرقية والغناء العربى وحياة عبده الحمولي ، وفى الكتاب بحوث وآراء لفحول الموسيقيين وفطاحل الشعراء والأدباء ومعارضات فى التجديد والتطور الذين أوشكا أن يجهزا على الرمق الباقي من الموسيقى الشرقية وما لها من سحر وتأثير فى النفوس

ويتلطف قسطندى افندى رزق فيقول « ولما كنتم معاصرين لغريد الشرق الذى لا تفتح العين على مثله ولا تضنون أبداً فى ضم يدكم الى يدي الضعيفة لتشاطروني الأجر عند الله وحسن الاحدوثة لدى الناس لقيامي بالواجب نحو الأفذاذ الراحلين المصريين الذين أخذت على عاتقي القيام بتخليد ذكراهم . . .

. . . أرجوكم أن تحضروا لي كلمة عن الفقيد ، وعما إذا كنتم من أنصار موسيقاه العربية الساحرة لأدرجها ضمن كتابي »

وكان المعقول أن ألتمس سبيلاً للخلاص من مزاحمة فحول الموسيقيين وفطاحل الأدباء والشعراء ولي العذر بأنني لست موسيقياً ولم أسمع عبده الحمولي مغنياً قط إلا ما حفظه الحاكي من بعض أدواره الشجية . لكن قسطندى افندى زارني ليبين لي رغبته شفاهاً فلقيت منه رجلاً مخلصاً للموسيقى العربية مخلصاً فى حب عبده الحمولي أمام الموسيقى العربية فى القرن التاسع عشر مخلصاً فى معارضة كل تجديد يذهب بسحر الموسيقى الشرقية ويبطل مميزاتها

وما يكون لي أن ألقى هذا الاخلاص كله بغير التلبية والتشجيع فى زمن قلما تجد فيه عاملاً مخلصاً

واني وان كنت غير موسيقي فاني أحب الموسيقى بفطرتي حباً جماً ، وقد حاولت فى عهد الشباب مرة أن أتعلم بعض الموسيقى فلم يسعدني الفراغ بل لم يسعدني فراغ للاكثار من سماع الموسيقى

لكنني ظللت دائمًا محبًا لهذا الفن الجميل ، بل ظللت متتبعًا ما يمر به من أطوار التجديد فى بلادنا .

وأحب أنواع الموسيقى إليّ أبسطها وأسرعها تأثيراً فى العواطف وعندى ان الموسيقى متعة للنفس وراحة للخاطر المكدود فاذا تعقدت ألحانها وأصبح تأليفها عويصًا يحتاج فى إدراك مراميه الى كد الذهن وفرط التأمل فقد خرجت الموسيقى عن حدودها واتجهت الى غير وجهتها

ليس أفضل الموسيقى عندى ما انطبق على قواعد الفن فلم يدركه شذوذ ولم يخالف قانونًا من قوانين الصناعة لأننى لا أعرف هذه القوانين ولا أستطيع أن أميز الألحان التى تراعيها من الألحان التي تجاوزها ولكننى أحس لبعض الأنغام بطرب لا أحس به لسائرها وأذكر أنني سمعت بعض المغنين المصريين فى بداية عهدهم يوم كان الفن لم يقيدهم تقييداً ولم يحطهم بالسلاسل من قواعده والأغلال ، فكنت يومئذ معجبًا بهم كل الاعجاب وكان أشد إعجابي بهم حين تثور عاطفة من عواطفهم عند الانشاد فتسمو بألحانهم وأنغامهم صُعُداً الى ما وراء القواعد الفنية . ولما سمعت هؤلاء المغنين بعد ان حذقوا الفن وأتقنوا أصوله وأصبحوا لا يسيرون فى أغانيهم الا على صراط ممدود ، أصبحت آسف على تلك الوثبات التى كانت تطير بهم وتطير بنا معهم الى آفاق لا تعرف الحدود

قد يكون بحكم الإلف ما يروقني من الألحان الشرقية أكثر مما يروقني من غيرها لكننى كثيراً ما يذهب بي الطرب الى غايته عند سماع قطع موسيقية أوربية ففي الموسيقى الغربية كما فى الموسيقى الشرقية أنغام إنسانية من شأنها أن تهز العواطف البشرية هزاً عنيفًا أو ترد العواطف الهائجة الى هدوء مريح . والموسيقي العبقرى هو الذى يستطيع بموهبته أن يهتدى الى هذه الانغام فيؤلف منها نظامًا متسقًا يحدث أثره الموسيقي البليغ فى نفوس البشر جميعًا

ويخيل إليّ أن عبده الحمولي كان عبقريًا من هذا الطراز فهو قد استخلص من الاغاني المصرية التي كانت معروفة لعهده كل ما يصلح ان يكون لحنًا موسيقيًا إنسانيًا وألف من ذلك على قلته أغاني نقل بعضها من أناشيد الخلود واقتبس عبده الحمولى مما وصل اليه من أغاني الاتراك ما يلائم مذهبه فجمع ألحانًا إنسانية أيضًا لم يتناولها تقليداً ولكنه نفذ الى أعماقها وصقلها بذوقه وفنه صقلاً حتى تماثلت بما تم له من الألحان المصرية وألف من هذا وذاك ترانيم بهرت ذوق الترك والعرب ولو أن عبده الحمولي عرف الموسيقى الغربية لاستخلص منها أيضًا أبعدها عن التعقيد والتكليف وأدناها أن يكون غذاء للروح الانساني وراحة ونعيمًا ثم لسلط عبقريته على تلك الخلاصة فلم تدع فيها شذوذاً ينبو عن ملاءمة ما تم له من التأليف بين الموسيقى المصرية والموسيقى التركية ثم لألف بعد ذلك من موسيقى

الشرق وموسيقى الغرب تلك الموسيقى الانسانيـة التي تهفو اليها الفِطَر فى الناس جميعًا ولا تهتدى اليها سبيلاً

هذا النزوع الى إيجاد موسيقى انسانية تجتمع الأذواق كلها على الأعجاب بها والشعور بجمالها على أساس ما أبقت الأيام فى طيات الموسيقى المصرية والذوق المصرى من آثار الحضارات الماضيـة والعصور الخوالى هو رسالة عبده الحمولى النبيلة التى أدى بعضها وترك للأعقاب أن يتموها

وكان عبده الحمولى نبيلاً فى مذهبه الفني كما كان نبيلاً فى أخلاقه وشمائله وفى سيرته بين الناس وانك لتدرك النبل فى جوهر صوته وفى كيفية أدائه واختياره للانغام وتأليفه بين الالحان . كان يتسامى بفنه عن التبذل والتكلف فلا ينحدر فى غنائه الى مثل التكسر فى النبرات المائعة الذليلة

« ومن أكبر الأدلة على استعـداده شدة طربه من الغناء كأنه كان يغنى ليطرب نفسه . وشغف المرء بصناعته وتلذذه بممارستها يدلان على انطباعه عليها واقتداره على اتقانها »

هذا ما يقوله جرجى زيدان فى تراجم مشاهير الشرق وأين ممن يغنى ليطرب نفسه ؟

أولئك الذين إذا تغنوا فى محفل بصبصت عيونهم يمينًا وشمالاً وتمايلت أخادعهم صَيَداً ودلالاً وتصنعوا العبوس تارة ثم تصنعوا الابتسام كأنما كل جهدهم مصروف الى الهاء الناس بتقلبات سحنهم وحركات جسومهم وكأنما كل هم سامعيهم أن يتلقفوا من ثغورهم بسمة طائرة أو يغنموا من عيونهم لمحةً راضيةً أو يروا فى تزايل أعضائهم وضعًا معجبًا

لم يكن كذلك عبده الحمولى الذى كان إذا شدا توجهت نفسه إلى الفن وحده يريد أن تستوفى الصناعة حقها وأن تبرز الالحان مستكملة جمالها فاذا استوت له القطعة الموسيقية البارعة كان أول مدرك لسحرها وروعتها وأول مستمتع بلذتها وبهجتها

فليس يستجدى من الناس أعجابهم ولكنه يرى من البر بالناس أن يمتعهم بهذه اللذة الفائقـة وأن يشركهم فى تلك السعادة العالية

عاش عبده الحمولى حياة كريمة نبيلة فلما مات مات أيضًا موتًا نبيلاً كريمًا تجلى فيه نسيانه نفسه فى سبيل المروءة والوفاء

ورد فى تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر نقـلاً عن جريدة مصباح الشرق أن عبده الحمولى أصيب فى آخر عمره بذات الرئة وتراكمت عليه هموم الحياة « ودخل من داء السل فى الدرجة التي لا يرجى منها شفاء وأشار عليه الأطباء بسكنى الصعيـد مدة الشتاء فأقام فى سوهاج

شهرين ونصفا عادت له فى أثنائها بعض قوته وتقوى أمله فى شفائه ولم يدرك المرحوم كنه دائه إلا فى اليوم الذى مات فى غده . ثم عجل العودة إلى مصر ليشتغل بوضع غنائه فى اسطوانات الفنوغرافات طلباً للعيش ولما حضر باشر ذلك فعلاً ثم جاءه نعي أحد أصدقائه المخاصين بالمنيا فاغتم غماً شديداً ولم يسمع لنصيحة أصحابه بل خالفهم لقضاء ما توجبه عليه مروءته وسافر إلى تلك المدينة وأقام هناك أياماً ولما عاد عاد باشتداد المرض عليه حتى أدركته منيته »

واذا كان ذكر الفتى عمره الثاني فان ذكر عبده الحمولى لا يزال بعد موته مثال النبل والكرم

والذين يحيون اليوم و بعد اليوم تذكار الحمولى إنما ينشرون صفحات من آيات العبقرية ومكارم الأخلاق ليوجهوا الاصلاح الموسيقي فى بلادنا وجهة صالحة و يضربوا لأهل الفن ولغير أهل الفن مثلاً فى المروءة وفى عرفان المرء لكرامة نفسه وكرامة الفن الذى يمارسه وعبده الحمولى ممن يصدق فيهم قول أبى العلاء

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

كلمة الدكتور عبد الرحمن شهبندر

الزعيم السورى الكبير

لا أكاد أعرف من الموسيقى إلا أنها ضربان، ضرب يثير الطرب وضرب يدعو الى الاشمئزاز لذلك لا أرى نظراً لمعرفتى هذه كبير فائدة من المجادلة فى شأن الموسيقى العربية أهي متقدمة أم متأخرة لأنني ما دمت أطرب منها كما يطرب غيرى من أبناء العرب الذين يسمعونها فهي موسيقى تؤدى وظيفتها ، ألم يقولوا كذلك عن اللغة العربية أنها ضعيفة لا تصلح للتعبير عن النهضة الحاضرة فكذبتهم المجلات العربية والصحف العربية والكتب العربية ؟ وهل أدل على حياتها من أنها أصبحت لغة الثقافة فى هذا العالم العربي الشاسع الناهض ؟

على أننى لا انكر أبداً أن الملحنين العرب لم يجاروا النهضة إجماعاً فى بلدان العرب فهم يحتفظون بما خلفه لهم الآباء والجدود المتأخرون من ذكريات آلام وأحزان تدل عليها تلك الأنات والآهات المتكررة وغير ذلك من الألفاظ والألحان الحافلة بمعاني الانكسار والخضوع وزوال النشوة

وعزة النفس ، واذا جاز لمثل هـذه الألحان أن تأخذ بمجامع القلوب في عصر النشوء الوضيع فهي تدعو الى الملل والضجر والسآمة في عصر النهضة الطامحة .



(الزعيم السوري الدكتور عبد الرحمن شهبندر)

والموسيقي مثل الشاعر والمصور وسائر الفنانين مدرة يعبر عما يخالج صدور الناس من هواجس وانفعالات فعليه أن يماشي العصر الذي يعيش فيه والتطور الذي يحيط بكل شيء حتى بالتحت الذي يغني عليه . فكما أننا لم يعد يلذ، كثيراً هـذا التذلل والترامي على أقدام الأحبة وتقبيل نعال الخيال التي تحملهم كذلك لا تروقنا اليوم العبرات والحسرات من غدر الزمان وقوارع الحدثان بل أننا أحوج ما نكون الى من يفصح عما في قلوبنا من غليان ويدل على ما في نفوسنا من تحفز ويترجم عما في عزيمتنا من قوة . لذلك لا أخطىء أبداً إذا ما قلت أن الموسيقي الذي ستنصت له الآذان وتنفتح له القلوب هو الذي يعبر عن الانقلاب الاجتماعي السياسي الخطير في بلادنا وعما يحدث في قرارات نفوسنا من التبدل الكبير . وليقل المحافظون والمجددون ما شاؤا أن يقولوا فان المهم الذي يجب أن يصرح به على رؤوس الاشهاد ومن غير محاباة هو ان هذه المواليا النمطية المملة وما تبتدىء به من النداء « ياليل » وهذا التكرار الثقيل السقيم الذي يكرره المغني الكامة التي يتمسك بها وهذا التسكع والتشاؤم كله سيحول أنظار النشء الحديث عن التخت العربي ويرغبه عن سماع المغنين العرب ما لم نعتمد في موسيقانا على تلك العناصر التي تعيد إلى القلوب ثقتها والى النفوس نشوتها وإلى العضلات قوتها ووثبتها .

وقد يكون من المستحسن أن يسمع المرء في حفلة كاملة لحناً واحداً محزناً وقد يكون من الجائز أن يسمع لحنين اثنين ولكن أن يقضي الحفلة كلها في نواح وبكاء ورجيع فهذا أليق بنصب المآتم

وزيارة المقابر . ويعجبني كثيراً أن يقول الأستاذ قسطندى رزق فى « عبده الحمولى » أنه كان يضع نصب عينيه الفرح والابتسام فلا يغنى من الأدوار إلاّ ما أثار البهجة والحبور

أن معاجم لغتنا اليومية قد اتّسعتْ وتعدّلت وتحولت حتى أصبحت تستوعب ألوفاً من الألفاظ الدالة على المعاني العلميــة والفلسفية الحديثة وهكذا موسيقانا فأنها ستتّسع وتتعدّل وتتحوّل حتى تستوعب تلك الهواجس التى تجول فى أفئدتنا والثورات التى تغلي فى نفوسنا والانقلابات التى تشب فى مداركنا وانا قد صممنا على الحياة فلا بد لنا من تكييف أنفسنا وأوضاعنا وعلومنا وفنوننا بحسب حاجاتنا والحاجة أم الاختراع .

المؤلف — كل واحد منا يعرف مَن هو الدكتور شهبندر وماله من قَدَم سـابقة فى قضية استقلال سوريا والبلاد العربية وما بذل من مجهود وتحمل من مشاقّ واضطهاد فى سبيل الوطن الذى تحفزه همته إلى حماية حوزته باتحـاد الوجهة واجتماع الكلمة وتعليقاً على كلمته البليغة فى باب الموسيقى التى لأجلها أملأ فمي بحمده الجزيل أقول أن وزارتنا الماهرية الجليلة قد عُنيت ببث روح الشجاعة وعزة النفس والكرامة الشخصية فى النشء الحديث تمشياً مع النهضة القومية فى هذا العصر إسوةً بالأمم المتمدنة وقرّرت عمل مباراة فى نظم وتلحين نشيــد قومى كنشيد ألمانيا مثلاً القائل « ألمانيا فوق الجميع » الغرض منه أن ينشأ المصرى حرّاً مستقلاً ووطنياً أميناً ورجلاً صادقاً يضطلع بأعباء مهمّات بلاده وقد أصاب حضرة الدكتور المشار اليه كبد الحقيقة بقوله ان الموسيقيّ كالشاعر والمصوّر وسائر الفنانين مِدَرّةٌ يعبّر عن عواطف الأمة وعما تصبو اليه من رغائب وآمال ويدلنا على ما بنا من نقص وضعف عزيمة وحسبي من هذه الوجهة اني قد وجدت فى أغاني غريد الشرق « عبده الحمولي » غضبة فى الله ولله انتصاراً للحق وارباب جماعاتٍ ووحداناً ونبلاً وجذلاً وسعادة وعفّة وفروسية ومروءة ووفاء فاستطاع بقلبه وصوته أن يدلنا على مناهج الشفاء من الداء ذهاباً إلى ماجاء بحديث المصطفى (صلعم) القائل « مَن رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » فما بال المطربين المجددين لا ينسجون على منواله ولا يستنّون بسنته ؟ ان ذلك لأمر غريب فانهم لم يقتصروا على أن كسوا أغانيهم التجديدية لباساً من الهجنة لا يرجع إلى ترتيب ولا يجرى على شيء من التناسب الذى هو قاعدة الجمال بل بثوا فى النشء روح الذل والانكسار والكآبة كأنهم يبكون بكاء الخنساء على صخر متصنعين الحب وهم مذاعون يأخذون صديقهم أخذاً عنيفاً حتى ماتت فى النشء ملكة البحث والنظر وكادوا يتفادون من كل ما فيه بأس وعزّة

فلينشأ المصرى حراً يرضع البأس وقت رضع الحليب و يسمع نشيداً قومياً فيشرب حب وطنه ويحمي حوزته لأن الطفل أبو الانسان وهو سيد المخلوقات « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

لمحة عامة فى الموسيقى

بقلم نيافة المطران كيرلس رزق

لما كان مؤتمر الموسيقى على أهبة الانعقاد بمصر بايعاز من حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول المعظم حامي العلوم والفنون الجميلة وعناية الحكومة المصرية النشيطة رأيت أن ألقي دلوي فى الدلاء لمزاولتى الأنغام الكنسية واطلاعي على أنواع الانغام الشرقية العربية المدنية لعلى أؤدى بعض الفائدة لهذا الفن الجميل فيما يدور بحث المؤتمر عليه فأقول

اختلفت الأقوال فى أصل الموسيقى ومبادئها عند الأمم وأنا لا أجزم بأصح الأقوال لغموض الأمر . واختلفوا فى تحديدها ، فقال بعضهم انها كل حركة أو اهتزازات فى الطبيعة كحركة الأشجار والنبات وما أشبه ، وقال البعض الاخر انها من الأصوات الطبيعية الانسانية الى غير ذلك من الأقوال . وقد قال ذلك غير واحد من علماء الموسيقى « ان تحديد الموسيقي الصحيح هو فن التأثير فى النفس و يتم ذلك كله بتأليف أصوات تلذنا فتثير فينا هذه العواطف المختلفة من أول وهلة فيصل تأثير الموسيقى إلى النفس مباشرة فيجب والحالة هذه أن تسمى الموسيقى لغة النفس

والذى ينظم نغمة موسيقية فانما ينظمها على مثال ما يشعر به فى نفسه من العواطف ففن الموسيقى يفترق جوهريًا عن سائر الفنون كالتصوير مثلاً فانه خاضع للاصلاح مراراً تحت نظر الرسام وليست الموسيقى كذلك فى إنشاء التأثير مع خضوعها للمؤلف فى إصلاح بعض التراكيب الصوتية إذا كان مخالفاً لمبادىء الفن ، أما الشعر فهو أقرب ما يكون الى الموسيقى لصدوره عن النفس ولكنه يفارقها بكونه خاضعًا لروية العقل ، وللاصلاح لغوى منطبق على وزن خاص

أما تاريخ الموسيقى فغير محدود بعصر من العصور بل هو تاريخ الانسانية نفسها وكانت الشعوب القديمة تقدرها حق قدرها فالهنود نسبوها لإلههم برهم والمصريون لا وزير يس، مخترع المعرفة وهرمس موجد العود . وكان اليونانيون يلقنونها لأولادهم فى المدارس وخارجها و يمنعونها عن العبيد

وأن الحيوانات الضارية نفسها كانت تستأنس بها . وقد عُدّ قدماء اليونانيين أول موسيقيّ العالم وحصى كبار الموسيقين عندهم بين آلهتهم وامتزج فن الموسيقى بفن النظم فى بلاد اليونان فاعتبروا هوميرس شاعراً وموسيقياً وكان يغنى منظوماته أمام الأبواب . ومن لفظة موسا اليونانية وهي إلاهة الشعر اشتقت الموسيقى .



(سيادة المطران كيرلس رزق)

وكان عند العبرانيين أثر كبير لهذا الفن يتأكده من تصفح التاريخ المقدس وقس سائر الشعوب على ما ذكرناه . وأن ما أوردناه هو توطئة للكلام على الموسيقى العربية التى ترمى إلى الكلام عنها اشتراكاً فى أغراض المؤتمر الذى سيعقد فى القاهرة بشأنها .

نقول أن العرب لم يكونوا أقل ميلاً إلى الموسيقى من غيرهم من الأمم وكانوا يتغنون بأشعارهم لمقاصد جمة أخصها أثارة الحماسة فى المتحاربين . ولما اختلطوا بالأمم الأخرى بعد الاسلام وتأسست دولهم اقتبس الخلفاء من رعاياهم الجدد أفضل ما عندهم من الأنغام الموسيقية فاختلط بالانغام العربية الأصلية ففاقت بعد التنظيم سائر أنواع الموسيقى عند بقية الشعوب وزادت شهرتها وتأثيرها فى عهد العباسيين ولا سيا عهد هرون الرشيد .

وكانت أكثر القصائد تُنشد . وكان عند العرب والفرس حتى اليوم سبع أنغام أصلية وضعوها على أسماء السيارات وهي الرست والدوكا والسيكا والشركا والنوى والحسينى والعجم ويضاف اليها الحجاز ومن هذه الأنغام اشتقت عدة فروع تقارب التسعين ولها ديوان (سلم) يتألف من جملة مقامات وإذا قابلنا الموسيقى العربية بالافرنجية من حيث الشعور باللذة والتأثير فى المجموع العصبي وجدنا العربية أشد تأثيراً ولذة . ولقائل أن يقول ولماذا لا يتذوق الافرنج الموسيقى العربية فالجواب على ذلك هو أولاً لأن ليس فى موسيقاهم ما فى الموسيقى العربية من التقاسيم الدقيقة للمقام ولم يتعودوها . وثانيًا وان لكل أمة عادات وأمزجة وأميالاً تختلف عن الأخرى ولكن متى الفت سماع الموسيقى عند أمة أخرى تكرراً ينتهي بها الحال إلى أن تجدها لذيذة . ومما يثبت هذه النظرية هو أن الحكومة الفرنسوية أرسلت بعثة موسيقية فى أواسط القرن الماضي الى الشرق للدرس فمرت في أثينا ومصر وبعد المراقبة وصلت إلى النتيجة التى ذكرناها وقد لبث أعضاؤها أكثر من شهرين فى مصر سمعوا فى أثنائهما الموسيقى والمغنين غير مرة وأخيراً صاروا يلتذون بالموسيقى العربية وفضلوها على موسيقاهم بعد ما كانوا يتأففون فى بدء الأمر من سماعها فضلاً عن أن الأوتار العربية أكثر حساسية من أوتارهم المعدنية . ولا بد للوصول إلى ذلك من مراعاة عدة أمور أخصها اتفاق أصول النغم عند الغناء أو الترتيل ومراعاة الضرب الخفيف والثقيل وتطبيق المعنى على النغمة وحسن النطق اللفظي وتكييف النغمات لئلا تمل السامع إذا بقيت على وتيرة واحدة بشرط الانتقال بمهارة من نغمة إلى أخرى والعودة إلى النغم الأساسي من دون أن يشعر السامع بمفاجأة . على أنه لا ينبغى أن يُستنتج مما تقدم أن الموسيقى العربية بلغت حد الكمال أو انها تفضل الموسيقى الأوربية فى كل شيء فلا بد من ذكر الفوارق بينهما من هذا القبيل والنواقص الواجب تلافيها بمناسبة انعقاد المؤتمر

أولاً – أن الموسيقى العربية بحالتها الراهنة لم ترتق إسوةً بسائر الفنون فان تحسنها ضئيل من قرن مضى حتى الآن . والرقي واجب لكل شيء مسايرةً للحركة العامة بخلاف الموسيقى الافرنجية الدائبة على التحسن .

ثانيًا - أنها محرومة الهرمونيا أو المساوقة وهو جزء مهم فى الفن بخلاف الافرنجية البالغة فيها حد الأعجاز ولا شك فى أن الهرمونيا أقدر من السنفونيا أو اتفاق الأصوات على أثارة عواطف الحماسة والأقدام ونحوهما

ثالثًا - ينقص الموسيقى العربية علامات للديوان ترتبط بها بحيث يستطيع أي موسيقى عند النظر اليها التغني بها أو ضربها على الآلة من دون أن يسمعها من غيره و يسهل على الطالب تناول الفن واكتساب جزء من وقته الضائع الآن سدى ويحفظ للمبرزين في الفن منظوماتهم الفنية بعد الوفاة .

فليبتدع الموسيقيون الشرقيون العلامات الموسيقية كما ابتدعها موسيقيو الغرب واليونان الشرقيون

رابعًا — واذا اخترعوا تلك العلامات واستفادوا من ميزان الموسيقى الافرنجية الراقية أموراً جديدة فليحتفظوا بالفارق بينهما لكي لا يختلط النغم بين عربي وافرنجي والا خسرت الموسيقى العربية استقلالها النوعي وميزتها وابتلعتها الاوربية

خامسًا — ان القطع التى نظمها فنيًا أصحاب الكفاءآت الموسيقية للانشاد والغناء يجب أن تسمو بلفظها ومعانيها الأنيقة لتستطيع العذرآء أن تنشدها فى خدرها وأن يتناول النظم شتى الموضوعات الدينية والأدبية والحماسية والوطنية والاخلاقية وما أشبه ذلك ، فان ما تعاب به موسيقانا اليوم هو اقتصارها على الغزل واستعمال الألفاظ والمعانى المبتذلة فى عموم الأغاني فلا تساعد والحالة هذه على رقي الأخلاق والتربية الاجتماعية ولا سيما على إسماعها للفتيات .

هذا ما توخيت نشره بالايجاز فى هذه العجالة عن الموسيقى عمومًا والموسيقى العربية خصوصًا غير متعرض للبحث عن آلاتها المشهورة . ويحسن بنا قبل الختام أن نستنتج من بحثنا هذا النتائج التالية :

أولاً - ان الموسيقى مصدرها النفس البشرية .

ثانيًا - ان تاريخها من هذه الوجهة هو تاريخ البشرية نفسها

ثالثًا - إنها على وحدة مصدرها متباينة عند كل الشعوب تبعًا لاختلاف الميول والأذواق واللغات

رابعًا - ان اليونان اشهر الأقدمين الذين اشتغلوا فيها

خامسًا - بلغت الموسيقى الحديثة عند الاوربيين طوراً فائقًا ولا سيما فى الآلات

سادسًا - بطلان الزعم بعدم حسن الموسيقى العربية ولذتها بل ثبوت مزاياها العجيبة فى دقة الشعور وقوة التأثير فى من يألفها ولوكان غريبًا عنها .

هذا ولا أتعرض للموسيقى الكنسية الشرقية ، ولا سيما اليونانية منها المستعملة فى طقس كنيستنا لخروجها أيضًا عن أبحاث المؤتمر أساسيًا . واني أدعو بنجاح المؤتمر لتزداد مصر رقيًا فى عهد حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول مليكها المعظم ذى الأيادى البيضآء على كل المشروعات التى تمت فى عهد ملكه السعيد حفظه الله ذخراً للبلاد والعباد والسلام .

فذلكة عن الغناء العربى

للاستاذ محمود فؤاد الجبالى

السكرتير بمجلس النواب سابقا

صديق قسطندى افندى رزق

أتذكر فى ليلة السمر الحلو التى دعوتنى اليها فى منزلك اننا رجعنا بالحديث الشهي الى ذكريات الماضى الجميل ، وأخذنا ننشر من الثناء حالا على بعض رجال الغناء العربى الذين أضافوا الى شهرتهم فى الفن . شهرة تستحق الحمد فى المروءة ، والكرم ، ومؤاساة الفقير بالبذل والعطاء عند ما يعوزه التصمير وكان من أوائلهم ، بل كان جماع الفضائل ، ومصدر المحامد المرحوم عبده الحمولى ذلك الرجل الذى نهضت بذكره ، والاشادة بمحاسنه ، و بذلت جهداً ومالا عن طواعية لاحياء مآثره بعد أن كاد الزمن يعفى على آثاره خصوصاً فى هذا العصر الذى انبرى فيه طائفة من المولعين بما يسمونه التجديد فى الغناء فيعمدون الى مزج الغناء الشرقي بالغناء الغربى ثم يخرجون للناس نغمات لا تمت الى الشرق بصلة ، ولا الى الغرب بنسب ، و بذلك أضاعوا المقامات التى تعب السلف فى تركيبها ، وأتبعوا طرقاً فيها الكثير من العثرات . أتذكر ذلك يا صديق ؟ ثم تذكر انك تمنيت لو أن أحد رجال الفقه الاسلامى ممن بلغوا شأواً بعيداً فى الثقافة العربية كتب جملة صالحة فى الغناء العربى من الوجهة الدينية ، وسماع آلات العزف فى محافل السرور والفرح . وهل هى مما تحرمه الشريعة السمحة أم تحالم ؟



(الأستاذ محمود فؤاد الجبالى)

وطلبت إلىّ أن أتصل بأحد شيوخ العلم من أصدقائى الذين عبّد الله لهم سبل الفهم ، ووصلوا فى معرفة دقائق اللغة الى لبها ، فاكتسبوا شرفاً بغوصهم على المعانى الدقيقة التى تفيض بها صحائف

الكتاب الكريم والسنة ، وتعتز بها كتب التاريخ والسير ، فأقول لك اننى اتصلت بالكثير منهم فلم يجدوا فى وقتهم متسعاً لخوض هذا البحث لما تكتنفهم من ظروف ، وما يحيط بهم من ملابسات تستلزم العجلة فيما هم مقبلون عليه .

لهذا السبب رأيت أن أرجع على قلة بضاعتى الى كتب السير تحقيقاً لغرضك ، و إتماماً لبحثك ليخرج كتابك للناس فى المرحوم عبده الحمولى ، شاملا للكثير الممتع من الحقائق ، حاوياً لبعض النوادر التى وقعت للسلف الصالح فى الصدر الاول فى الغناء ، وسماع الآلات ، أيام كان الدين غضاً وكان رجاله يقيمون بقلوبهم بناءه ، و يبذلون الأرواح رخيصة لتشييد صرحه ، بل كانوا يخافون الله فى الشبهة . فاذا وقعت لأحدهم فى عمل جعلوا من الكتاب الكريم حكماً ، ومن السنة الصحيحة موئلا ، واعتصموا جميعاً بحبل الله فى أمره . ولم تصرفهم الحروب والغزوات عن أن يعلوا منار التشريع في الخطير والحقير من الأمور حذراً من أن يميل بين أيديهم اللواء المعقود ويبدد عقد الشمل المنضود . وانك يا صديقى ستقرأ فِقَراً مستملحة فى الغناء وسماع الآلات ، وهى و إن كانت لا تنقع غلة ولا ترد لهفة ، لضيق المناسبات التى وقعت فيها ، و إمساك النفوس عن التوسع فى بيانها إلا أنها من الوجهة الدينية تعد كفيلة لتحقيق الغرض الذى تصبو اليه وسأجتهد فى إيجاز القول ما استطعت إلى ذلك سبيلاً

أن بعض شيوخ الدين من السلف الصالح قد استدلوا على أباحة الغناء وسماع الآلات بأحاديث شريفة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل عليَّ ابو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك يوم عيد فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر أن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا

وروى عنها أيضاً رضى الله عنها أن ابا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام مِنىً تدففان وتضربان والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فأنها أيام عيد وتلك الأيام أيام مِنىً . وعنها أيضاً رضى الله عنها أنها قالت، كانت جارية من الأنصار فى حجرى فزففتها فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء فقال، يا عائشة ألا تبعثين معها من يغنى فان هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء

ومما رواه أبو الزبير بن مسلم المكي عن جابر قال :

زوجت عائشة رضى الله عنها ذات قرابة لها رجلاً من الأنصار فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أهديتم الفتاة ، قالوا نعم . قال أرسلتم معها – قال أبو طلحة راوى الحديث : ذهب عنى – فقالت لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ان الانصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معهامن يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

وروى عن فضالة بن عبيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أشد أذنًا الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة الى قينته)

أما عن سماع الآلات فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر سفراً فنذرت جارية من قريش لئن رده الله تعالى أن تضرب فى بيت عائشة بدف ، فلما رجع رسول الله صلى عليه وسلم جاءت الجارية ، فقالت عائشة لرسول الله صلى عليه وسلم فلانة إبنة فلان نذرت لئن ردك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بدف ، قال فلتضرب

أما ما ورد فى القصب والأوتار والمزامير فلا خلاف فى إباحة سماعها ، والدليل على ذلك أن ابراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مع جلالته وفقهه وثقته كان يفتي بحل ذلك ، وقد ضرب بالعود ، وكان الامام احمد بن حنبل لا يحدث حديثًا إلا بعد أن يغني على عود الى غير ذلك من الأدلة والشواهد العديدة التى يضيق المقام عن سردها . ولا بأس من أن نورد هنا جملة صالحة لابن خلدون فى هذا الموضوع وهو الحجة الثبت فى الاجتماعيات قال

« لما جاء الاسلام . واستولى رجاله على ممالك الدنيا ، وحازوا سلطان العجم ، وغلبوهم عليه ، وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم ، مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ ، وما ليس بنافع فى دين ولا معاش ، هجروا ذلك شيئًا ما ، ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة ، والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف ، وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم ، صاروا الى نضارة العيش ، ورقة الحاشية ، واستجلاء الفراغ ، وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا الى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعًا بالعيدان ، والطنابير ، والمعازف ، والمزامير . وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، فلحنوا عليها أشعارهم ، وظهر بالمدينة نشيط الفارسى ، وطويس ، وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه ، وأجادوا فيه ، وطار لهم ذكر ، ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريح وأنظاره ، وما زالت صناعة الغناء

تتدرج الى أن كملت أيام بنى العباس عنـد ابراهيم بن المهدي ، وابراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، وابنه حماد ، وكان من ذلك فى دولتهم فى بغداد الخ » . اه

وما زال فن الغناء يتنقل من عصر إلى عصر ، ومن دولة الى دولة ويعتريه الضعف والوهن تبعاً لضعف الزمن ووهنه ، والشهرة والذيوع ان اخصب ربعه ، واخضّل واديه ، تسمعه الخلفاء فى قصورهم ، وتهش له الأمراء فى دورهم الى أن وصل الى عهد أبى الاشبال المغفور له اسماعيل باشا وهنالك طلع فجره ، وبذغ هلاله ، وأنارت شمسـه ، وكمل أنسه بوجود المرحوم عبده الحمولى الذى ملك ناصية الفن فأخذ يعبّد طريقه ، ويحسن تنسيقه ، ويأخذ من عواطف الشعب المشهور بالرقة مادة لتلحين أدواره ، وإنشاد أشعاره ، ولم يكفه هذا بل عمـد الى نغمات الترك والفرس فصبها فى قوالب من صنع مصره ، وجعلها زينة لعصره فتراها تجمع بين بغداد فى حضارتها ، ونجد فى بداوتها ، والفرس فى غضارتها ، والترك فى منعتها وقوتها

فما لمصر وهي أمة عربية تصبو بغرائزها إلى سماع صوت الحُداة وهم يحدون ونحن فى أثر الظعن وهم مجدون ، ويخفق قلبها إن هبت من نجد صبا ، وتصفّق منهـا الضلوع ان لمع برق من بغداد أوخبا، وجرى الماء فى غياض الشام يسقى هام الربى، يراد بها أن تكون فى نغماتها غربية وهي ربيبة الشرق ، ورضيعة لبانه ولسان حالها يقول

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلبُ

ان امة هذه خصائصها ومميزاتها لن تنفع فيها إن شاء الله حيـلة المجددين فى الشعر والغناء وستسير القافلة وهم فى الطريق وأن مُلكاً على عرشه حضرة صاحب الجلالة الملك احمد فؤاد الأول إبن ناصر هذا الفن المغفور له اسماعيل باشا خليق بأن يغني بمحاسنه الدهر ، ويمرح تحت وارف ظله كل مبتكر ، وينشد فى واسع رحابه لكل أديب ، ويسير الى الامام بفضله كل مخترع : فلك الشكر الجزيل يا صديقي على ما بذلت من جهد ، وأديت من أمانة ، بوضعك الحق فى نصابه ، وارجاعك السيف الى قرابه ، واختتم مجالتى هذه ببيتين من قصيدة المرحوم شوقي بك في المرحوم عبده

يا مغيثًا بصوته فى الرزايا ومعينًا بمـاله فى المكاره

ومُجِلّ الفقـير بين ذويه ومعز اليتيم بين صغـاره

وسلام الله عليك من صديقك محمود الجبالي ؟

عبده الحمولى مع سليم سركيس

مما يدل أيضًا على عظمة أخلاق عبده الحمولى وما كان لهُ على الناس من جميل الأثر حادثة وقعت فى نيو بار ومنزل يوسف بك صديق فى سنة ١٨٩٧ عقب عودته من الاستانة أرويها تفكهةً لحضرات القرآء وعبرةً للمحترفين من بعده من حيث شريف المبادىء وحسن الحفاظ وذلك نقلاً عن مجلة سركيس عدد سنة ١٩٠٦ قال سليم سركيس أسمآء الأشخاص عبده الحمولى . سليم سركيس . باسيلي باشا تادرس . عثمان باشا رأفت . يوسف بك صديق . عطا بك .

كان المرحوم عبده الحمولى نديم الملوك وأمير المنشدين قد تلطف فجعلنى من خاصة أصدقائه كان يكرمني بمودته كل يوم فاذا عاتبه قوم على ميله هذا اليَّ على ما كان من حدَّتي فى جريدتى القديمة - يقول - أنا أحب سليم سركيس لا جريدته - وأعاشر الرجل لا سياسته واحبه لأنه أحبنى من أجل شخصي لا من أجل صوتي كما تفعلون أنتم فانكم لا يقع نظركم عليَّ حتى تطلبون منى صوتًا وسركيس ما كلفنى الغنآء مرة واحدة فى عامين

قد قضت سياسة جريدتي فى ذلك الحين أن أنشر مقالات استآء منهـا بعض امرآء العائلة الخديوية وسُرَّ منهـا قسم آخر من الأمرآء وكان وكيل أشغال الأمرآء الذين استآءوا من مقالاتي رجلاً اسمه عطا بك فلحقه شيء من حدة هذا القلم فى ذلك الحين فاضمر لي الشر

وحدث ذات يوم فى سنة ١٨٩٧ ان عبده الحمولى رحمه الله عداد حسناته - جآءني فى منزلي يقول – أنت أسيري طول هذا النهار فقضينا يومنا فى التنقل من مكان الى آخر على أتم ما يكون من المسرة والحبور حتى اذا كانت الساعة السابعـة مسآءً وجدت نفسي على رصيف (النيو بار) فأمر باحضار العشآء و بسطت أمامنا مائدة الشراب وعبده يحدثنى بما لذ وطاب وفيما نحن كذلك جآء صاحب (البار) يقول : ان قومًا يطلبون عبـده بالتليفون فمضى و بعد قليل عاد يهز رأسه فقلت ما الخبر ؟ . قال جماعة من إخواننا يتمتعون بضيافة يوسف بك و يطربهم محمد عثمان ، وقد بحثوا عنى كل نهارهم فلم يقفوا لي على أثر ثم أدركوني هنا الآن ، وهم يطلبون منى موافاتهم الى هناك .قلت : اذهب اليهم ، قال : ما أنا فاعل. قلت : انك تجتمع بي غداً إذ القوم في انتظارك ؟ قال لااستبدل مقامى معك وهو مقام الصديق بمقامي بينهم وهو مقـام المغنى – ثم عدنا الى حديثنا و إذا بزنجي في عربة قد جآء برسالة من يوسف بك صديق أن القوم ينتظرون عبده فصرف الزنجي معتـذراً .

وما مضت نصف ساعة حتى أقبل علينا عثمان باشا رأفت الفريق وسعادة باسيلى باشا تادرس وكان يومئذ (باسيلى بك) القاضي فرحب عبده بهما . و بعد ان جلسا أوعز أحدهما الى الخادم أن يرد الطعام وطلبا من عبده أن يذهب معهما الى منزل يوسف بك صديق لأن القوم ينتظرونه - فاعتذر اليهما قائلاً انني منذ الصباح مع صديقي سركيس وهذا اليوم خاص بنا ، فلما وجدا أنه مصرّ على البقاء معي عرضا عليه أن يحملاني على الذهاب معهما . فقال: اذا رضي سركيس بالذهاب فانا راضٍ فتحولا إليّ يدعوانني إلى منزل صديقيهما ، فاعتذرت قائلاً لا أعرف أكثر الذين هناك - وقلت لعبده أرجوك أن تذهب معهما ، وأنا أمضي فى شأني ، فأقسم أن لا يفعل - عند ذلك قال لي عثمان باشا أن صاحب المنزل مشترك فى جريدتك . وفضلاً عن ذلك ، فلا يليق أن ترفض دعوتنا وأنت لا تحتاج الى أعظم من رجل فى رتبة فريق وآخر قاض في الاستئناف يدعوانك فهي دعوة كاملة جديرة باهتمامك ولك منا أن تكون فى المركز الاسمى من الاكرام هناك فضلاً عن ذلك فأنت في إصرارك على عدم الذهاب تكدر جمهوراً كبيراً لأنك تحرمهم من صديقهم عبده الحمولى . فلما رأيت أن إصراري ليس من الحكمة ، أجبت دعوتهم فركب الحمولي وتادرس باشا عربة وسرت فى العربة الثانية مع عثمان باشا حتى وصلنا الى منزل المضيف واذا به غاص بالوجهاء والأعيان فلما وصلنا احتفلوا بعبده احتفالاً عظيما وتنحى محمد عثمان عن مجلسه له - أما عبده فأراد أن لا أشعر بوحشة فأجلسني بجانبه و بعد قليل دعاني صاحب المنزل الى غرفة « البوفيه » لأتمتع بما كانوا قد سبقوني اليه من دلائل كرمه وسخائه وأظهر لي لطفاً كثيراً أذهب وحشتي ثم عدت وجلست بجانب عبده حتى إذا بدأ يجس عوده استعداداً للغناء شعرت بوجود اضطراب فى القاعة وفى إحدى زواياها جماعة يتكلمون و ينظرون الى ناحيتنا . و بعد قليل جاء باسيلي باشا تادرس الى عبده يقول: لي كلمة أقولها اليك فى الخارج فسِرْ معي . فخرج عبده وقد همَّ أن يأخذني معه فقال تادرس باشا « ان حديثى معك خاص بك فاتبعنى وحدك وما غاب عبده الا مدة قصيرة حتى عاد وعلى وجهه لوائح الغضب فجاس في مجلسه وأدناني منه وطاب شراباً لكلينا وأخذ يغني و يطرب حتى أدهش من حضر ولبثنا كذلك حتى شابت ناصية الليل فانصرفنا وأردت أن أوصله الى محطة حلوان وأبى إلا أن يوصلني الى بيتي وكنت أحاول مراراً أن أفهم منه سبب غضبه وهو يأبى الايضاح حتى اذا كان اليوم الثاني علمت ما يأتي: لما دخلت معه إلى المنزل ورأى الناس احتفاله بي كان بين الموجودين (عطا بك) الذى تقدم القول أنه كان متكدراً من بعض كتاباتى فى قضية الامراء فسأل : مَن

الرجل ؟ قيل له هو سركيس - فأرعد وأزبد وانصرف الى الخارج وكاف باسيلى باشا أن يدعو عبده اليه فلما تقابلا جرى بينهما الحديث الآتي

قال عطا بك - من هذا الذى جآء معك ؟ - قال عبده - هذا سليم افندى سركيس - قال عطا بك ، أما هو صاحب الجريدة - قال نعم - قال أنت تعلم يا عبده انى اكرهه فلا تلمنى اذا أسأت اليه . فنظر اليه عبده شذراً وقال - ان سليم سركيس ضيف لصاحب هذا البيت الكريم ، ولولا لطفه ما تمتعتم بحضوري ولولا أن ذهب الى دعوته رجل فى رتبة فريق وقاض فى الاستئناف ما جاءكم ، فاعلم يا عطا بك اذا أسأت اليه بكلمة أسأت اليك بعشرين ، فهو صديقى وضيفي والضيف من عند الله - قال عطا بك - اذاً واحد منا ينصرف الليله من هنا - قال عبده تنصرف أنت اذاً - قال عطا بك اختر بيننا - قال عبده قد اخترت سركيس فانصرف اذا شئت . وهكذا انصرف عطا بك ، وعاد عبده الى مجلسه كما ذكرنا فرحم الله تلك الروح الذكية والعواطف الشريفة

المؤلف - ولا يفوتنى قبل مسح القلم عن هذا الحادث الواقعي الغريب الا أن أقول كلمتى الآتية تعليقًا عليه

حق القول على الحمولي مخالفة ابن خلدون فيما قاله فى مقدمتـه عن الملكة « أن من حصلت له ملكة فى صناعة قل أن يجيد بعد في ملكة أخرى » لما أن عبقرية الحمولي كانت متنوعة النواحي متشعبة الأطراف ان الله سبحانه وتعالى يقيم العباد فيما أراد ، ومن كان الله فى عونه تيسرت عليه المذاهب ونجحت له المطالب ذلك أنه كان منشداً ومطربًا وكاتبًا وأنيسًا وزعيماً وقدوة تحتـذى فى الأخلاق وكان ينبوع الرحمـة للفقرآء والمثل الاعلى فى الوفآء بالعهد وسـفير صدق يصلح بين قومه ويؤلف قلوب الحاقدين ويعد مع عبقريتـه المركبة من أكثر الناس تجافيًا عن مقاعد الكبر لأن العبقرية من مزاياها التواضع وعدم الميـل الى الدعاية والشعور بعدم أهمية العبقرى لنفسه وجهله ما احتوت عليه عبقريته من كنوز ثمينة خالدة واذا اعتبرنا أن عبقريته خصيبة منتجة كما تقدم وجب أن ننعم النظر فى عظمتهـا وصمتها وعدم ثرثرتها وكفى بعبقريته لحنًا واحداً أو موالاً واحداً نتبين منه جمال فنه وجمال خلقه ونوع نبوغه الذى يبنى عليه الحكم ويقام له الحسـاب ذهابًا إلى ما نطقت به شواهد الحال وأيده أحد علماء الانكليزفقال ان العبرة بالنوع لا بالكمية "It is quality that counts"

وبناء عليه فان ما يوجد من العبقرية في عبـارة واحدة أو في ألفاظ منفردة مؤثرة يتجاوز في الغالب ما قد يوجد منهـا في أضخم مجلد لما أن العبقرية لهب يتوقد لوقته على حد ما رُوي عن

ڤرجيل أنه بكلمات مؤثرة قليـلة استطاع أن يسبر غور الجمال والحزن ويخبر سر الشرف في الحياة والأمل فى الموت كما أن شكسبير تمثل لحس القارىء عظمته ويشعر بلا مرآء بخلود مصنفاته ودواوينه بمجرد اطلاعه على رواية واحدة من الأربع والثـلاثين رواية التى قام بتأليفها ويستنتج من تحليل حياة عبده النفسية ان مامن عمل من أعماله إلا يدل على إيحاء وعبقرية وعظمة ويعد ناموساً للاجتماع ومثلاً أعلى يعمل بمقتضاه أبناء النيـل ومأثرة ينقلها السلف الى الخلف على مر الايام وكرور الاعوام والحق يقال أنه كتب اسمه بأحرف من ذهب ليس على رخام ضريحه فحسب بل على قلوب أبناء مصر عموماً والمحترفين والهاوين والمعجبين خصوصاً وسيظل ذكره خالداً ويطيب نشره في المحافل مدى الدهور

شهادة ابراهيم بك المويلحى الكاتب القدير

فى مصباح الشرق بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩٠١

بعنوان « خلقة كامل »

إذا بحث الباحث فى أطوار الناس وأخلاق الخلق تعين عليـه أن يجردهم من طيالس المراتب والمناصب ومظاهر الثروة والجاه ثم يُلغي في نظره ما بينهم من تفاوت الطبقات واختلاف الدرجات التى وضعها الناس لأنفسهم بأنفسهم ثم ينظر وهم على تلك الحالة المجردة إلى ما وضعـه الله فيهم من المواهب والمزايا وأسباب التفاضل بينهم وما هـذه الدنيا فى نظر الحكيم إلا ملعب وما الناس فى مراتبهم ودرجاتهم إلا كالمشخصين فيه يتزيون بالأزياء المختلفـة هذا ملك وهذا وزير وهذا قائد وهذا أمير فاذا أراد الباحث أن يعرف حقيقة اقتدارهم وقيمتهم فى ذاتهم نظر اليهم من وراء الملعب مجردين عن تلك الألبسة الفاخرة فى الحالة التى كانوا عليها قبـل تشخيص أدوارهم وهنالك يرى الباحث فى طبائع الناس وأخلاقهم أنهم مختلفون بينهم ومتفاوتون فى سلسلة الترقى والكمال تفاوت الصوان من الياقوت فى الاحجار والسيالة من البنفسج فى النبات والفهد من القرد فى الحيوان - ومن الناس من تميزهم الطبيعة بكمال الخلقة وترتقى به فى كمال التصوير فينشأ فيها من حسن الانتساق ولطف التركيب ما تتجلى في عالم الاحسان والاتقان والتصوير فيصدر عنه من بدائع الأعمـال ومحاسن الأفعال ما تطرب له النفوس وتشجي به القلوب . فان نشأ فى طبقة الشعراء كان كالمعريّ مثلاً وان

نشأ فى طبقة الحكماء كان كابن سينا وان نشأ فى طبقة الجند كان كطارق بن زياد وان نشأ فى طبقة المغنين كان كاسحاق أو كهذا الفقيد الذى فقدناه بالأمس . وهب الله المرحوم عبده الحمولي سجية الاحسان ومزية الاتقان فكان وحيد عصره وفريد دهره فى صناعة مارسها بين الناس أكثر من أربعين عاماً لم يضارعه فيها مضارع ولم يلحق به لاحق وانحصر فيه الغناء فى مصر طول هذه المدة فصار الكل له مقلدين يأخذون عنه ولا يبلغون شأوه ولا يتعلقون بغباره ولا غرو فانه هو الذى أخرج فن الموسيقى من سقوطه وتأخره إلى ارتفاعه وتقدمه ولم يقتصر على طريقته التى وجده عليها بل أخذ فيه بأسباب الاختراع والابتداع والتحسين والتهذيب وأنشأ له طريقة جديدة بحسن اجتهاده ورقة ذوقه

وجاء فى مصباح الشرق بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٩٠١ ما يأتي

« من الناس من يهبه الله سجية الاحسان ومزية الاتقان فينصرف اتقانه واحسانه إلى الفن أو الصناعة التى اختارها لنفسه فيحسنها ويتقنها ويتحول بكليته اليها ويغفل فى نفسه ما عداها من مغارس المحاسن ومنابت الفضائل ومكامن المكارم فيعيش غفلاً منها وإن كان نابهاً فى صناعته فيلقى الناس منه ما يسوء من أخلاقه بقدر ما أحسن من صناعته يرضيك حسنه من باب ويخطك قبحهُ من عدة أبواب فترى الشاعر يرتقي فى عالم شعره فيسبق فيه من يباريه ويعلو قدره على سواه فاذا عطفت نظارك الى أخلاقه وجدته أحط الناس فيها درجة وأدناهم منزلة وأردأهم سيرة فى المخالطة وأسوأهم معاملة فى المعاشرة وتجد هذا الذى لم يكتف بعلم الحقيقة فى الجمال حتى تجاوزه الى عالم الخيال أبعد الناس عن جميل الفعال وكريم الخصال وترى المصوّر الذى يباري محاسن الطبيعة بحسن المحاكاة فى جمال النظام ولطف الانسجام يكون فيما عدا ذلك أخرق احمق شرس الطباع سافل الأخلاق وترى العالم يصعد بعلم الى عالم الفضائل والحقائق ثم ترزل أخلاقه بالغلظة والجفاء وتسوء بالتيه والضلال وتراهم جميعاً قد ارتكنوا فى طبقاتهم على فضلهم فى صناعاتهم وفنونهم وأهملوا بقية الفضائل وبعدوا بنفوسهم عن جمال التهذيب وحسن التثقيف فأن تحمل الناس منهم سوء الأخلاق ظاهراً للمزية التى انفردوا بها فانهم لا يتحملونها باطناً يرضونهم بالوجوه ويبغضونهم فى القلوب أما اذا التفت المتقن لفتة المحسن فى صناعته الى تهذيب بقية أخلاقه وصفاته والى تحسينها وصرف الى ذلك بعض همّه بما أوتيه من سجيّة الاتقان ومزية الاحسان وارتقى إلى فضائل الأخلاق ارتقاءه فى فنه

أو صناعته فأنه يرضى الناس ظاهراً و باطناً وتبلغ مزاياه من قلوبهم المحل الأعلى فتنطوي على محبته وتجتمع على تفضيله في حياته و بعد مماته .

وقال فى موضع آخر

« ولما سافر المرحوم في سنة ١٨٩٦ إلى الاستانة العلية وحظى هناك بالمثول فيالحضور الشاهاني مراراً وأعجب أمير المؤمنين بمهارته في فنه وحسن تأديته له أسنى عطيته و بلّغهُ حسن رضائه وكان الواسطة بينهما للتبليغ في ذلك المجلس سماحة السيد أبي الهدى ومما تلقاهُ عنهُ من أوامر أمير المؤمنين أن يلقّن ما غنّاهُ في حضرته من الأصوات لبعض ضباط الموسيقى الشاهانية فلقن المرحوم منه ما امكنه ولم يسع الوقت تمام القيام بالأمر ووعد أنه سيشتغل عنـد عودته إلى مصر بربط تلك الأصوات برابطة « النوطة » ثم يعرضها على الأعتاب ليسهل أخذها على ضباط الموسيقى وأهمل المرحوم مدة وجوده في الاستانة التردد على سماحة السيد واجتمع ببعض المتزاحمين معـه على الأعتاب الشاهانية ورغب كل واحد منهم أن يكون له الحظوة بتقديم تلك الأغاني والأصوات عند عودة المرحوم الى مصر وارسالها الي الاستانة فاما عاد اتمها عشرين صوتًا (دوراً) مربوطة بالنوطة ثم تردّد في كيفية إرسالها وخشي أن يغضب أحدهم باختيار سواه عليه في تقديمها فامتنع عن إرسالها لهم جميعًا وأرسلها من طريق رسمي فاسرّها له السيد في نفسه ولما ذهب إلى الاستانة وقابل من قابل مزوداً بالآمال لم يشعر هناك وهو في مجلس أنس لبعض كبار المصريين من أصدقائه فى جهة البوغاز الاّ وقد أحاط به رجال الشرطة فسارَ معهم وصاروا ينقلون هذا الذى لم ينتقل في عمره من مجلس أنس الاّ إلى مجلس سرور طول ليلتـه من مخفر إلى مخفر ومن سجن الى سجن حتى وصلوا به الى مأمور الضابطة فأمره بالخروج في الحال من دار الخلافة وعلم المرحوم مما سمعه من بعض الأعوان الحلبيين من ذكر السيد ووجوب السعي فى دوام رضائه أن الأمر مقصود لمجازاته على اهماله أمر سماحته فلم يلتفت الى غير المبادرة الى اجابة الأمر بالرحيل عن الاستانة فأثّرتْ فيهِ هذه الحالة وعاد الىمصر مصابًا بدآء البول السكري فانهك قواهُ »

وقال أيضًا وكان شهمًا غيوراً شريف السيرة يغار لنفسـه ولأعراض الناس لا يبالي في ذلك بهول الموقف وفداحة الخطوب . كان كتومًا للسر مؤاسيًا لعائلته طلق الوجه طليق اللسان يصيب غرضه بحسن بيانه حتى لقد قيل عنه أنه لوكان سفيراً لدولة من الدول لما تعقد عليه أمر في السياسة فكان خفيف الروح متوقد الذهن مات والناس إجماع على تفضله والقلوب مرتبطة بمحبته

فاذهب كما ذهبت عوادي مزنة اثني عليها السهل والأوعار

فما روضة غنآء كأنها غادة حسنآء قد افتتن فى تصويرها الجمال وجعلها للناظرين كالمثال فالغصن قدها والورد خدها والرمان نهدها وعليل النسيم عهدها والكرم شعرها والاقاح ثغرها انتبهت فيها غافية حمام فوق نمارق الأغصان والأكمام آخر الليل وقد عسعس وأول الصبح وقدتنفس فلما رفعت طرفها وجدت بجانبها إلفها بعد أن نأى عنها مكانًا وفارقها زمانًا فزال عنهما ألم الشوق والتف الطوق بالطوق وهتف منشدان فوق خرير المآء قصيدة على روي الرآء أودعاها ما أرادا من معانى العشاق في وصف صلة الوصل بعد الفراق ومن حولهما بقية الأطيار ترجع انشادهما ترجيع الأوتار تهتز على كل غصن مائس كأنها القيان تزف العرائس بأطرب من صوتك فى الآذان وألذ من ذكرك بين القلب واللسان وما أحرى من سكان الأشجار وذوات الأوكار غادرت أفراخها من وكرها فى ليلة موصوفة ببردها وحرها تلتمس لهن شيئًا من القوت وقد عزّ كالياقوت فوقعت من الأمطار فى شبكة منعتها عن السعي والحركة إلى أن غادرتها العهاد وأمكن لها الارشاد فعثرت لهن على نزر من الحب ودت لو زيد فيه حبة القلب فراحت اليهن ولا الظافر بتاج الملك ولا الناجي مع نوح فى الفلك فوجدت السيل قد أتى على الشجرة فاقتلعها وعلى الأفراخ فابتلعها وبينا هي بين تصعيد وتصويب وحنين ونحيب اذ انقض عليها صقر أنشب في طوقها أظفاره وغمس في جوفها منقاره فاجتمعت عليها صنوف الآلام آلام الأرواح وآلام الأجسام بأوجع فى قلوب رفاقك من يوم فراقك

ارآء اعضاء المؤتمر الموسيقى المنعقد سنة ١٩٣٢

فى الموسيقى العربية

قال جناب البارون كارا دى فو فى خطابه فى حفلة اختتام المؤتمر ما ترجمته نقلاً عن كتاب مؤتمر الموسيقى العربية لوزارة المعارف العمومية « ان الموسيقى الشرقية علم عظيم وليست موضوعًا يمكن استيعاب البحث فيه فى يوم أو في ثلاثة أسابيع ويشعر الانسان بهذا التأثير إذا القى نظرة على فهارس الكتب الموسيقية القديمة

إننا لم نواجه مبحثًا أكثر أهمية وأعظم شأنًا من مسئلة تأثير الموسيقى الشرقيــة فى الموسيقى الغربية فى القرون الوسطى

ان جميع مجموعات الآلات الموسيقية لعمل شاق يستلزم السنين الطويلة - وقد بدأت مصر - ولله الحمد - الخطوات الأولى منه وأشارت لجنة الآلات بالارشادات والمعلومات اللازمة لذلك

هذا ما يخص المسائل الواسعــة المدى . أما المسائل الدقيقة بل الشائكة - ان أردت - فأهمها اثنتان : تتابع المقامات وامكان الامتناع بأرباع الأصوات بالتقريب . وهنا لا يكفى العلم وحده بل تدخل عناصر فنية و بسيكولوجية .

غير أننا نستطيع أن نبــذل المعونة للموسيقيين الشرقيين ليجتنبوا المناقشات غير المنظمة بما نبث في نفوسهم من طريق البحث والتحليل على النمط الأوربي واني أذكر مثالاً لذلك الصوت المعروف بالسيكاه الذى أثار مناقشــات حادة وهو الصوت الثالث من ديوان المقــام و يظهر أن الموسيقيين الشرقيين يريدون أن يثبتوا سيكاه وحيــدة مطلقة أو مثلاً أعلى للسيكاه ، وقد قال لهم العلمــآء الغربيون حللوا وميزوا لأن سيكاكم يمكن تغييرها مع المقامات حتى ان المقامات نفسها تختلف باختلاف البلدان ولقد وجدنا بعد التجارب أن مقام الراست والسيكاه على حسب العزف عند كبار المغنــين مرتفعين قليلاً فى سوريا عن مثيلهما في مصر وهما في تركيا أكثر ارتفاعًا منهما فى سوريا وعلى العموم قد تحققنا أن فى مصر استعداداً فطريًا لدى المغنين والعازفين للاقتراب من الصواب » اه

وقد جآء فى خطبة حضرة السيد حسن حسنى عبد الوهاب ما يأتي

« وأكبر مزية سيخلدها لك تاريخ الفنون الجميله الى دهر الداهرين القرار الاجماعي الصادر من أعلى منبر فى هذا المؤتمر بحماية الالحان العربية من العجم تلك التى كادت تبتلعها وتقضى عليهــا القضاء الأخير وما حماية الالحان الا حفاظ لروح القوم الخالدة . وفيك يامصر يرجى الحفاظ وها نحن أولاء من خلف أعوان وأنصار

وقبل أن نختتم هــذه الـكلمة نرى من واجب الضيافة الـكريمة التى حبينا بها فى وادى النيل من جلالة الملك المعظم وحكومته وشعبه أن نرفع لهم جزيل الامتنان ووافر الثناء على مالاقينــاه من الحفاوة والاكرام . وكذا للنتائج الغالية التى سنعود بها الى أقطارنا رافعي الرؤوس ونفوسنا ممتلئة اعجابًا بأننا أعدنا الى الشرق - على يد مصر - ميزته الفنية وألحانه الشجية وتراثه القديم

فدومي يا مصر لنهضة الشرق وذويه رافلة فى مطارف العز والبهاء للحضارة والجمال والخلود » آه

وقال جناب الدكتور هنرى فارمر

واسمحوا لى أن أقول كلمة فى الختام . لما كنت قد وقفت حياتى على خدمة الموسيقى العربية أعنى القديمة منها فأن هذا المؤتمر كان سبب مسرة خاصة لى إذ قد جعل الأماجد من رجال الثقافة العربية فى العصور الغابرة يحيون مرة أخرى و إن سماع الموسيقى الرائعة التى وضعها أسلافنا الموسيقيون الذين قضيت سنين عدة فى الكتابة عنهم أدخل على قلبى سروراً عظيما وانى بالرغم من صعوبات كثيرة أشعر عن يقين أن هـذا المؤتمر سينتج ثماراً دانية القطوف . نعم لقد كان هناك تضارب في الارآء ولكننا نستطيع مع شيء من الصبر والتسامح أن نجد طريقاً أميناً للمستقبل .

وهناك أمر واحد لا ريب فيه وهو أن الموسيقى العربية لا تستطيع أن تقف جامدة ، فالمدنية العصرية مع تياراتها الجارفة التي لا تعوقها العقبات ستدفع الموسيقى العربيـة الى التقدم إلى الأمام وعلينا متى ظهرت بوادر هذا التقدم أن نحـرص على أن تسلك طريقاً يحفظ روحها الوطنية وطابعها لأن فقدانها ذلك الميراث المجيد يعد كارثة عظيمة

وعلينا أن نمنع وقوع هـذا ويجب أن تعني مصر بالمحافظة على ذلك المجد . فهي التي أنبتت الحسـين بن علي المغربي والمسبحي في القرن الخامس بعد الهجرة وقد وضع كل من هذين المؤلفين كتباً على طراز كتاب الأغاني العظيم لمؤلفه أبي الفرج . ومصر هي التي أهدت الى العالم الاسلامي الفلكي الشهير ابن يونس الذى وضع أيضاً كتاباً خاصاً فى تمجيـد العود بعنوان « العقود والسعود » ومن أرض النيل المبارك خرج ابن الهيثم الذى وضع الشروح الوافيـة والنقد الصحيح لنظريات إقليدس الموسيقية . وفي هذه البلاد عاش أيضاً أبو الصلت أمية . وقد كانت رسالته فى الموسيقى على جانب من الخطورة إذ ورد ذكرها واستشهد بها فى الكتب العبرية . وقد كان البياسي المعدود من أخصاء الفاتح العظيم صـلاح الدين موسيقياً بلغ شيئاً من الاجادة ، وعلم الدين قيصر الذى كان من أبناء مصر كان أشهر أهـل عصره في نظرياته الموسيقية . ثم ابن الطحان وهو مصري آخر وضع مؤلفاً في الموسيقى ربما كان أهم ما وضع من نوعه لأنه يبحث فيه في تاريخ الموسيقى ونظرياتها جنباً الى جنب وجميع هؤلاء عاشوا قبل القرن السابع للهجرة .

واليوم وذكريات الأسابيع الثلاثة الماضية لا تزال ماثلة بجمالها أمام أعيننا نشعر أن مصر ستتخذ مرة أخرى مركزاً سامياً ممتازاً في طليعة البلدان فى عالم الفنون الاسلامية . فترسم الطريق فى هذا الفن الشريف المجيد لغيرها من البلدان العربية وتنقش اسمها على تاريخ الموسيقى فى الأقطار الشرقية » اهـ

وقال جناب الاستاذ جوستو زامبيري

ان التبادل المستمر فى الشعور والأفكار بين الأمم القريبة والنائية قد حصل فى غالب الأحيان بواسطة الفنون لأن الفن له مزية قائمة بنفسها وجدت بوجود الانسان وجعل لها الأقدمون صبغة روحية فقد قال القديس أوجستان « ان الفن موطنه الروح فلا ينفصل عنها » وقد اهتم علماء إيطاليا بفنون الشعوب كلها لأن إيطاليا الحديثه الناهضة تعلمت كيف تفكر للوصول الى مطالبها العالية وتمهيد السبل لمثالها في باقي الشعوب . والفن الشرقى له صبغة شخصية في غاية الطلاوة . ففي الفنون الحسية نرى الخطوط والدوائر مرسومة على ألوف من الأشكال البديعة التي أحدثت في الغرب تأثيراً فنيًا مهمًا ولما اكتست هذه الفنون بالأنغام الشرقية التي تمكنت من استعمال أدق الأبعاد التي بين صوت وآخر وأتقنتها ولدت فى الغرب حاسة الخيال المبدع

وقد كان فى إيطاليا فى العصور الوسطى نزعة قائمة على نقض الأنغام الكروماطيقية والهارمونية والاقتصار على الدياطونيقية ولكنا نشاهد فى العصور الحديثة حركة يقصد بها العود الى الأنغام المهملة فاتجهت لذلك الأفكار الى الشرق ، لأن الروح الموسيقية التي تكتنف الأرض وتصل الشعوب بعضها ببعض قادت الأفكار فى هذه المرة أيضًا الى المسلك القديم الذى سلكه الفن وهو الاتجاه دائمًا من الشرق الى الغرب

يا أيها العرب الأماجد ان معرفتكم لتاريخ هذا الفن وعلومه التى لم تزل غامضة علينا بعض الغموض سيكون لها فى هذا المؤتمر شأن عظيم فان نهضتكم الموسيقية وأعمال سلفكم ومؤلفات علمائكم كشرف الدين هارون وغيره مما لم ينشر فوائدها بعد سيكون لها عظيم من البحث والتنقيب فى هذا المؤتمر الذى دعوتم اليه علماء أوروبا . ومن البديهي أن انتشار العلوم يساعد على المحافظة على الفنون . وقد ذكر ذلك القديس السالف الذكر « ان العلم المجرد عن الفن انما هو معرفة سطحية » لذلك أرى أن رقي الفن الذى هو ضالتكم المنشودة سيكون ضالة المؤتمر أيضًا » اه

وقال الأستاذ الدكتور كورت زاكس فى حضرة جلالة الملك فى الحفلة التى أقيمت بدار الاوبرا الملكية نائبًا عن أعضاء المؤتمر ، فهذه البلاد التى نشأت قبل بلاد الغرب تريد الآن أن تقاسمها الحياة وأن تتبوأ بينها المكان اللائق بها فهي الأم التي تجدد صباها وأصبحت تعد نفسها أختًا لبناتها . وهاك شعار المؤتمر والروح التى تتجلى فيه عن مصر. ان هذه البلاد التى نعجب بجدها ونشاطها ترغب فى ترقية موسيقاها وتجديدها . وهي التي غذت منذ الف عام الموسيقى الأوربية .وقد

تفضلتم جلالتكم فدعوتمونا وأدركتم مع منظمي المؤتمر أن هناك صعوبات جمة تقف في سبيل إصلاح الموسيقى العربية . لكنكم ذللتم هـذه الصعوبات وتحملتم أعباءها لأن الغرض هو توسيع نطاق فن الموسيقى العربية دون التورط فى تقليد أوربا تقليداً أعمى . فعلينا أن نسعى فى هدوء الى الرقي الذي ننشده لأن الطفرة بعـد انقضآء الف عام كثيرة الضرر كما يجب علينا أن نضع أسلوبًا جديداً دون أن نهمل شيئًا من التراث النفيس الذى خلفته لمصر هذه الأجيال الكثيرة

وقال حضرة الأب كولانجيت ضمن الكلمة التى ألقاها فى حضرة صاحب الجلالة . عند تشرف رؤساء اللجان ومندوبي الدول في مؤتمر الموسيقى العربية بمقابلة جلالته يوم ٣١ مارس ١٩٣٢

« ان للسعادة مظاهر تنم عنها ، والموسيقى واحدة منها ، لا يجوز إسقاطها ، فان الشعب الذى يغنى لهو شعب سعيد ، وفى عرفنا أن الترقية والتجديد لا يستلزمان حتما هدم القديم ، بل نحن نعد جرمًا كل مساس بهيكل الموسيقى العربية القديم ونريد هذ الفن الجميل الذى ازدهرت به عصور الخلفآء الأقدمين وتناقله الخلف عن السلف بعناية حتى وصل الينا نريد أن يحتفظ بصبغته التقليدية وأن يبقى فنًا عربيًا حقًا » اه

وإني أقتطف من خطبة صاحب المعالى وزير المعارف ورئيس المؤتمر فى حفـلة الاختتام ما يأتى حرفيًا

« وإن اجتماع هذا المؤتمر وما ضم من العلمآء ومن مختلف البلدان الغربية والشرقية المطلعين على أسرار فن الموسيقى العربية المحبين له واجتماعهم فى صعيد واحد بالقاهرة عاصمة مصر لما يقدم لنا برهانًا جديداً على أن التعاون الفكرى بين جميع الأمم وفى جميع نواحي النشاط العقلى من علم وفن وصناعة يؤدي إلى أحسن الثمرات . والحكومة المصرية تلحظ بعـين السرور أن علمآء الغرب في معاونتهم للشرق انما يعاونونه لينهض فى حدود مدنيته ويرقى إلى أسمى الدرجات فى دائرة تقاليـده بغير أن يعتور مميزاته الخاصة تغيير أو يلحقها فساد .

ويسرنا أن ذلك رأي أعضآء هذا المؤتمر فقد أرادوا بفن الموسيقى العربية أن ينهض وينشط فى دائرة الاحتفاظ بطابعه ومميزاته الخاصة وقال أيضًا ما يأتي

« ولقد حوى تقرير لجنـة التعليم بيان القواعد الأساسية لتعليم الموسيقى العربية ودراستهـا والآلات الواجب استعمالها والوسائل المؤدية الى ذلك من حيث التدريس والمؤلفات . وعنيت بصفة

خاصة بحث المؤلفات الموسيقية التى وضعها الشبّان المؤلفون المصريون ، ونصحت لهم أن يتجنبوا الطريق الذى سلكوه لتكون الموسيقى عربية خالصة من ألوان الموسيقى الغربية .

وقدمت لجنة التاريخ الموسيقي والمخطوطات بيانًا وافيًا للمخطوطات العربيـــة الهامة التي تجب العناية بدراستها والرجوع اليها لمعرفة تاريخ الموسيقىالعربية وأصولها وتحقيق الغاية التي ينشدها المؤتمر باحياء مجد الموسيقى العربية كما بينت فيه ما ترجم وما نشر من تلك المخطوطات

أما لجنة المسائل العامة فقد عُنيت ببيان الوسائل المؤدية لترقية الموسيقى العربية والوصول بها الى الدرجة المبتغاة لها من رفعة الشأن مع الاحتفاظ بطابعها ومميزاتها

شعور المغفور له سعد زغلول باشا

نحو فقيد الفن (الحمولى)

دعي عبده فى المدة المتراوحة بين سنتي ١٨٩٥ - ١٨٩٩ للغناء فى أسيوط بدار الدكتور حبيب بك خياط احتفاء بزواجه بابنة الوجيه المرحوم ويصا بقطر فاعتذر عن قبول الدعوة لارتباطه بأحياء حفلة زفاف ربة الصون والعفاف كريمة المرحوم مصطفى باشا فهمي رئيس مجلس الوزراء الأسبق (صاحبة العصمة صفية هانم) إلى سعد بك زغلول (آنئذ) فغنى دور « أنا من هجرك أحكى خصرك . ولي أنت الآمر الناهي وكأنه بايحائه تنبأ بزعامة سعد زغلول للأمة المصرية الكريمة كما أنه غنى دوراً آخر نظم اسماعيل باشا صبرى وكيل الداخلية وقتئذ : عشنا وشفنا سنين ومن عاش يشوف العجب غيرنا تملّك وَصال (بواو العطف) واحنا نصيبنا خيال فين العدل (كررها ثلاثًا) يا منصفين بلهجة الغضب مصوراً بنغماته الحماسة وشعور الأمة الوطنى مما كان يحيط بالبلاد من ظروف وانفعالات ذوداً عن حوزة الوطن العزيز على أنه لا يعزب عن البال من طريق الاستنتاج أن نغمات المطرب كالشاعر والمصوّر أصدق دلالة على ما فى نفســه من عوامل ونزعات وتحفز ففى هذه النغمات الأخيرة الفينا عبده شجاعًا أبيًا ووطنيًا حراً ومصريًا حمياً خلافًا لما نجد فى نغمات المجددين

من خلاعة وتهتك ليس عليها مسحة القومية ولاهمّ لهم إلا الكسب والجشع في عصر استنوق فيه جمله وأصبح ونساؤه رجاله يشتريهم بأثمانه بدل من يسيطرن عليهم وينفردن بالأمر والنهي

ولما مات عبده ذهب المرحوم سعد بك إلى دار الفقيد بالعباسية وأراد أن يقابل احسانه السابق بمعروف لاحق يسديه الى عائلته رأفة بحالها بعد فقده فاقترح تلميحاً على زوجته السيدة جولنارهانم أن يجمع لها بطريق الاكتتاب مالاً يساعدها على تربية أولادها فأعرضت عن النزول على مقترحه شاكرة وقالت له « أن عبده مات غنياً كما عاش غنياً وترك لنا ثروة أدبية وفنية خالدة في السماء لا يأكلها السوس ولا تمتد اليها يد سارق فنعم الزوجة التي آثرت أن ترضى غيرة على سمعتها بميسور ما تركه لها على أن تضرب عليها الذلة وأكرم بعبده بعلاً حمي الأنف قد بثّ فيها طيلة حياته اباءً وشرفاً وعزة نفس . وشكراً لك أيها الزعيم الكريم على ما قمت به من ثواب وأظهرته من كريم الشمائل ورقة العواطف ووثيق العهد نحو من أنسته المروءة نفسه وكرّس للخير حياته التي عدّها ملكاً مشاعاً بين قومه وأهلك نفسه ليحفظ غيره قدّس الله روحيكما وأسكنكما فسيح الجنان

(المغفور له سعد زغلول باشا)

تراجم حياة اشهر الموسيقيين والمطربين فى مصر

المرحوم احمد الليثى « العواد »

ولد المرحوم الليثى فى الاسكندرية سنة ١٨١٦ ومات سنة ١٩١٣ . وكان والده « قانونجيا » شهيراً و بعثه الى أحد الوزانين « القبانية » ليتعلم بدكانه القراءة والكتابة . ولما وجد الأخير أن تلميذه ليس بقارىء ولا بكاتب ما دام عديم الميل الى العلم لا يضطلع بمزاجه حفظ ، أشار عليه بأن يتعلم فناً من الفنون الجميلة كالموسيقى فاختار لنفسه « العود » و بدأ والده يعلمه العزف عليه على طريقة القانون بواسطة السمع لا الاصبع كما هو المتبع فيما اذا كان المعلم عواداً فأدرك شيئاً من العلم بادىء بدء واستعان أخيراً بفطرته الطبيعية على الابتكار دون التقليد فى تصوير النغمات ثم حضر الى مصر ولم يكن فيها تخت للآلات الوترية معروفاً سوى تخت المرحوم منسى الكبير والد الاستاذ قسطندى منسي والتحق بسراى ساكن الجنان الخديو اسماعيل كمعلم ، وانضم الى « ألمظ » وعبده الحمولي وكان الوحيد فى تصوير نغماتهما وفى التقاسيم المعتاد البدء بها على



(المرحوم الاستاذ احمد الليثى « العواد »)

عوده بدلاً من القانون بالرغم من وجود قانونين على تخت عبده ولم يشتهر سواه فى تصوير النغمات بالأصابع دون الريشة لأن العادة المتبعة فى الاستانة أن تستعمل الريشة للعزف ابتداء من التقسيمة أو خلافها من القطع لغاية التسليم (أى النهاية) وهذه الطريقة تسمى « بالمزراب » وقد خالفها الليثي فى مصر بأن استعمل الأصابع دون الريشة لاستخراج الاصوات وتسمى طريقته « بالبصم » ولا يخفى على اللبيب ما لطبيعة الأصابع من لين وحنان وما للريشة من يبوسة . وكان قصير القامة مليح الوجه تتوسم فيه مخايل الكرم ويعدّ عبقرياً فى العزف على العود رحمهُ الله رحمة واسعة .

المرحوم محمد عثمان

ولد المرحوم محمد عثمان إبن الشيخ عثمان حسن المدرّس بجامع السلطان أبى العلاّ حوالى سنة ١٨٥٥ فى مصر وأدخله والده فى ورشة برادة ليتعلم صنعة يرتزق منها ولما آنس فيه شديد الميل إلى الغناء وسمعه يقلّد المنشدين فى الأذكار أخرجهُ منها وضمّهُ إلى تخت الأستاذ منسي الكبير والد الاستاذ قسطندي منسي الذى تخرج عليه فى العزف على العود والتدرّب على الغناء وتركه بعد وفاة والده ليشتغل على تخت على الرشيدي الكبير ومكث مع الأخير مدة طويلة تعمق فى خلالها فى البحث الفني وتبسط فى التلحين إلى أن كوّن تختاً خاصاً به ولما فقد صوته من جرّاء مرض أصابه عمد الى التلحين فتصحنه المحترفون والهاوون فاذا هو محكم الوضع متناسق النغمات واليكم مجموعة مقطوعاته الغنائية المبينة بالجدول الآتى

« أما بسحر العين » و « والمطر يبكي ياناس لحالي» ومتّع حياتك ونور العيون شرّف وبان » « وبدع الحبيب كله يطرب فهى منسوبة للمرحوم عبده الحمولى كما قرّر ذلك الثقة الاستاذ داود حسني الملحن الكبير وقال أيضاً أن مقطوعة الحبيب لما هجرني قديمة وليست لهُ ولا يفوتنى أن أذكر ان محمد عثمان ابتدع طريقة خاصة به تسمى « الهنك » فى الغناء التى يردّد فيها رجال تخته المذهب نفسه أو غير ذلك ليتسنى له التنفس والراحة فى أثناء ذلك استعداداً للابداع وقد ذهب مع عبده إلى الاستانة وقد بكاه الأخير على ما كان بينهما من تباغض وتنافس عند ما بلغه نعيه وهو فى سوهاج بوابور حسن بك واصف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠

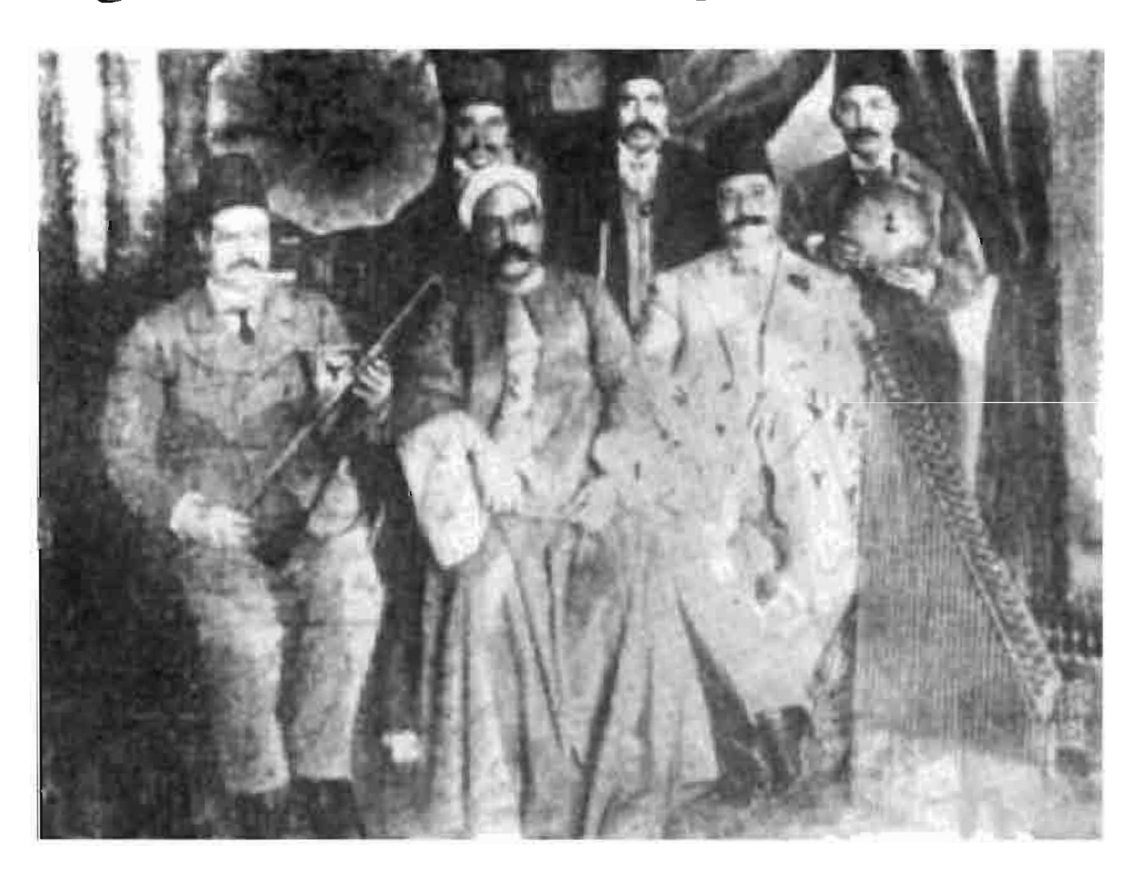
وقد روى لي الاستاذ داود حسنى أن محمد عثمان على ما كان معجباً بنفسه لانتشار تلحينه

لا يعنو لمشاجرات العصبجية من أهل الحسينية وأهل الجمالية فى أثناء الحفلات والأعراس لصرامة بأسه وصاب عوده ولم يُقم لأىّ أمرٍ وزنًا ولم يعظم أحداً الا عبده فأنه كان يسميه لدى رجال تخته « الافندى بتاعنا » ولو كانت له صورة فوتغرافية لتشرّفت بوضعها فى صدر مقالي هذا ويعدُ اكبر ملحن فى عالم الغناء رحمه الله رحمة واسعة . »

اسم المقطوعة	المقام	اسم المقطوعة	المقام
مليكى انا عبدك	راست	اليوم صفا	عجم
يا ناس خايف اقول احبه	»	ما احب غيرك	صبا
اصل الغرام نظرة	»	اعشق الخالص لحبك	»
بستان جمالك	»	أد ما احبك	»
عشنا وشفنا سنين	»	آهين وآه من العشق آه	»
انا يا بدر لم بانظر مثالك		الحب أصله منين	»
دواعى الحب تشغلنى		على الملاح انت الامير	»
بعد الخصام حبى اصطلح	»	صبحت من عشقك أبكى	جهاركاه
من يوم عرفت الحب	بياتى	تيهك علىّ اليوم	»
قده المياس	»	النوم وعد	
عهد الاخوة	»	القلب سلم من زمان	»
حبيت جميل	»	غرامك علمنى النوح	حجاز كار
يا وصل شرّف	»	يا ما انت واحشنى	»
قل لى رايت إيه	»	فؤادى من لحاظك	حجاز
قدك امير الاغصان		لسان الدمع أفصح من بيانى	عراق
ثلاثين يوم ما شفت النوم	»	البخت ساعدنى وشفتك	»
إن كان كده والا كده	»	انا أعشق فى زمانى	رمل
ياللى معك روح الامل	»	كادنى الهوى	نهوند
حبى دعانى فى البستان	»	كل يوم اشكى	»
القلب داب	سيكاه	فؤادى رقيق يعشق	»
فى البعد ياما	»		

الشيخ يوسف المنيلاوى

وُلد مرحوم يوسف خفاجي المنيلاوي حوالى سنة ١٨٥ بمنيل الروضة فى القاهرة وحفظ ما تيسر من القرآن الشريف وألف منذ حداثته الانشاد الذى اقتبسه عن الشيخ خليل محرم والشيخ محمد المسلوب ولما ظهر نبوغه فى هذا الفن لما له من صوت حسن رخيم ولين أشار عليه المرحوم عبده بترك الانشاد لممارسة الغناء فاندمج فى سلك المطربين واخذ عن « عبده » ومحمد عثمان » أدوارهما الملحنة وغناها على تخته الخاص وانقطع عن الانشاد إلا فى حفلات مولد النبى وتشييع الكسوة



فى الوسط الشيخ يوسف المنيلاوي وعن يمينه محمد العقاد القانونجى وعن يساره ابراهيم سهلون وخلفهم (٤) ابو كامل (٥) على صالح (٦) على عبد البارى

الشريفة وليالي شهر رمضان فى منزل آل البكري فكان ينشد فيها الأدوار الخاصة بالذكر حتى إذا تمزّق ستر الليل غنّى القصيدة التى مطلعها

فَتَكاتُ لحظكِ أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك

وقد سافر إلى الاستانة سنة ١٣٠٥ هـ. وغنّى السلطان عبد الحميد لأول مرّة القصيدة المشهورة التي مطلعها

تِهْ دلالاً فأنت أهل لذاك وتحكّمْ فالحسن قد أعطاكَ
ولك الأمر فاقضِ ما أنت قاضٍ فعليّ الجمالُ قد ولاّكَ

وأنعم عليه بالنشان المجيدي وقد أعطى صوته سنة ١٩٠٨ لشركة عمر افندي وكُتب على اسطواناته لفظتا « سمع الملوك » وعبأتْ له شركة « جراموفون » سنة ١٩١ عدة اسطوانات ما زال الناس يتداولون سماعها بالفونغراف ومن طريق الاذاعة اللاسلكية الحكومية وقد اشترى قطعة أرض بكوبرى القبة بنى عليها منزلاً جميلاً بجوار منزل آل السيوفى باشا وقضى نحبه يوم ٦ يونيو سنة ١٩١١

ومن لطيف النكت أن أتحف القارىء برواية طريفة نقلاً عن جريدة الاتحاد العثمانى البيروتية التى نعت الشيخ يوسف المذكور وذكرت بها ما يأتى بنصه: أن بعضهم سمع فى الليلة الماضية صوت الفقيد فى الفونغراف ينشد قول الشاعر « فلا كبدي تُبلي » فقال سبحان الله ميت يتكلم وقد بليتْ كبده وهو يقول « فلا كبدي تُبلى » فسبحان مَن أنطق الجماد وأمات المتكلم وعلّم الانسان ما لم يعلم.

الشيخ محمد الشنتورى

(المرحوم الشيخ محمد الشنتورى)

كان الشيخ محمد الشنتوري منشداً عظيما وهو أقدم عهداً في الانشاد من الشيخ يوسف المنيلاوي ومعاصر الشيخ خليل محرم وكان قوى الصوت ، حر الخلال ومحبوباً من جميع الناس ، ثم احترف الغناء على التخت وأخذ عن عبده الحمولي تلاحينه وأدواره الخاصة وأحسن غناءها حتى أشار

الأخير على أنصار الفن بأن يسمعوه من بعده واستمر يزاول الانشاد مع الغناء وذهب الى الاستانة مرة وغنى في حضرة السلطان عبد الحميد فأسنى له العطايا وأنعم عليه بالنياشين .

محمد افندى سالم

بن سالم من قرآء القرآن وعاش نحو ١٢ سنة وكان يسكن في جهة المغربلين . واحترف الغناء لكثرة سماعه إياه من كل من محمد المقدم وموسى اليهودي في ليالي الأفراح والحفلات وكان صوته حسناً ليناً ورناناً وكان يأخذ الأغاني عن المقدم وعبده الحمولي ومحمد عثمان ويسبك أدوارهم سبكا محكما ويعتبر مغنياً جيد الاداء حسن الترتيب دون أن يكون فناناً وقد ذهب الى فلسطين في سنة ١٩٠٠ وغنى في يافا وغزة وأخذ بمجامع القلوب هناك وكان يعزف على العود ويغنى منفرداً وكان محمود الشمائل .

امين البزرى

كان من أغنياء البلد ومن هواة الناي الذى تعامه عن رجل اسلامبولي (مولوى) اسمه دادا وتفوق على استاذه ولما قاب له الدهر ظهر المجن اضطر الى احتراف العزف فى الاعراس والحفلات وتزوج بانكليزية توفيت بعد أن خلفت له ولداً ذكراً وثلاث بنات وقد اعترف عبده الحمولي له بالعبقرية فى العزف على الناى بدار الوجيه موسى بك عصمت نجل المرحوم جعفر باشا وقد حضر عثمان الموصلى الفنان المشهور الى مصر خصيصاً ليسمعه وهو فى حلوان ولما سمعه بمنزل عثمان باشا غالب الذى كان يحسن الى الموسيقيين ويعد من محبي الغناء العربي بعد أن أبطأ ونوط الروح تيهاً ودلالاً دهش من مهارته التى أنسته ما حصل منه من تثاقل وتباطؤ .



(الاستاذ امين البزرى الناياتى)

ابراهيم سهلون

تعلم الكمان عن حسن الجاهل الكماني والربابي الذى طار صيته في الآفاق فى العصر الذهبي لساكن الجنان الخديوى اسماعيل وكان والده المدعو سليمان سهلون قانونجيًا معروفًا . واستمر ابراهيم يشتغل على تخت عبده زمنًا طويلا - (انظر صورته بتخت يوسف المنيلاوي)

محمد العقاد الكبير

إبن مصطفى العقاد الكبير العواد تخرج على والده ونبغ فى العزف على القانون نبوغًا لايجاريه فيه أحد بما أوتى من روح وخفة أصابع وتزوج بابنة عبده الحمولي بعد وفاته ولما زفت اليه عروسه بدار باسيلى بك عريان بالفجالة كان طروبًا فرحًا وصاح وهو على التخت قائلا على رؤوس الاشهاد انه تزوج ابنة سيده ويعتبر أول العبقريين فى العزف على القانون وأن كل من تصدّى لمجاراته من المحترفين المقلدين ولو اعترف من فضالته باء بالفشل المبين لأن المسألة مسألة روح واستعداد فطرى وخلو الأصابع من الملوحة ودقة معرفة للدوزان وعاش ثمانين سنة ومما نطقت به شواهد الحال أن حفيده محمد العقاد سيكون له مستقبل باهر فى القانون أسوة بجده ولو لم يمض عليه فى العمل أكثر من ست سنوات — (أنظر صورته بتخت يوسف المنيلاوي)

عبد الحى حلمى



(المرحوم عبد الحى حلمى)
المطرب الشهير

كان صاحب صوت قوى وعال وكان يغنى بروح قد لا توجد فى كثير من المغنين وكان يغنى بحسب كيفه والموسيقى دوزان كما قال موزارت ويعرف فى الأوساط الموسيقية بأنه مغن غير فنان ، وكان الجمهور يلاحظ منه فى أثناء العمل نزقاً وزهقاً يؤديان به غالبًا الى مغادرة التخت والانصراف قبل نهاية السهرة وكان يذهب مراراً عديدة الى دار المرحوم باسيلى بك عريان ليسمع بالاسطوانات القديمة قصيدة « أراك عصيّ الدمع » التى ألقاها عبده الحمولي

ابو العلا محمد

بدأ حياته بقرآءة القرآن ثم تدرج الى فن الغناء شيئًا فشيئًا ونبغ نبوغًا تامًا فى القاء القصائد على طريقة المرحوم عبده الحمولى الذى عنى بتقليده فيها وفى سائر أغانيه الساحرة وقد تخرجت عليه الآنسة أم كلثوم فى القصائد مثل وحقك أنت المنى والطرب . وقد عبئت له عدة اسطوانات فى بعض الشركات ومنها شركة الجراموفون التى عبأت له فى سنة ١٩١٢ قصائد كثيرة مثل

غيرى على السلوان قادر . وأفديه ان حفظ الهوى . ومواليا وخلافها . و ياماليح الحلى

لم يعزف على العود قط وكان غناءه بادىء بدء مقصوراً على أصدقائه فى منازلهم وفى بعض الحفلات ولما اشتهر اسمه بعد تعبئة الشركات لاسطواناته اشتغل بالغناء على التخت وقفا إثر عبده غريد الشرق سيد المطربين فى بعض ألحانه

الموسيقى فن سماوى

•••ooo•••

الحمد لله الذى خلق الانسان خلقًا سويًا وسخره لتسبيحه وجعله موسيقيًا بارعًا وجعل الكون بمثابة أرغن يحتوى على أنابيب قوية ومزارد مكونة من الفضاء الفسيح اللانهائي والزمن والأبدية وحسبك ماأنشأه مبدع الكائنات فى الطبيعة من تناسب فى المسموع كالسلم الموسيقى المؤلف عادة من سبع نغمات تتوالى من القرار الى الجواب وتلذ السمع وفى المنظور كالألوان السبعة الاساسية لقوس قزح التى تبهج النظر ولا تصل الى محاكاتها مقدرة الفن وتقسيم الزمن على قياس مضبوط وجعل أيام الأسبوع سبعة معدودة والأغرب ان الانسان إذا بدرت من صوته نغمة ما تلقفتها الطبيعة وتمهلت ونقرتها بأصبعها لتختبرها هل هى من الغث أم من السمين ولاترد صداها موزونة متناسبة إلا بعد تنقيحها وتصحيحها وحسبك الانسان المخترع المبتدع الذى يعد أجمل المخلوقات صورة وأنضرها شبابًا وأعدلها خلقًا وأصغرها حجما وأحلاها صوتًا والذى استولى على مقاليد الطبيعة الطافحة بالأنغام وحاكى على ضعف جسمه وصغر حجمه ما لها من قدرة وجلال وجعل الأثير رسول خواطره وبريد نغماته

وانفعالاته وأصبح خدنًا لها ومتسلطًا على جوها وبرها وبحرها حتى إذا وضع أنامله الصغيرة على مفاتيح الأرغن قصفت فى العالم على أصوات متجانسة متناسبة ومتابعة رعود متعددة تثير فى الخليقة كلها ضجيجًا حماسيًا يفضى بها فى النهاية الى حاد الهتاف وحار التسبيح باسم ربك الأعلى

وإثباتًا لما قاله كارليل فى أن الموسيقى مركبة للنبوة أبادر الى ايراد قصة النبى اليشع التى تدل صريحًا على أن المواهب النبوية يصحبها غالبًا هياج جسدى وعقلى هو من القوة بمكان ويمهد إلى الموسيقى وحدها فى انتاجه وذلك أنه لما دعاه ملوك اسرائيل الحلفاء ويهوذا وايدوم ليتخلصوا من مخاطر الحرب الناشبة بينهم وبين ميشا طلب منهم أن يأتوا له بموسيقى ليعزف أمامه على آلته الموسيقية استحضاراً لروح الالهام النبوى وقد شوهد ذلك جليًا بما ثارت فى نفس اليشع من نزوة الايحاء النبوى عند ما سمع صوت الموسيقى التى بواسطتها تمت لهم جميعًا أسباب النجاة من ويلات تلك الحرب الضروس .

ومما لا شك فيه أن سفر التوراة يُعد أعظم الأسفار الشعرية طلاوةً وأصفاها ديباجةً فى عالم البديع وأكثرها احتواءً على الموسيقى صوتيةً كانت أو وترية وحسبك ترنيمة الانتصار والشكر التى رنمت على ضفة البحر الاحمر (اصحاح ١٥ خروج من ١ إلى ٢١) وهي الترنم للرب لأنه تغلب على فرعون وجنوده حينئذٍ رسم موسى وبنو اسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا « أرنم للرب فانه قد تعظَّم الفرس وراكبه طرحهما فى البحر » ولا يعزب عن البال ان سفر العهد الجديد يحتوى على مثال هذه الثروة الفنية على حدّ ما جاء فى رومية ١٥ ١١ « سبحو الرب يا جميع الأمم » من أفواه الأطفال والرُضَّع قد هيأتُ تسبيحًا « سبحوا الرب بالمزمار والقيسارة »

وقد جاء فى القرآن الكريم ما يأتى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » وفى سورة الحديد « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وخاطب النبى الله سبحانه وتعالى وقال « فسبّح باسم ربك العظيم » وفى سورة المزمّل « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلاً »

وعند قراءة القرآن فقد قال رسول الله (صلعم) حسنوا القرآن بأصواتكم فأن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا وكان داود عليه السلام يقرأ مزاميره بالالحان حتى أن بعض الطيور كانت تقع وتموت من شدة الطرب لأنه كان حسن الصوت وكانت أصوات الأنبياء كلها حسنة ذهابًا إلى ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم ما بعث الله نبيًا إلا حسن الصوت والمزامير وقد رُوى عنه أيضًا صلى

الله عليه وسلم «قد أوتى مزماراً من مزامير آل داود» وقد اتخذ بلال الحبشي (الذى كان أول من اعتنق الدين الاسلامى) مؤذنًا له لما وجد فيه من حسن الصوت فكان يقول له أذّن يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً

على أن مارتن لوتر اللاهوتي القدير والزعيم الكبير فقد أبان للملأ الوظيفة المهمة التي تؤديها الموسيقى في المجتمع من إلانة الطباع وتهذيب الأخلاق وتسكين الهياج وقال على رؤوس الاشهاد ما يأتى . اني أفسح بكل سرور الموسيقى بعد علم اللاهوت المكان اللائق بها »

ويستنتج مما تقدم أنها لغة الأنبياء وينبوع العواطف النبيلة بل هي فن سماوى ومن ظنّ أنها ألهية يتلهّى بها قتلاً للوقت وعدّها اداة للسخرية فهو في ضلال مبين ومن اعتقد أنها مفسدة للاخلاق ومؤذنة بخراب العمران ويمكن الاستغناء عنها فهو أضل سبيلاً

فعلينا أن نتأمل ما نراه جميعًا ماثلا أمام أعيننا فى الطبيعة من ثروة الجمال المدهشة وفى مختلف مناظرها من الروعة والبهجة والسحر ما يعبر لنا عن دقة صنع الخلاق العظيم والانسجام الموسيقى والتناسق والتناسب بما نسمعه من هدير مياه الأنهار ومن حركات المدّ والجزر ومن حفيف الأشجار وتنهدات نسيم الأسحار وصياح البلابل وهطل الوبل والطل وهبوب الرياح ونغمات الكواكب عند مسيرها المتناسب فى أفلاكها المتنوعة حول الشمس – تلك النغمات التى تختلف باختلاف حجم كل كوكب وتفاوت درجته الاهتزازية عند اجتيازه الأثير – التى تكوّن إيقاعًا متناسبًا لا يُعرف كنهه على وجه البسيطة ويُكنى بموسيقى الاكوان وقد صدق الدكتور فيربون فيما قال : وهو أن الطبيعة طافحة بالاصوات الموسيقية

الفوارق

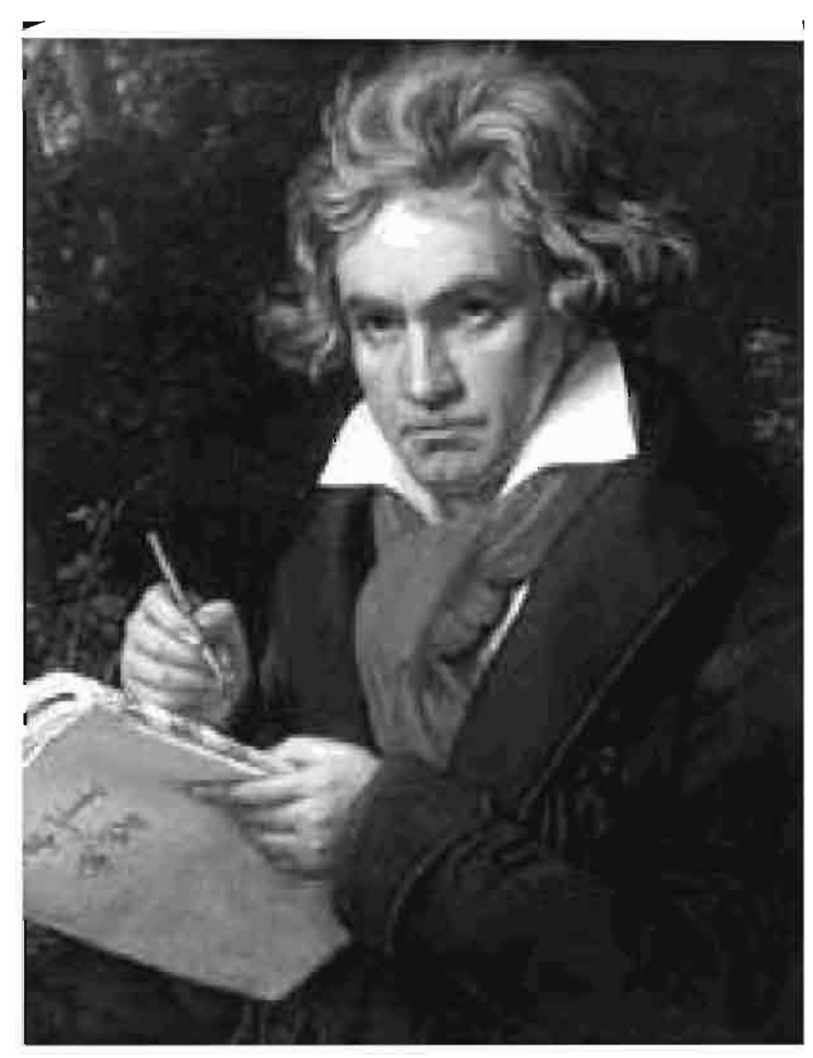
بين بتهوفن الغرب وبتهوفن الشرق

تقدم لي فى هذا الكتاب شرح مستفيض عن حياة عبده الحمولي وبيان المزايا التى اختص بها وما انتابه من محن وأمراض على قدر ما أدى اليه البحث وأعانت عليه البصيرة واثباتًا لما ذكره المرحوم ابراهيم بك المويلحي في مصباح الشرق من أنه قلما يوجد مثله من يحسن في صناعته ولا يسيء في

أخلاقه وتسهيلا على القاريء معرفة الفوارق بينهما لتتمهد المقارنة و يصيب بحكمه وجه الصواب أنشر موجز ترجمة حياة بتهوفن معربًا عن تاريخ حياته بقلم سليڤان وهو كما يأتي :

ولد بتهوفن في مدينة بون (المانيا) سنة ١٧٧٠ وتوفى في ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ وله عدة مؤلفات أذكر منها الصوناتا والكوارتر والسنفونيا فيديليو ذات الالحان المسرحية (Quartets. Sonata Symphonies)

وغني عن البيان أن مامن أحد من الموسيقيين يستطيع أن يجاريه لافي دقة التعبير ولا في عمق الشعور . وقد أصيب بمرض الاستسقاء الذى من أجله عملت له أربع عمليات. وقد وصفته أحسن وصف اليزابيت برينتانو [١] للشاعر جوتا بخطاب مؤرخ في ٢٨ مايو سنة ١٨١ ذكرت فيه ما قاله عن نفسه ملخصًا وهو كالآتى : « إن نفسي تذهب حسرات بكل تأكيد عندما يقع بصري على أشياء تخالف عقيدتي وأعد هذا العالم أحقر من قلامة ظفر لأنه لا يستبطن كنه الموسيقى التي تسبق الحكمة والفلسفة من وجهتي الالهام والوحي وتعتبر خمراً تعبق أنفاسها بشخص تحفزه الى بعيد المدارك وتحثه على التزام المناهج المفيدة المنتجة وطلب الأقدار



(بتهوفن نابغة الموسيقى الغربية)

الخطيرة وهاأنذا باكوس إله الخمر للرومان الذى يعصر أحسنها ليشربها بنو الانسان صرفًا فتتمشى

(١) و يعزى هذا الكلام الفصيح الى الراوية لعدم المامه بصناعة الأدب)

فيهم الحميّا تمشياً روحياً يبعثهم على جلب ما عثروا عليه فى البحار الى الأرض اليابسة بعد أن يفيقوا من نشوتها » وقال أيضاً في موضع آخر « يجب عليّ أن أعيش وحيداً لأني لا أجد لى صديقاً أخلص له ولأني وأفضي اليه بخبيئة سرى وأني لعلى يقين بأن الله أقرب اليّ من إى فنان وهو شريكي بلا وجل فلا خوف إذن على موسيقاى من أن ينالها حيلة محتال أو تصاب بسوء الطالع وقد أتى على وصف الموسيقى بنوع عام وعرّفها كأداة للتفكير وصلة موثقة العرى بين الحياة الروحية والحياة الجسدية »

أما ما كان من أمر عقليته فاذكر أنه كان يستشهد بأقوال أبطال اليونان والرومان فى أقاصيصهم الخرافية وكان سرف العقل لايستقر على حال كريشة في مهب الريح بدليل مايطلع عليه القارىء في الخطابين المتابعين المرسلين منه لشخص واحد واليكم نصهما بالانكليزية

(1) Do not come to me any more. You are a false fellow, and the knaker take all such.

(2) Good friend Nazerl.

You are an honourable fellow, and I see you were right. So come this afternoon to me You will also find Schuppanzigh, and both of us, will hump, thump and pump you to your heart's delight.

ومعنى أولهما يقول له «لاتعد تأتي اليّ لأنك شخص كذوب فليأخذنّك وأمثالك ذباح الخيل الضعيفة

وفى ثانيهما يقول صديقى الطيب نازرل

أنت رجل معتبر واني أرى أنك كنت محقاً ولذا تعال اليّ بعد ظهر اليوم حيث تجد أيضاً شوبانزيج لكي نمرح ونطرب ونعزف معاً بما يشرح صدرك ويقر ناظرك »

وقد كانت لموسيقاه عدة نواحي مختلفة منها الناحية الروحية التي عبرت بها عن رؤيا الحياة على حد مادلت عليه تآليفه الأخيرة مما وقع فيه من تجارب ومحن وأصابه من آلام كانت من أهم البواعث على نمو حياته الداخلية وأكسبته قوة عجيبة نادرة ووسمته بطابع الجمال الذى به عبر عن موسيقاه تعبيراً أنصع بياناً من تعبير شكسبير ولو تخير من المنظوم أحسنه وشياً وأمتنه حبكا فنشر فى

تاريخ الفن صفحات من آيات العبقرية المجيدة ويرجع الفضل فى ذلك الى أنه لم يعبأ فى تعبيره بأى لفظ من طريق اللغة التى ليس له بأصولها خبرة بل كان يلجأ الى النغمات وحدها ليعبر عن شعوره وأفكاره وميوله

على أنه لما مات والده فى سـنة ١٧٩٢ ترك له أخوين هما كارل وجوهان وأختاً تسمى مرجريت ماتت بعده فى شهر نوفمبر من السنة نفسها زادت مسؤولية بتهوفن فى حياته المرّة المؤلمة لأن والده لسوء سلوكه وادمانه الخمر لم يترك له مالا وقد تلقّن دروسه الموسيقيـة عن موزرات فى مدينة فينا ابتداء من سـنة ١٧٨٧ وما كاد يبلغ السادسة عشرة من سنيه حتى عرف نفسه وتحقق من عبقريته وكان فظ الطباع مكروهاً من الناس لا سيما من الجنس اللطيف حتى أن ما جدلينا احدى المغنيات وزميلته فى الدرس لما طلب يدها سنة ١٨٩٥ رفضت طلبـه وبعد موزارت تلقى دروساً أخرى على هيدن وشتيك وألبركستبرجر وأخذ ينتقد القواعد التى جروا عليها وسلق جميع الموسيقيين بألسـنة حداد واتّبع خططاً خاصة به نزولا على نزعاته وذوقه وميوله وسما بنفسه تيهاً واستكباراً إلى أن أُصيب بالصمم فى سنة ١٧٩٨ وكتب إلى امندا صديقته كتاباً فى أول يونيو سنة ١٨٠١ قال لها فيه « أنه سيء الحظ وأن فى صدره وغراً شديداً على الطبيعة وعلى الخالق الذى يعرّض مخلوقاته للحوادث التى فيها تتلف أجمل البراعم وبسبب صممه انقطع عن مقابلة الناس عدة سنين لأنه لا يقدر أن يقول لهم أنه أصم لا يسمع ولو كان محترفاً مهنة أخرى غـير الموسيقى لهان الأمر لـكنه حُرم السمع وبالتالي نضب معـين مرتزقه فانعدمت حياته وقُضي على مستقبله قضاء مبرماً وأردف قائلا لها فى ختامه ومستطرداً فى وصف مصابه الهائل أنت تعلمين أن أعدائي يشمتون بي وكثيراً ما هم ولو أمكن لي الانتقام من سوء الحظ لقبضت على حلقه بكلتا يديّ » وبديهيٌّ أن صممه جعله أبغض الى الناس من قبل وأحقد من جمل حتى على ذوي قرباه إلا ابن أخيه الذي كان ولي أمره ولم يعلق قلبه بحب سواه منذ وفاة والده وكان محتفظاً بعدة أسهم لحسابه الخاص ولم يمد اليها يده حتى فى ابان أشتداد مرضه عليه اهتماماً بشأن تربيته وعمد إلى جمعيـة محبي الفنون والطرب فى لندن فأسعفته مع صديق له بمبلغ مائه جنيه صُرف منها جانب على جنازته وكان ذلك العبقري المسكين يقول لطبيبه فيرنج الذي ضاعت حيلتهُ فى شفائه : آه يا دكتور لو كان يوجد بين الأطبآء الفطاحل من يستطيع أن يشفيني لاسميتهُ بالطبيب العجيب وقال قبل أن يلفظ نفسه الأخير « ان عمل يومى قد انتهى » وقد رآه المجتمعون حول سريره يحرّك قبضة يده نحو السمآء بينما كان فاقد

الشعور وهو فى سكرات الموت وغمراته وليس أدل على ذلك من ذهاب نفسه شعاعًا وعدم رضوخه لأحكام الله وعظيم ثقته بنفسه التي لم يقبرها سوى هادم اللذات دون ثقته بمن أنشأنا من الأرض نسمًا ويسر لنا منها ارزاقًا وقسمًا . أما فقيدنا عبده الحمولي اذا قيس بيتهوفن فى العقيدة والرجاء كان الفرق بينهما كالبعد بين الأرض والسماء لأن الأول كان أصبر منه على محن الزمان فأدرك نعيم الجنان وآمن بالله فى الحياة وفى الممات وثبت على طاعته فى وسط أمراضه وآلامه وكان عظيم الرجاء بأنه سيبلغ الارث فى الآخرة بتركه فى الدنيا ما يحب فمات وقلبه مليء بالرجاء وعلى فمه ابتسامة رحمهما الله أوسع الرحمات »

سلامه حجازى

ولد الشيخ سلامه حوالي سنة ١٢٧٨ هـ . بالاسكندرية وبعد أن تعلم مبادىء الكتابة والقراءة أشتغل بفن الانشاد على الأذكار ثم تدرّج إلى احتراف الغناء التمثيلي فوق المسارح وانضم إلى فرقة اسكندر فرح حيث بهر العقول بصوته الفتان وكوّن بعد أن انفصل منه فرقةً خاصةً به وقام بتمثيل روايات نسج أبراد معظمها المرحوم الشيخ نجيب الحداد الذى عرّب ثلاثة أرباع الروايات التى مثلت فضلاً عن روايات خطية لم يفسح له أجله باتمامها وطبعها .

وسافر فى سنة ١٩٠٨ إلى حلب حيث تقابل مع الأستاذ المرحوم انطون الشوا وطلب اليه أن يقدمه لبعض العائلات الوجيهة فيها لأجل التعرف بها وطلب أيضًا أن تعرض عليه رقصة السماح التى اشتهر بها الحلبيون فشاهدها وسمع تواشيح من مقام العجم التى يندر وجودها فى مصر . فلما أعجب بها تلقف وصلة جميلة منها وكاف كلاً من محمود رحمي واحمد فهيم بتدوين ما سمعه فى حلب من تواشيح جميلة .

وكان على اتصاله برجال الأدب الذين استمد منهم خلاصة ما عربوه من روايات دائبًا على اقتفاء إثر عبده الحمولي وموفقًا بالاهتداء اليه بواسطة جمعه المطيب الذي كان يطلعه على برامج حفلاته الغنائية ليستقي من بحره بعد إنهائه عمله المسرحي . وقد روى لى الاستاذ داود حسني أن دعي عبده وسلامه حجازي والسيدة ليلى خياط للغناء بدار الأوبرا فى ليلة خيرية فابتدأ الشيخ سلامه

بالقاء قطعة غنائية تمثيليــة أطرب بها الحضور وتلته ليلى المذكورة وغنت على تختها بمساعدة شقيقتها « كتقانونجية » ونالت الاستحسان ثم صعد عبده على تخته المكون من كل من الليثي والعقاد وسهلون واحمد حسنين وبركات وغنى مذهب رصد تلحين محمود الخضراوي الآتي بيانه .

مذهب	قلبي فى حبك ليه مشغول	من يوم رأيتك وعرفتك
	أطاب وصالك وافضل أقول	بالست زينب حلفتــك
دور	دا يصح منك يا جميــل	تلوف بغــيري وتهجرني
	وانا بحبك صرت عليــل	وحياة جمــالك ترحمني

فكان يكرر « يا جميل دايصح منك تلوف بغيري . . . » مطلقاً صوته في الفضاء إلى أن بلغ أقصى حد ، ثم أخذ ينحدر رويداً رويداً إلى أن بلغ القرار حيث أقفــل دوره على المقام بقوله « دا يصح ياسيدى منك » وما كاد يرتكز على « القفــلة » ويرسخ رسـوخ الطود على آخر العبارة « ياسيدى منك » حتى فــتن العقول وأحرز خطر السبق عليهما



﴿ فقيد التمثيل والطرب المرحوم الشيخ سلامه حجازى ﴾

وقد تفضّل عليّ حضرة النابغة الاستاذ خليل مطران ببيان موجز عن الفرقة التمثيلية في مصر جمّ الفائدة وحريّ بالاعتبار آثرت إيراده اتماماً لما ذكرته بأول كتابي في باب التمثيل وتنويراً للأذهان

فاني أشكره على جميل صنعه وأسأل البارى أن يكلل أعماله فى الفرقة القومية بالنجاح لتبلغ الشأو الذى يصبو اليه قلبه الطاهر ويستحقه مجهوده العظيم . واليكم البيان

الفرق التمثيلية فى مصر

بيان موجز

ان كان في التمثيل العربي تأخر قامت الفرق التمثيلية المتتابعة فى مصر لتحاول أن تدرأ عن وصمته فمن العدل أن لا ننسى أننا ما زلنا فى طفولة الفن وان الذين يعالجون التقدم به يعالجون فى آن لغة ليست مستعارة من الجمهور فيسهل عليه فهمها وتبين وقائعها بل هي مستعارة له من شعب آخر كانت عيشته وبيئته وخلائقه غير عيشتنا وبيئتنا وخلائقنا وناهيكم بهذه العقبة من عقبة كؤود . ثم هم يعالجون موسيقى لا شيء فيها يصلح للعزف الجمهورى ولا النغمات تسير بها الجيوش وتسمعها الآلاف من الناس . ثم هم يعالجون حركات ورموزاً قد اختلط شرقيها بغربيها وليس بميسور تمحيصها إلى حين فلنصابر العاملين منا ولنعاونهم كل بقدر مجهوده ذلك خير وأبقى من تغطية قصورنا بالتشدق والتشدد فيما لا يدرك إلا بميقاته من المطالب . وانني لمورد بالمجاز منشأ التمثيل فى هذه البلاد ومنه نتبين أين نحن من الطريق وما الذى يبقى علينا اجتيازه للدنو من الشأو ان لم أقل لبلوغه . على أن تاريخ الفن عندنا إنما هو تاريخ الفرق التى تولته وتوالت فى القيام به . فأول من خطر له ادخال هذا الفن فى لغة الناطقين بالضاد وهو المرحوم مارون النقاش لخمسين سنة مضت أو نيّف جمع فرقة من الشبان الذين استصلحهم فى بيروت وعرب لهم روايات البخيل والحسود وأبي الحسن المغفل تعريباً جاء أشبه بالتأليف لحسن تصرف الرجل فيه مراعاة للذوق العربي ولم تقدم تلك الفرقة هذا القطر ولكن شدة الاشتراك المتصل بين الشام ومصر ولا سيما منذ ابتداء هذا العصر لاتدع فرجة للفصل بينهما فى تاريخ الأدبيات والمعنويات . ففرقة مارون النقاش لبثت حيث نشأت إلى أن انحلت ولكن رواياتها البخيل والحسود وأبا الحسن المغفل جابت التخوم إلى وادى النيل وما برحت من لهجات مسارحنا إلى هذه الأيام أُعقب مارون قريب له معروف بين ادباء المحروسة فى زمانه هو المرحوم سليم النقاش وسليم هذا أول من أنشأ فرقة للتمثيل بمصر باتفاق بينه وبين الحكومة اوجبت على نفسها بمقتضاه امداده بمال والترخيص له فى استخدام الأوبرا زمناً معلوماً لتمثيل رواياته وأشهر

تلك لروايات « مي » « المقامر » « وعائدة » ثم اندروماك وهذه بقلم أقدر ادباء وقتـه وأشهر خطبائه المرحوم أديب اسحاق

انحلت فرقة سليم نقاش بعد حين ونهض المرحوم يوسف خياط بتكوين جماعة أخرى يساعده أخوه المرحوم انطون خياط ، ثم تلاهما المرحوم سليمان القرداحي فجمع جماعة لم تقصر تمثيلها على مصر بل تنقلت بين الشام وطرابلس غير مرة ورأت أهل الغرب العربي أشياء من روائع هذا الفن لأول ما رأوها . فى أثناء تلك المدة كان المرحوم ابوخليل القباني قد أخذ يجمع فرقة بدمشق الشام وطفق بوحى فطرته يخلق للعربية نوعًا جديداً من التمثيل هو خليط من هزل وجد وكلام وغناء يعرف عند الافرنج بالأوبريت وأبدع ضربًا حديثًا من الابداع يسميه الغربيون "ballet" (باليه) واسموه عندنا رقص السماع فصادف النجاح الذى كان به خليقًا عند السواد الأعظم. حمل ابوخليل بعد قليل فرقته إلى مصر ، ومصر يومئذ كعبة القصاد من فاقدى حرية القول والكتابة فى بلادهم بل فاقدي كل نوع آخر من أنواع الحرية العمومية والفردية ، فشرع يعرض ما لديه والأمة فرحة مقبلة عليه .

وفى تلك الأيام عينها كان المرحوم اسكندر فرح وفى فرقته المرحوم الشيخ سلامه حجازي يبلى البلاء الحسن ليجلب الجمهور ويستمد للنوع الذى آثره ما يعربه بعض أقطاب الأدب فى ذلك العهد كالمرحوم الشيخ نجيب الحداد والمرحوم أخيه الشيخ امين والشاعران الناثران المرحومان طانيوس عبده والياس فياض ، على أنه قد تخلل روايات هذه الفرقة ما دل على حالة لو تهيأت لكانت الأمة أرغب فيها وأميل اليها : من تلك الروايات « انيس الجليس » « وصدق الاخاء » للمحامى الشهير المرحوم اسماعيل بك عاصم .

بعد ذلك تلاشت فرقة المرحوم خليل القباني . وقد سمعت من نادرتي زمانهما المرحومين عبده وعثمان انه على توسط صوته كان اكبر أساتذة الموسيقى علمًا وانشاء وبراعة إيقاع . ثم انفصل الشيخ سلامه من اسكندر فرح واسس فرقته التى لقيت النجاح العظيم والفضل فى ذلك لهمة الشيخ وثباته وسخائه وخصوصًا لاحداثه الحانًا شائقات وتطبيقه إياها على قصائد مما تقوي به أغراض الرواية فى القلوب والأذهان نهاية قوتها ويستمد به الخيال من ظاهر الحقيقة غاية التشويق والتطريب . فى هذه الفرقة تخرج غير واحد من مهرة الممثلين الذين يصفق لهم الجمهور الآن وفيها رأينا للمرة الأولى ظهور الاخوة العكاشيين وأخذهم بهذا الفن ذلك الأخذ الذي تطرقوا معه إلى تأليف فرقتهم مستقلين ثم دخولهم فى شركة ترقية التمثيل . وقد قامت إلى جانبهم آنئذ فرقة الاستاذ جورج ابيض ثم فرقة الشيخ

سلامه بعد اعتداله وابيض ثم فرقة ابيض مستقلا للمرة الثانية كما قامت فرقة الاستاذ عبد الرحمن افندى رشدى على أثر انفصاله من فرقة ابيض وفى خلال اشتغال هذه الفرق و بعد أن وال بعضها وجدت على الولاء فرقة الاستاذ يوسف وهبي وكلتاهما ابات بلآء حسنًا فى سبيل الفن وأصابت حظًا من الازدهار . ثم فرقة السيدة فاطمة رشدى ثم آل كل أولئك إلى التحول والشتات إلى أن وُجدت منذ نصف عام الفرقة القومية المصرية

هذا ما رغبتم اليَّ فى ايجازه أوجزته بقدر ما بقي فى ذاكرتى وأرجو الله ألا أؤاخذ ان كان قد وقع سهو أو خطأ ما ؟

اقوال وآراء للعلماء والشعراء والفلاسفة والاطباء

قال كرليل « الموسيقى ضرب من الكلام غير المنطوق به وغير المحدود وهى توصلنا إلى حد اللانهائية وتصيرنا ننظر مليًا فى ذلك مدة من الزمن ومن ذا الذى يستطيع أن يصف بألفاظ منطقية مبلغ تأثير الموسيقى فى نفوسنا . فلندعها تبقى لغزاً وذلك خير من أن نحله وتضيع الموسيقى سدى » وقال فى موضع آخر ماحصله « قد قدرت الأمم العظيمة الغنآء والموسيقى قدرها باعتبارهما أعلى مركبة للعبادة والنبوة وسائر مايكون سماويًا فى نفوسهم »

قال شكسبير : الشاعر الكبير زاجراً الذين لايهتزون للموسيقى ولا يقيمون لها وزنًا « إذا خلت نفس انسان من الموسيقى وانعدم تأثره من اتحاد الأصوات الرخيمة كُتِبَ عليه أن لايصلح إلا للمخادعة ونصب الحبائل للناس والاضرار بهم فتخور عزيمته وتموت مشاعره وتظلم عواطفه كالليل الدامس ويكون غير أهل لأن يخلد اليه بالثقة »

قال مؤرخ المانى عظيم : « إن عزف المرسلياز فى الحرب أثار فى نفس الجنود الفرنسويين حماسة وشجاعة وكانت سببًا فى قتل خمسين ألف الماني على حد ماقال بروس الرحالة من أن الناى الحبشي إذا عزف به فى ساحات الوغى كان باعثًا على تحميس الجنود الأحباش الى حد الهوس والجنون »

قال بوسيه : المؤلف الفرنساوى الكبير مؤكداً أن ضابطاً من الضباط فى الباستيل كان يخرج للعيان من مخابئها فأراً وعناكب كلما كان يعزف على الناى فكانت مجلبة للتسلية فى وحشته وكذلك الاسماك عند صيدها فانها كانت عند سماع صوت الموسيقى تصعد وتتكاثر على سطح الماء

قال غلادستون : « ان الذين يعتبرون الموسيقى من بين السخريات فى هـذا الوجود ويتخذونها آلة يتلهون بها هم فى ضلال مبين لما أنها لاتزال تعد من العوامل الفعالة فى تنشئة وتنبيه وضبط عقل الانسان بناء على ماتسومع به فى جميع العصور منـذ بدء الخليقة الى يومنا هذا ولم تكن معرفتها خافية علينا يوم تفنن الناس فى مذاهب الحضارة والعمران وارتضعوا افاويق العلم والعرفان بل كانت بعكس ذلك أرفع من أن تكون خادمة لاتتخطى مراسم من يلهو بها هزؤاً وسخرية وأبعد عن الدعاية كل البعد بدليل أن الصلة بينها وبين فن الشعر الشريف موثقة العرى إذ أن من المحال أن يكون الانسان شاعراً دون أن يكون موسيقياً وما من شعر تم نظمه فى المراحل الأول لهذا العالم إلا وكانت للموسيقى اليد الطولى فى صوغه من خالص النضار واحتوائه على لطيف الحس وشريف الوجدان فضلا عن أنها المرشد الأمين والسراج الوهاج الذى يضيء النهج الموصل الى قلب الانسان

قال رينشتر : «يمكننا بواسطة الموسيقى أن نستبطن كنه أمور لم يسبق أن رأيناها ولن نراها»

قيل عن كلمنصو : مايأتي « سـأل كلمنصو رئيس وزراء فرنسا الأسبق بتروفسكي رئيس وزارة بولونيا المشهور بالعزف على البيانو عندما دخل ميدان السياسـة قائلا له هل تركت الموسيقى ودخلت السياسة ؟ فأجابه نعم . فرد عليه كلمنصو وقال له « ياله من تقهقر »

السراج الوراق : أنشد السراج الوراق البيتين الآتيين

إذا خمدت نيران صفوك فاعتمد لاشعالها خمساً غدت خير أعوان
فراح وريحان وسـاق مهفهف ونغمـة ألحان وصحبة اخوان

رأى هولمز العلامة : مر هولمز منذ سنين مضت بين قبور الموتى بناحية « سانت أوبرن » فوجد على رخامة ضريح العبارة الآتية "She was so pleasant" التى معناها « كانت جذلة بهذا المقدار » وبعد أن تأملها هنيهة غلبت عليـه نشوة الطرب وصفق بيديه لأن هذه العبارة الوجيزة أوحت اليه ما كان فى نفس الراقدة من موسيقى وبهجة وغبطة وسلام ورضى وأخلاقاً كريمة مما لم

تترك مزيداً لمستزيد واردف قائلا : كم يمكن أن يصنع من الخير فى البيت وفى الجماعة إذا كان قلب الانسان فرحا مسروراً وكم تلطف الموسيقى ما بالعيش من مرارة وكم تزيل من صعوبات وتحل من معضلات فى طريق الحياة الشائك . ومما هو جدير بالاعتبار أن فضائلنا يجب ألا تبلغ أقصى حد من جد يكاد يخرج الى الجفاء وأن تكون صفات فروسيتنا على ما تكنه من قوة وعنف محتوية على نغمات حنان لطيفة ومودة وصفاء حتى نجعل منها دوآء ناجعاً فى دفع أسوآء الحياة إذ بدون الموسيقى كما لايخفى لاتلين العريكة ولا تنكسر حدة الغضب وبها يفيض قلب الانسان بالحب لأخيه الانسان وكل مخلوق حي

ومما يحسن ذكره نقلا عن الضياء (لليازجي) أن طبيباً أمريكيًا يقال له ليونار كورننج قد زاول معالجة الامراض بالنغم وطريقته فى ذلك أن يضجع العليل علي وسادة مستلقياً على ظهره ويظلله بخيمة لامنفذ فيها فيكون ماتحتها مظلمًا ويجعل فى رأسه كمية من جلد لين قد نيط الى جانبيها مسمعتان يجعلهما على أذني العليل ويتصل بهما سلكان يفضيان الى فونغراف ويرسل عند أسفل الوسادة حجابا أبيض يستقبل عليه صور أشباح مختلفة بواسطة الفانوس السحرى فاذا تم اضجاعه على هذا الوجه أعمل الفونغراف ووجه الفانوس الى الحجاب فيسمع العليل أنغاما لطيفة وتترادف أمامه صور الأشباح والالوان البهيجة وبتوارد هذه المؤثرات على سمعه وبصره لايلبث أن يدب النعاس فى عينيه ثم ينام نوما هنيئًا يتخلله أحلام طيبة ومناظر جميلة ويقول الطبيب المذكور أن تكرار مثل هذا على العليل مرات قليلة يؤدى الى الشفاء .

وأقدم ما يروى من ذلك ما كان من أمر شاول ملك بنى اسرائيل حين تخبطه روح السوء وكان داود يضرب له بالعود فيجد روحًا (بالفتح)

وقد نقل عن اوميروس وبلوطرخس وتيوفرست أن الموسيقى تشفى من الطاعون والرثية ولدغ الهوام وزعم قوم من المتأخرين منهم ديمر بروك وبونيت وكرخر أنها تشفى من السل والكلب وذهب غيرهم الى أبعد من ذلك وزعم پورتا أنه إذا اتخذت المعازف من خشب بعض العقاقير الطبية وضرب بها على سماع العليل فعلت فعل العقار نفسه . اه



محادثتى

مع صاحب المعالى سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء

تحدثت الى معاليه صباح الاربعاء ١٠ يوليه سنة ١٩٣٥ بالسراي الملكية بشأن حياة عبده الحمولي صديقه الحميم ، ورجوته بأن يرفع الى الأعتاب الملكية ملتمسي الخاص باحياء ذكراه يوم ١٦ منه تحت رعاية جلالة الملك لأنه أكبر موسيقى أنجبته مصر فاعتذر الىَّ من ذلك لأسباب لامحل لذكرها في هذا المقام.وقد أفضى بنا الحديث الى ذكر بعض نوادره التى غلبت على الحكايات الخرافية ومن ضمن ماقصه معاليه علىَّ اذكر الواقعة الآتية ، وهو أنه حينما ظهر دور « قد ما احبك زعلان منك » وقد أعلز عبده دآء ذات الرئة وأضرب بسببه عن الغناء نزولاً على مشورة أطبائه الذين وضعوا بحلقه ملعقة طبيه تسهيلا للتنفس وقد اتفق أن جمعه وعبده مجلس أنس على ظهر ذهبية فخمة فى النيل فرأى عبده من بهجة وابتسام الطبيعة وتنهدات النسيم العليل ماحمله على التصدي للغناء لكي يستمتع صديقه ومن كان معه بصوته قبل الفراق . فعمد الى رفع الملعقة من حلقه وأخذ يغني الدور المشار اليه ولما اعترض عليه الحضور رأفة بحاله لم يقلع عن عزمه على اتمام الغناء حتى إذا ما أراد « قفل » الدور ضم الى صدره لضعفه عمود صاري الذهبيــة . فهل يوجد أدل من ذلك على مبلغ تضحيته وتفانيه فى خدمة الناس ؟ ثم استطرد معاليه الى الكلام عن سخائه وفنه وعبقريته بعد أن دخل علينا الهمام صاحب العزة محمد بك حسين الامين الثانى وجلس بجانبه فقال لى أنه لم ير طيلة حياته بين الباشوات في مصر أكثر منه تبرعا بعطاء ولم يخلق قبله ولن يخلق بعده من يجاريه في فن الغناء وقوة الصوت . ومكث يقص علىَّ عن كرمه ورقة عواطفه حديثاً أشد تغلغلا الى الكبد الصديا من زلال الماء .وبعد أن دعوته وحضرة محمد بك حسنين الى تشريف الحفلة التأبينية التي قمت باحيائها بدعوة منى على مسرح حديقة الأزبكية انصرفت شاكراً لمعاليه حسن استقباله لي وتفضله بالتحدث الىَّ عنه بما سرَّى عن خاطرى

وقصدت مساء السبت ١٣ شهره بناء على موعد تحدد الى مكتب حضرة الاستاذ الكبير صاحب العزة ابراهيم الهلباوي بك بنيل الروضة وطلبت اليه أن يلقى كلمة عن الفقيد فى الحفلة التأبينية ظنًا مني أنه من معاصريه وعشرائه فاعتذر لى وقال أنه لوكان يعلم شيئًا عنه لما تأخر عن الخطابة كما

فعل من يومين مضيا فى تأبين المرحوم الشيخ محمد عبده الذي كان متصلا به لوحدة عملهما فى معهد الازهر . وأردف معربًا عن استحالة تعرفه به لما كان له من شخصية بارزة لايوصل اليها ، فشكرت لحضرته صراحته وانصرفت

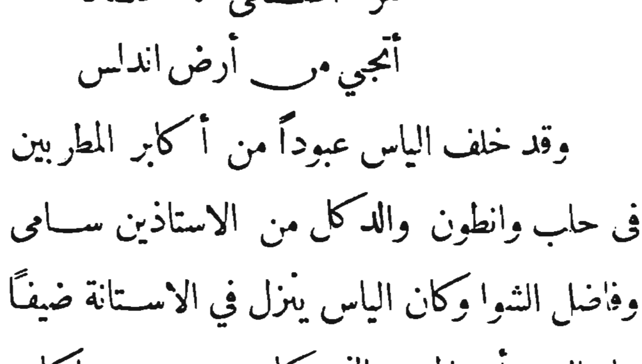
ولما وصلت الى مكتبي اتصلت تليفونيًا بحضرة الاستاذ محمد رفعت وشرحت له الموضوع ورجوته أن يتلو ما يتيسَّر من الآي الكريمة عند افتتاح الحفلة مساء ١٦ يوليو الماضي فأسف جد الأسف لارتباطه فى نفس الوقت بالعمل في محطة الاذاعة وسألني عما إذا كان يمكن ارجائها الى الليلة التالية فافهمته عدم امكان ذلك لتوزيع تذاكر الدعوة للجمهور والتنويه بها رسميًا على صفحات الجرائد ، ثم قال معجبًا بعبقرية الفقيد مامؤداه « ان عبده كان سيداً على الموسيقى أما المطربون السابقون واللاحقون فهم جميعًا عبيد لها »

مشاهير رجال الموسيقى

الاستاذ سامى الشوا

ولد الاستاذ سامي الشوا فى حلب سنة ١٨٨٩ و بعد أن تعلم مبادىء الكتابة والقراءة في مصر ترك المدرسة لضعف صحته وعكف على تعلم الكمان منذ نعومة أظفاره . ولا غرابة في ذلك كما أن المرحوم انطون الكبير عم جده الياس كان يعزف على الكمنجة الصغيرة والكمان الأكبر حجما منها المسماة : viole d'amour ذات السبعة أوتار وهو أول الحلبيين الموسيقيين الذي عزف عليهما فى حضرة ابراهيم باشا بحلب وأن أهل حلب ولعون بالطرب كل الولوع و يحفظون التواشيح والاوزان والقدود وقد لايخلو بيت فيها من ذوي الأصوات الحسنة أو من الآلات الموسيقية . و يرجع السبب الرئيسي فى فسيح خطواتهم فى الموسيقى الى أن حلب كانت قبل فتح قنال السويس محط رحال التجار والسياح من أعاجم وترك وتتر وأرمن وكانت نقطة اتصال بين مختلف الشعوب وكانت التواشيح العربية تترجم الى اللغتين الفارسية والتركية و بالعكس وكان فتح قنال السويس فى سنة ١٨٦٩

ضربة قاضية على تجارة حلب لما أن البضائع التي كانت ترسل اليها فتحملها القوافل براً الى نواحي العراق و بلاد العجم لابد أن ترسل بعد ذلك بحراً عن طريق السويس ثم البصرة ومع ذلك كله لايزال ديدنهم الغناء ومذهبهم رقص السماح والترنم بالشعر ونظم الموشحات التى اشتهر بها حضرة الشاعر الناثر قسطاكي بك حمصي اقتداء بالاندلسيين وقد قال أثير الدين الجياني الأندلسي



نصب العينين لى شركا   فانثنى والقلب قد ملكا
قمر أضحى له فلكا   قال لى يوما وقد ضحكا
أتجي من أرض اندلس   نحو مصر تعشق القمرا

وقد خلف الياس عبوداً من أكابر المطربين فى حلب وانطون والد كل من الاستاذين سامى وفاضل الشوا وكان الياس ينزل في الاستانة ضيفاً على السيد أبي الهدى الذى كان يعد من اكابر الصوفيين المشهورين بحفظ التواشيح وانشادها وكان قانونجيًا يرأس تختًا وعلى يمينه و يساره ولداه يعزفان على العود والكمان ويدعى للعزف فى الحفلات الفخمة ولو كانت البقرة التى كان أبونا ابراهيم الخليل يحلبها على قمة الجبل سمعت بوجه الافتراض حين حلبها نغمات الاستاذ سامي الشوا على كمانه لأدرت لبنًا يزيد خمسة وعشرين فى المائة ان لم يكن أكثر على المقدار الاعتيادى



﴿ الأستاذ انطون الشوا والد امير الكمان ﴾

وقد ذهب الاستاذ سامي الى برلين عام ١٩٣١ وزار المعهد الموسيقي للحكومة زيارة رسمية برئاسة سعادة حسن باشا نشأت وحضور أساتذة الموسيقى الذين أعجبوا بنبوغه وأخذت لمعزوفاته عدة اسطوانات حفظت كتذكار له بالمعهد وزار أيضًا باريس حيث احتفل به المعهد برعاية سعادة فخرى باشا وحضور المسيو رابو رئيس « الكونسرڤاتوار » والمسيو شولمان سكرتير المعهد الوطني الأكبر وزار روما ولندرا ثم اميركا الشمالية

وقد رفع أينما حل رأس مصر عالياً وهو خليق بكل رعاية واحترام ويعد أول عبقرى فى عالم الموسيقى .

ولا يسعنى فى الختـــام إلاّ أن أتحفكم بما جادت به قريحة المرحوم أمير الشعراء كتحية ومديح لأمير الكمان فى ١٦ مايو سنة ١٩٢٨ اقتطف منها بعض الأبيات الآتية

يا صاحب الفن هل أتيتــه هبةً
وهل خلقت له طبعــاً ووجدانا
وهل وجدت له فى النفس عاطفة
وهل حملت له فى القلب ايمانا
وهل لقيت جمالا فى دقائقــه
غير الجمال الذى تلقـــاه أحيانا
وهل هديت لـكنه من حقائقه
يرد أعمى النهى والقلب حيرانا
الفن روض يمر القاطفون به
والســـارقون جماعات ووحدانا
أولى الرجال به فى الدهر مخترع
قد زاده جدولا أو زاد ريحانا
العبقرية فيــه عز مالـكة
إذا مشى غيرها لصــاً وجنّانا
لاتســأل الله فنـاً كل آونة
واســأله فى فترات الدهر فنانا

الأستاذ سامى الشوا أمير الكمان





صورة لأمير الكمان الأستاذ سامى شوا وهو فى برلين ويرى فى الوسط

الأستاذ داود حسنى

وُلد داود حسني في مدينة القاهرة عام ١٨٧١ وفكر بعد أن أتم دراسته الابتدائية أن يحترف فن الموسيقى والغناء فأخذ يتلقى دروس العزف والايقاع على أكبر الأساتذة فتعلم الضروب والأوزان والبشارف والقواعد الموسيقية كما تعلم العزف على العود . ومن مميزاته اقتداره على تقليد المرحومين عبده الحمولي ومحمد عثمان وله عدة تلاحين خالده بادر المطربون إلى غنائها أذكر منها « حبك يا سلام » « يا طالع السعد » « الصباح لاح ونور » « الحق عندى لك» وهو أول دور لحنه «وأسير العشق» الذى لحنه من نغمة ابتكرها واسماها بالزنجران كما لحن عدة أدوار أخرى من نغمات خاصة به تسمى « الحجاز كاركرد » وكان له تخت خاص غنى عليه مدة طويلة وترك أخيراً الغناء وعكف على التلحين وتخرج عليه كل من الاستاذين زكي مراد وصالح عبد الحى والآنسات ليلى مراد ونجاة وسهام وأسمهان ونادرة كما لحن للآنسة ام كلثوم المطربة الشهيرة عدة أدوار منها الدور المشهور

« روحي وروحك في امتزاج » ودور « يوم الهنا » ومما يجمل في التاريخ ذكره أنه لم يجد باباً في الموسيقى إلا طرقه ولم يصادف نغمة غريبة أو وزناً مبتكراً إلا لحن منهما لحناً أو أكثر



الأستاذ داود حسنى

ولم يقتصر مجهوده على التلحين الغنائي فحسب بل شق له طريقاً فى الموسيقى المسرحية ولحن أولاً «صباح» التي كانت فاتحة الالطاف واخرج الأوبرا شمشون ودليله وليلة كليو باترة وأكمل أوبرا « هدى » للمرحوم سيد درويش والأوبريت كوميدى « الليالي الملاح » « والشاطر حسن » وأيام العز ، والغندورة ، وناهد شاه ورواية «معروف الاسكافى »

وهو سريع الحفظ لجميع الأدوار والمقطوعات التى أنتجت قديماً وحديثاً ويرجع اليه الفضل فى تدوين نحو مائة دور دونها بالنوتة الافرنجية للمعهد الملكي للموسيقى العربية فضلاً عن أنه لحن ما يقرب من خمسماية دور ومقطوعة ونحو ثلاثين رواية غنائية حتى قال عنه المرحوم احمد شوقي بك أمير الشعراء أنه كنز فنى عظيم لا يفنى ودرة ثمينة لا تقدر بثمن

وقصارى القول أن موسيقاه موسومة بطابع شرقي جذاب ومصبوغة بلون مصرى بهيّ مفرح وهو على نبوغه فى التلحين متواضع النفس كريم الاخلاق .

الأستاذ قسطندى منسى

وُلد بدمياط في شهر اكتوبر سنة ١٨٦٦ وانقطع عن طلب العلم لضعف بصره فاضطر الى الانصراف الى درس الموسيقى وهو دون البلوغ بمعاونة المرحوم عبد الله القانونجى عمه الذى كان ضريراً وقد ترأس تخته مع أحمد الشربينى ومحمد الشربينى ولده العوادين وعزفوا في الحضرة السلطانية

بالاستانة وتلقى تدوين الالحان بالنوتة عن الاستاذ انطون جوان المدرس بسراى الخديوى اسماعيل فعمد الى عمل أدوار و بشراوات منها بشرو جهاركاه عديم النظير وأول الأدوار التي دونها على الحجر للافتقار الى المطابع في أول العهد بها كان دور « تيهك عليّ اليوم بسنين » وأصدر منها نحو الفيّ نسخة نفذت جميعها بسرعة

ولما بلغ الثانية والعشرين من سنيه وقع دور « كادني الهوى » (نغمة النهوند) على البيانو يوم كان البيانو قليل الاستعمال في المحافل حتى ان من كان يضرب عليه دور « يا طير الحمام يا أخضر » كان يعد بلا منازع من جهابذة العازفين وقد وُفق الى اختراع العُرَب للقانون بدل العفق طلبًا لايجاد نصف المقـام وربع المقام عند اللزوم وهما موجودان في الموسيقى العربية ولم يسبق لمحمد العقاد الكبير أن استعملها بل استعاض عنها بالعفق على مافى هذه الطريقة من كتم الصوت وضيـاع الوقت والاعياء كما يزعم بعضهم



﴿ الأستاذ قسطندى منسى ﴾

على أنه والحق يقال هو أول من عمل فى نغمة الجهاركاه بشرفا كما تقدم وأسماه بالبشرف العباسى وقدمه للخديوى عباس وكان مخصصًا أولا للخديوى توفيق الذى توفاه الله قبل طبعه .

ولا يعزب عن البال أن والده المرحوم منسى كان أول من ألف تختا للآلات المصرية وأن عبد الله القانونجي كان عبقريا فى العزف على القانون وقد أديا للموسيقى العربية خدمات جليلة تخلد لهما أجمل ذكر . وللاستاذ قسطندي ولدان أحدهما الاستاذ فريد المحامي لدى المحاكم المختلطة والاهلية يشتغل بمكتب عمه المحترم الاستاذ عزيز منسي نقيب المحامين الأسبق بمحكمة مصر المختلطة والثاني بعد أن نال البكالوريا المصرية انصرف الى درس الحقوق الفرنسية وهم من خيار الناس قد جمع الله فيهم خلال الفتوة ولين الطباع .

الأستاذ منصور عوض

ولد الأستاذ منصور عوض بقصورة الشوام بشبرا (مصر) عام ١٨٨٠ وكان والده المرحوم حنين منصور عوض من أكابر تجار الأقمشة بالحمزاوى وتعلم بادىء بدء بمدرسة الفرير بالخرنفش وهو دون البلوغ مبادىء اللغتين العربية والفرنسية والعزف على الكمان بالنوتة الافرنجية واتفق ان دبت فيه الغيرة على اقتناء العود مما أحاط به من عوامل حينما كان يزور والده كل من الشيخ خليل محرم المنشد وعمر افندى التركي موسيقار الخديوى اسماعيل الذى كان يعزف على الطنبور فالح على والده أن يشترى له آلة شرقية كالعود فنبذ الأخير طلبه وراء ظهره لما كان لحرفة الغناء من حقارة وازدراء فى عصره ولكنه نزولاً على رغبة ولده المولع بالموسيقى الشرقية اشترى له آخراً عوداً وقانوناً ثم انتقل من مدرسة الفرير إلى المدرسة التوفيقية فمدرسة الاقباط لقربها من شارع محمد على حيث كان يتلقى دروساً موسيقية على يد مدرس ماهر .

﴿ الأستاذ منصور عوض ﴾

ولما وفد الى مصر من الاستانة سنة ١٨٩٨ نفر من مشاهير الموسيقيين الأرمن الذين كونوا جوقتين موسيقيتين وكان مركز الأولى بالعتبة الخضراء بجوار محلات الف صنف والثانية بشارع عبد العزيز أخذ يتردد عليهما واقتبس عن الموسيقيين فيهما بعض مقطوعات و بشارف وغيرها وأخذ يعطى دروساً فى فن الموسيقى لبعض العائلات وافتتح سنة ١٩٠٧ بالاشتراك مع الاستاذ سامى الشوا مدرسة موسيقية بالضاهر بمصر كان يحتم فيها تعلم النوتة الافرنجية ونظريات خاصة بالانغام والأوزان وكانت تلقى بها بعض محاضرات قيمة مرة فى الأسبوع واستمرت هذه المدرسة إلى سنة ١٩٢٥ ولما عين مراقباً فنياً للتعليم فى فرع المعهد الملكي المدرسي أضطر إلى أغلاقها ونظراً لكثرة اشغاله بشركة الجراموفون وتنقله بين مصر والاسكندرية أضطر الى تقديم استقالته إلى المعهد فى أواخر دسمبر سنة ١٩٣١ وهو لا يزال إلى الآن شاغلاً مركز مستشار فنى وادارى بالشركة المذكورة

وغنى عن البيان أنه قد وضع عدة مؤلفات منها كتاب التحفة البهية فى الاصطلاحات الموسيقية ومناظرات علمية فى الموسيقى الشرقية والغربية تشهد له بطول الباع فى هذا الفن الجميل ويرجع اليه الفضل فى تسجيل عدة اسطوانات ربحت منها الشركة فضلاً عن بشروات وسماعيات وأناشيد وطنية ومارشات من ضمنها مارشات مصطفى باشا كامل ورعمسيس و بطرس باشا غالي والأميرة فاطمه هانم اسماعيل والسلطان حسين وسعد زغلول باشا والحرية وادرنة والهلال الاحمر والسلطان محمد الخامس بالاستانة والنشيد الوطنى نظم الاستاذ مصطفى صادق الرافعي - وهو سلس الطباع وفيّ متجافٍ عن مقاعد الكبر بشوش الطلعة ؟

(غزل)

قد رُوي عن كتاب الأغانى ما يأتى «كان زلزل أضرب أهل زمانه بالعود وكانت له جارية علمها الضرب والغناء ولما بلغ اسحق الموصلى بعد موت زلزل انها تعرض فى ميراثه للبيع صار اليها ليعترضها ففنت

أقفر من أوتاه العودُ ... فالعود للأوتار معمودُ
وأوحش المزمار من صوته ... فما له بعدك تغريدُ
مَن للمزامير وعيدانها ... وعامر اللذات مفقودُ
الخمر تبكي في أباريقها ... والقينة الخمصانة الرودُ

الأستاذ محمد السبع

وُلد الأستاذ محمد السبع بدمياط في سنة ١٨٧٠ وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن احترف فن الغناء لما له من صوت رخيم حسن وجاذبية قوية بالرغم من اعتراض الشيخ علي الحفني جده (أب والدته) عليه خشية أن يناله شين المهنة في ذلك العهد وذهب أولا الى المنصورة حيث بدأ يغني بقهوة الخواجا ديليا على البحر الأعظم وكان موضوع عناية الخواجا تقولا قسيس أحد أقرباء آل حنسي بدمياط نزولا على توصيتهم به وما لبث أن سمعه الاستاذ عبد الله القانونجي حتى استصحبه الى مصر ودرّبه على الغناء حتى اشتغل بمجلاية الأزبكية يوم كان محمد عثمان والشيخ يوسف يشتغلان تجاهه بالجنينة ولما سمعه عبده الحمولي بينما كان يتنزه فيها مع أولاده ضمه الى تخته حيث اشتغل سبع سنوات كمساعد له وأبلى بلاء حسناً بما اقتبسه عنه من ضروب وترقيع فاستضاء بشكاته حتى أحبه وعطف عليه عطفه على بنيه ولم يكن تخرُّجه عليه مقتصراً على فن الغناء بل استفاد منه بما يرضي الله والناس جميعاً بالتقوى والاستقامة وصالح الأعمال وقد رُزق ولداً يدعى ابرهيم افندي دسوقي السبع موظف بالقلم الجنائي بمحكمة مصر الكلية وبنات فاضلات من ذوات الصون



(الأستاذ محمد السبع)

وقد دعاني مساء ٧ فبراير الماضي لسماعه في بار اللواء على تخته المؤلف من أعاظم العازفين وهم الأساتذة عبد الحميد القضَّابي القانونجي وكريم الكماني وعيد قطر العواد وجرجس سعد الناياتي فسمعته بعد عدة تقاسيم على الآلات يغني مذهب « كنت فين والحب فين » فأعجبت به وأعادني الى ماضي الذكريات في العصر الذهبي لاستاذه الحمولي بما أتاه من حسن الالقاء وضروب التفنن ويا لعمري لو عُنيت محطة الاذاعة اللاسلكية بتشغيله بالمحطة لكي يتمكن من يسمعه من النشء الحديث الحسن الصوت من التقاط ما بقي بصوته من نغمات ساحرة ونبرات عربية باهرة .

وبالجملة أقول في النهاية حقاً أكرم به رجلا نبيل النفس ندي الراحة وصبيح الوجه

الاستاذ محمد كامل رشدى

رئيس القسم الفنى بادارة تحقيق الشخصية

وُلد في سنة ١٨٧٩ وتربّى في سراي والده التي كانت تقع بباب الشعرية وتُشرف على الخليج



(الأستاذ محمد كامل رشدى الرئيس الفنى بادارة تحقيق الشخصية — عواد قديم شهير وتلميذ الاستاذ الكبير احمد الليثى)

المصرى قبل سدّه وكانت محط رحال الموسيقيين للتدرّب على مقطوعاتهم ومعزوفاتهم لما ألفوا فيها من المناظر الرائعة الطبيعية من أشجار وزهور ومياه .

فشغف بالعود واقتبس عن الاستاذ العريان والد ابراهيم العريان القانونجى قسما من التعليم على القانون على حد ما قبل الأستاذ الليثى الذى تخرج عليه في سنة ١٩٠٨ وأضحى من كبار العازفين على العود .



السيد أمين المهدى

الذى لا يحتاج الى تعريف هو من كبار هواة العود يجيد العزف عليه ويعد من أنصار الموسيقى العربية ومن المعارضين فى التجديد الأبتر وقد عُبئت لبعض معزوفاته اسطوانات في الشركات الفونغرافية لا بأس بها .

السيد امين المهدى العواد الفذ

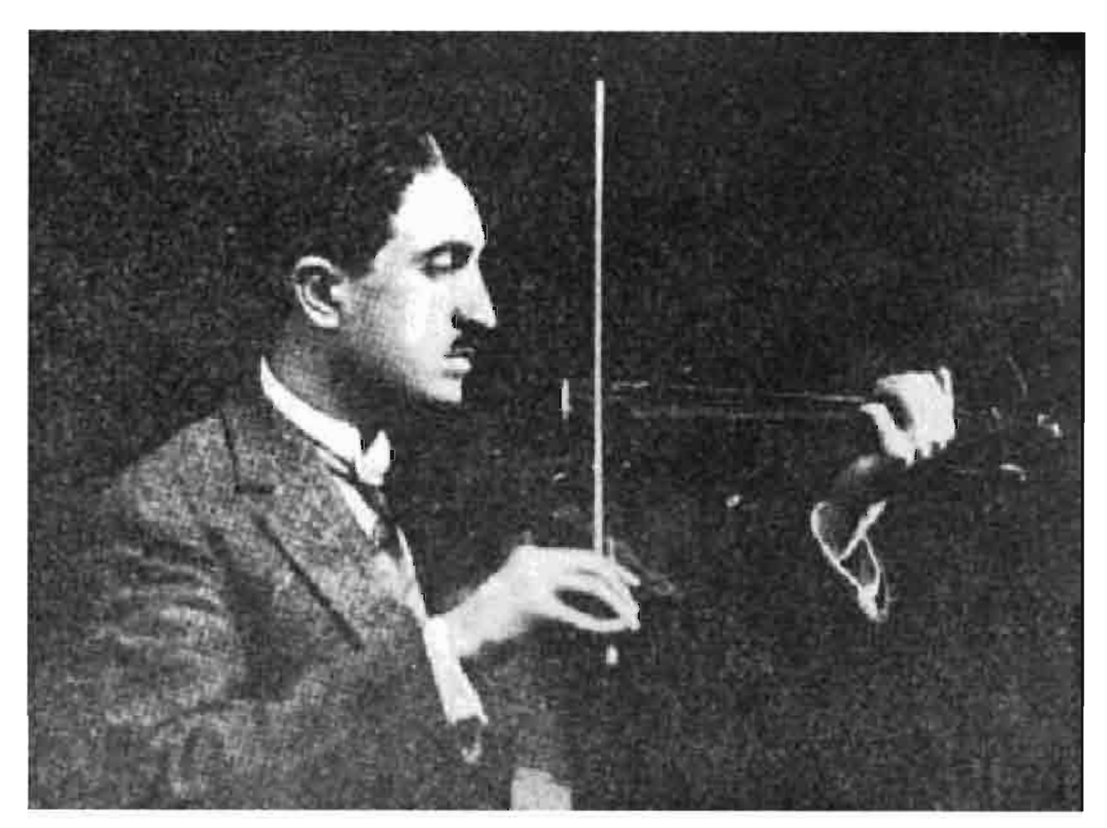
غزل

دُعيت جارية زلزل الى الغناء في حضرة الرشيد فقال لها غنّي صوتًا فغنت

العين تُظهر كتماني وتُبديه والقلب يكتم ما ضمَّنتهُ فيه
فكيف ينكتم المكتوم بينهما والعين تُظهره والقلب يخفيه

فأمر بأن تباع وتعتق ولم يزل يجري عليها الى أن ماتت .

الاستاذ مصطفى ممتاز



الأستاذ مصطفى ممتاز الكماني

هو من الهواة العازفين على الكمان ومن أنصار الموسيقى الشرقية والغناء العربي وقد تخرّج على الأستاذ ابراهيم سهلون ويحفظ له بعض تقاسيم

شكر عام

ليس فينا من يجهل ما لحضرتي العلامتين الدكتور فارس نمر وصاحب العزة خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم الأغر من رفيع المنزلة في النفوس لما اتصفا به من أريحية الطباع وكرم الأخلاق وتحليا به من العلم الذي وقفا حياتهما على الغوص على أسراره وبحث الحقائق ونشر الفنون وفي مقدمتها الموسيقى العربية التي جرى لأصحاب المقطم فيها بحوث مستفيضة ومناقشات جمة مع بعض

الموسيقيين الامريكيين قبل انتقالهم الى هذا القطر فضلاً عن تضلع حضرة رئيس التحرير منها ومعرفته العزف على بعض آلاتها

ولما أخذت على عاتقي احياء ذكرى النابغين الراحلين من المصريين وبدأت بذكرى عبده الحمولي وما له من الأيادي البيضاء على الموسيقى الشرقية والغناء العربي ونقدت ما أتاه المجددون من ضروب التضليل فيها كتبتُ بعض كلمات الى المقطم الأغر الذي فسح لها مكانًا ونشرها غير مرّة فصادف قبوله ما هو كامن في نفسي من حب مفرط الموسيقى وغيرة عليها وتنبهت الأمة إلى ما أبديته من الاعتراضات على التجديد الذي لا يرتكز على قواعد ولا يقصد به إلا تشويه محاسن موسيقانا وازالة طلاوتها وصبغتها الشخصية ومسخ نغماتها التي تولد منها في الغرب حاسة الخيال والجمال
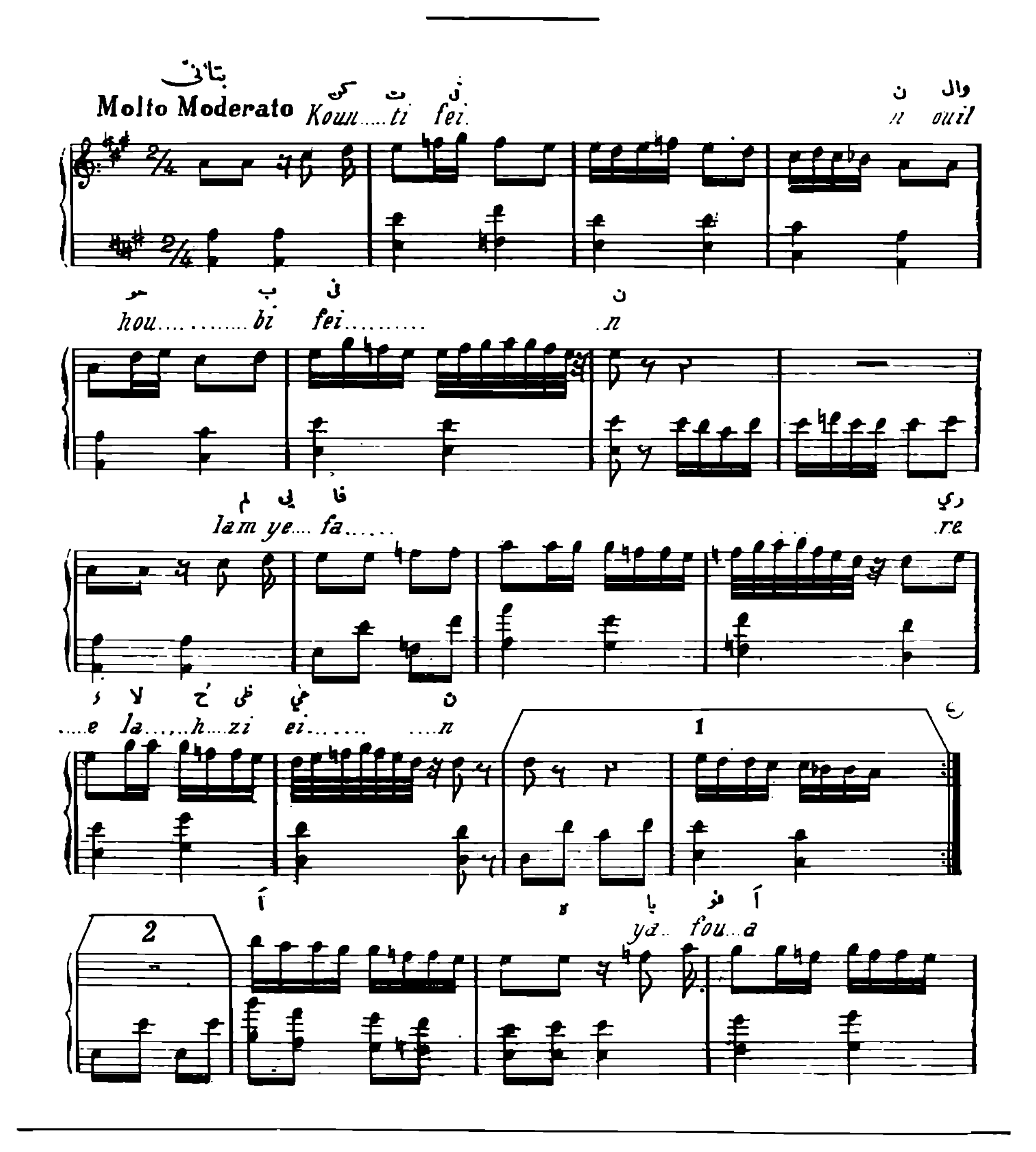


الدكتور فارس نمر صاحب المقطم
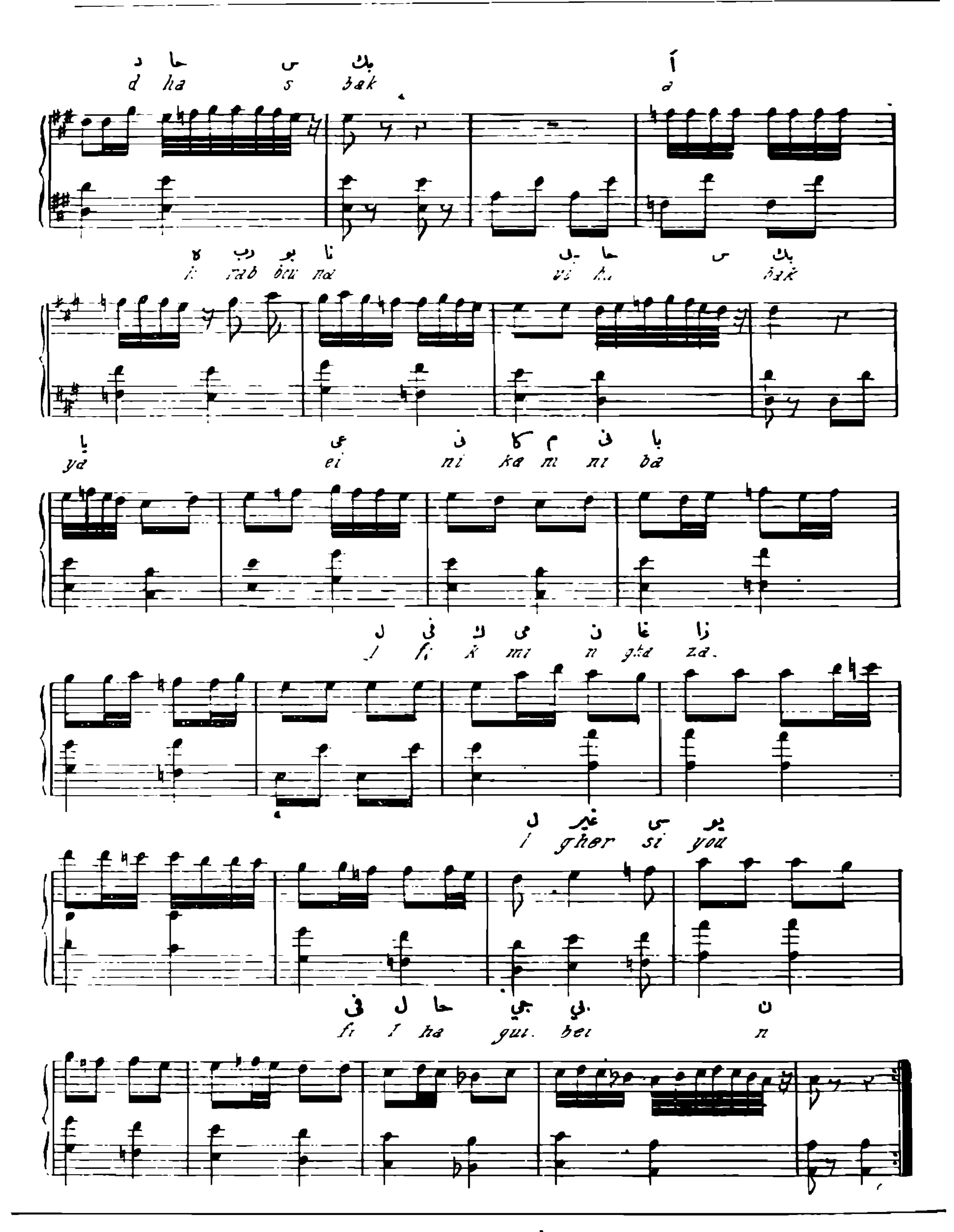
فيرجع اذاً كل الفضل اليهما في هذا التشجيع الذي دفعني الى وضع هذا الكتاب المفيد وقد أحجم المقطم عن نشر كلمة الشكر المقدمة مني مرتين لهما وكانا يختبئان اختباء البنفسج بين العوسج فنمّت رائحة انكار ذاتهما عليهما ولذا لا يسعني الا أن أقدم لحضرتيهما جزيل الشكر واعترافي بجميل صنعهما ولحضرات أفاضل الأدباء وأكابر الشعراء الاستاذ خليل مطران وصاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق وسيادة المطران كيرلس رزق والدكتور عبد الرحمن شهبندر والاستاذ محمود فؤاد الجبالي على مقالاتهم النفيسة التى بعثوا بها إليّ مع اعتذاري للآخرين الذين لم أتمكن من نشر مقالاتهم لضيق نطاق هذا الكتاب وفقنا الله الى ما فيه كل الخير للوطن وللفن م

مذهب كنت فين والحب فين*

تلحين المرحوم عبده الحمولي ووضع الاستاذ قسطندى منسى
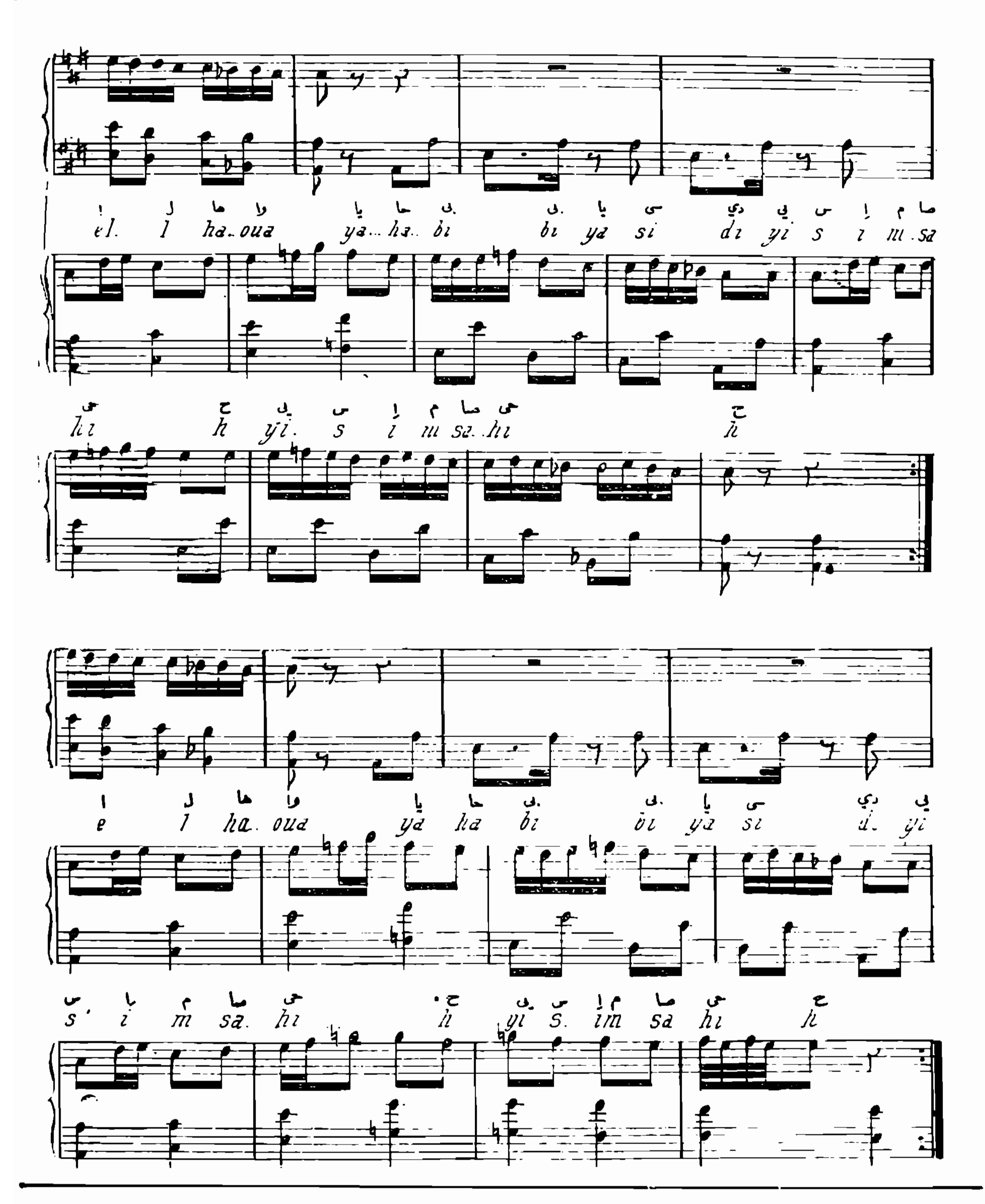


* تجدون أعلاه ما دونه بالنوتة الافرنجية الأستاذ قسطندي منسي عن عبـده الحمولي وهو مذهب حجاز كار تلحينه الخاص والغرض من تدوين هذا الدور اعطاء القارىء صورة مصغرة
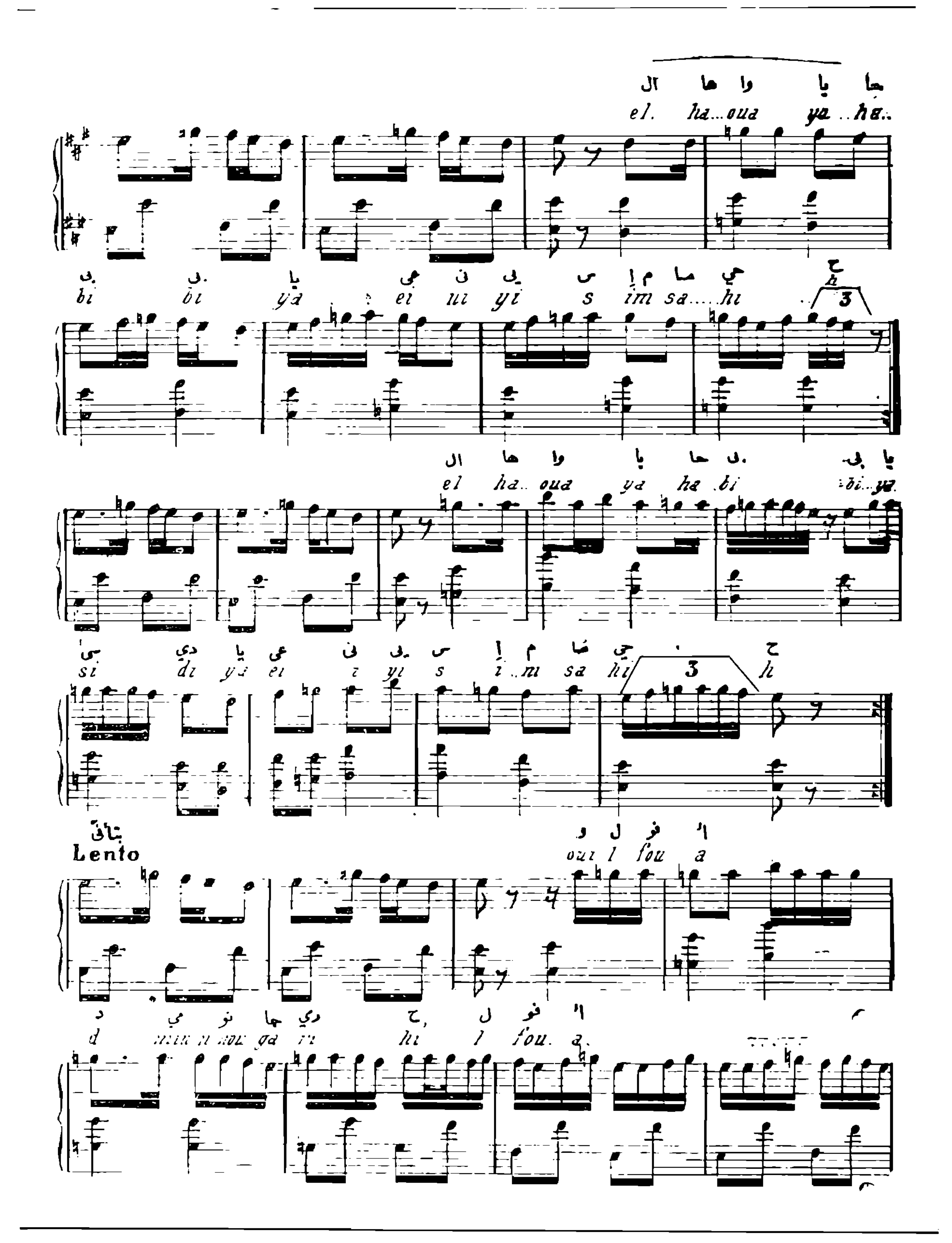


لنغماته والاشارة الى ابتكاره الذي يأتيه بما تُوحي به اليه نفسه وتراه عينه من المرئيات المتنوعة الكثيرة وما أقلها في عينه الصغيرة على حدّ قول البارودي باشا
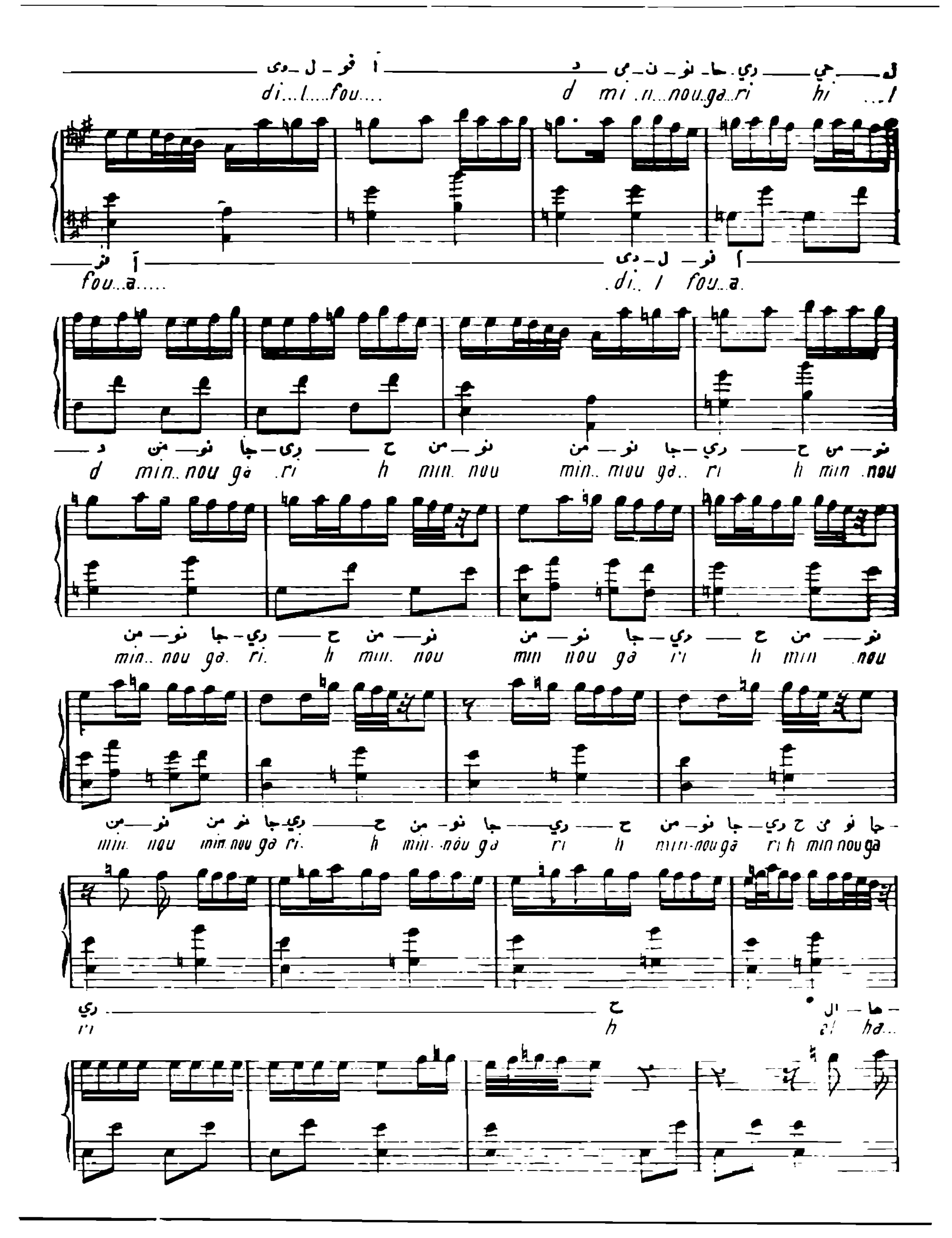
كالعين وهي صغيرة في حجمها　　　تسع الوجود بأرضه وسمائه
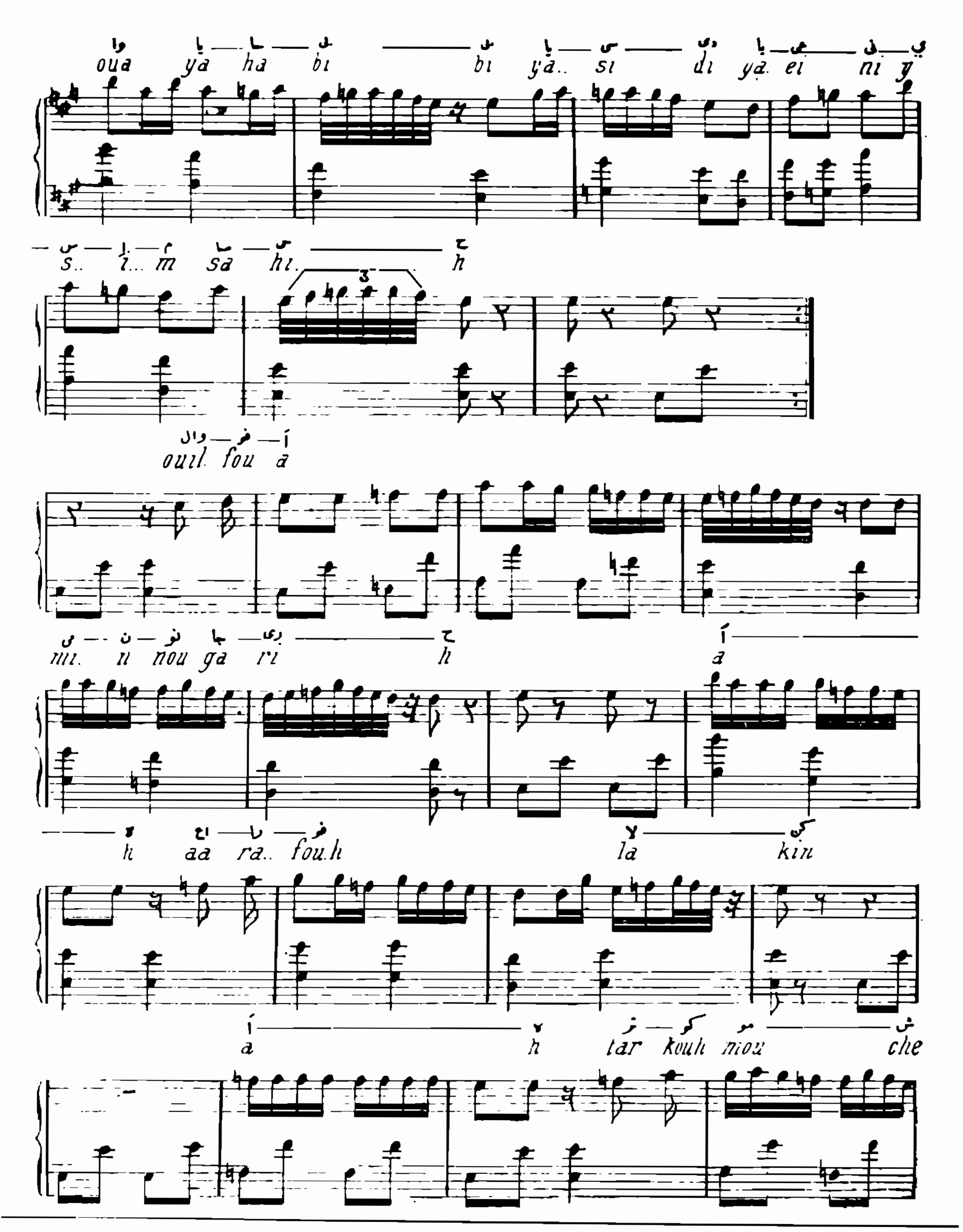


وبيانه أن النوتة مهما بلغت من الدقة لا يمكن بها تصوير نغماته لعدم وجود ربع المقام في العلامات الافرنجية وبدونه لا يمكن الاحاطة بتموجات صوته ولعبه بالألحان وغريب تصرفه وبحّته ناهيك بالروح الذي به يؤدي نغماته ونبراته الخاصة به وتعتبر حينئذ كتصميم لبناء نغماته أو خطوط أوليـة مرسومة لتصوير شكل من الاشكال ومما يؤيد ذلك ما قاله الأستاذ منصور عوض بعدد



٧٠٠٤ من مقطم ١٣ ابريل سنة ١٩١٢ وهو بحروفه كما يأتي « ان الانغام الشرقية لا يمكن تصويرها بالعلامات الافرنجية التي وُضعت وأُلفت بها قبلاً عدة أدوار وموشحات و بشارف وخلافها والسبب
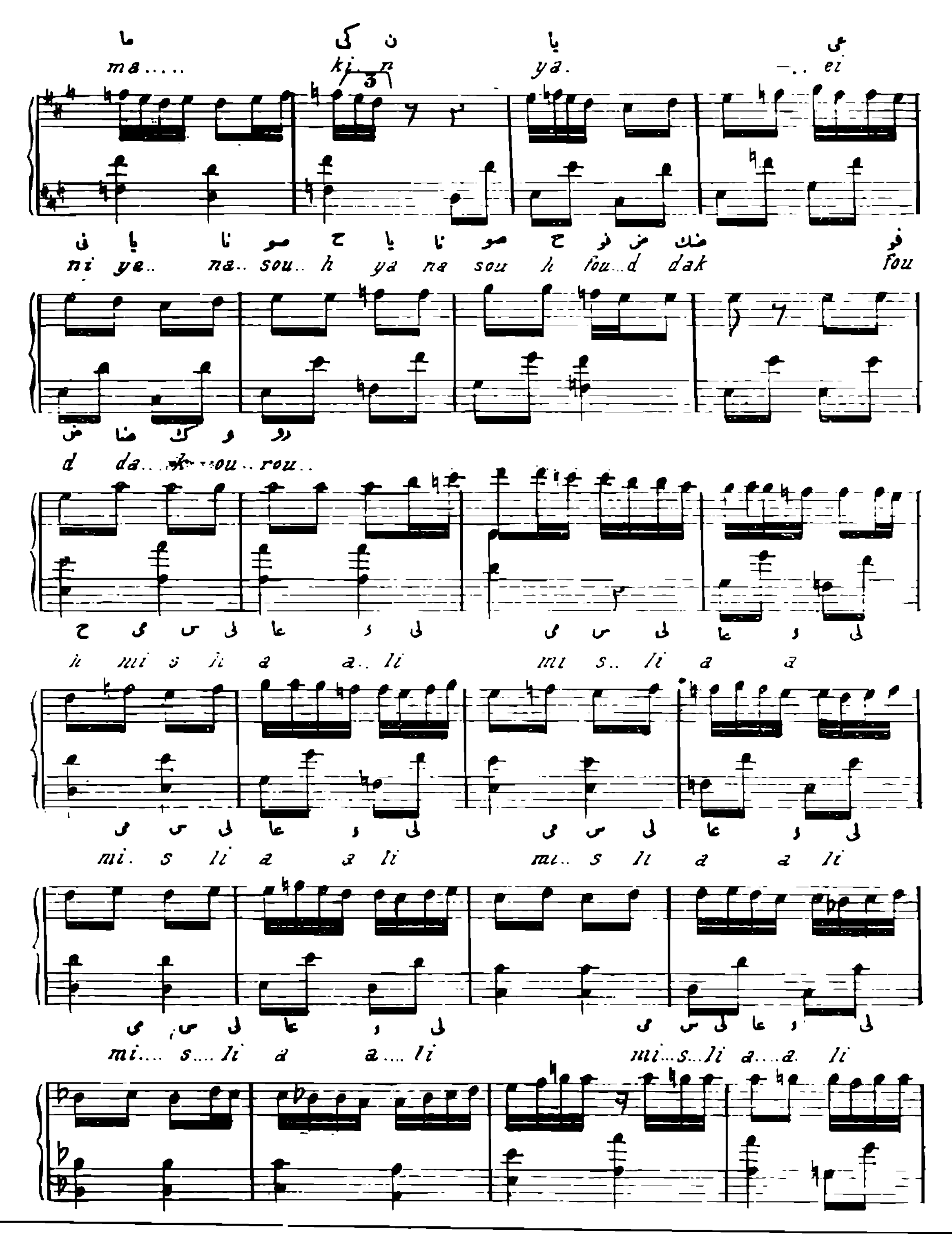


في ذلك أن « سكاك » التصوير عبارة عن وضع الأنغام في غير محلها عند اللزوم والاستزادة من
التبحر في الفن وهي تنطق كما كانت في محلها مع اختلاف الطبقة الأصلية وذلك يحتاج طبعاً الى ربع
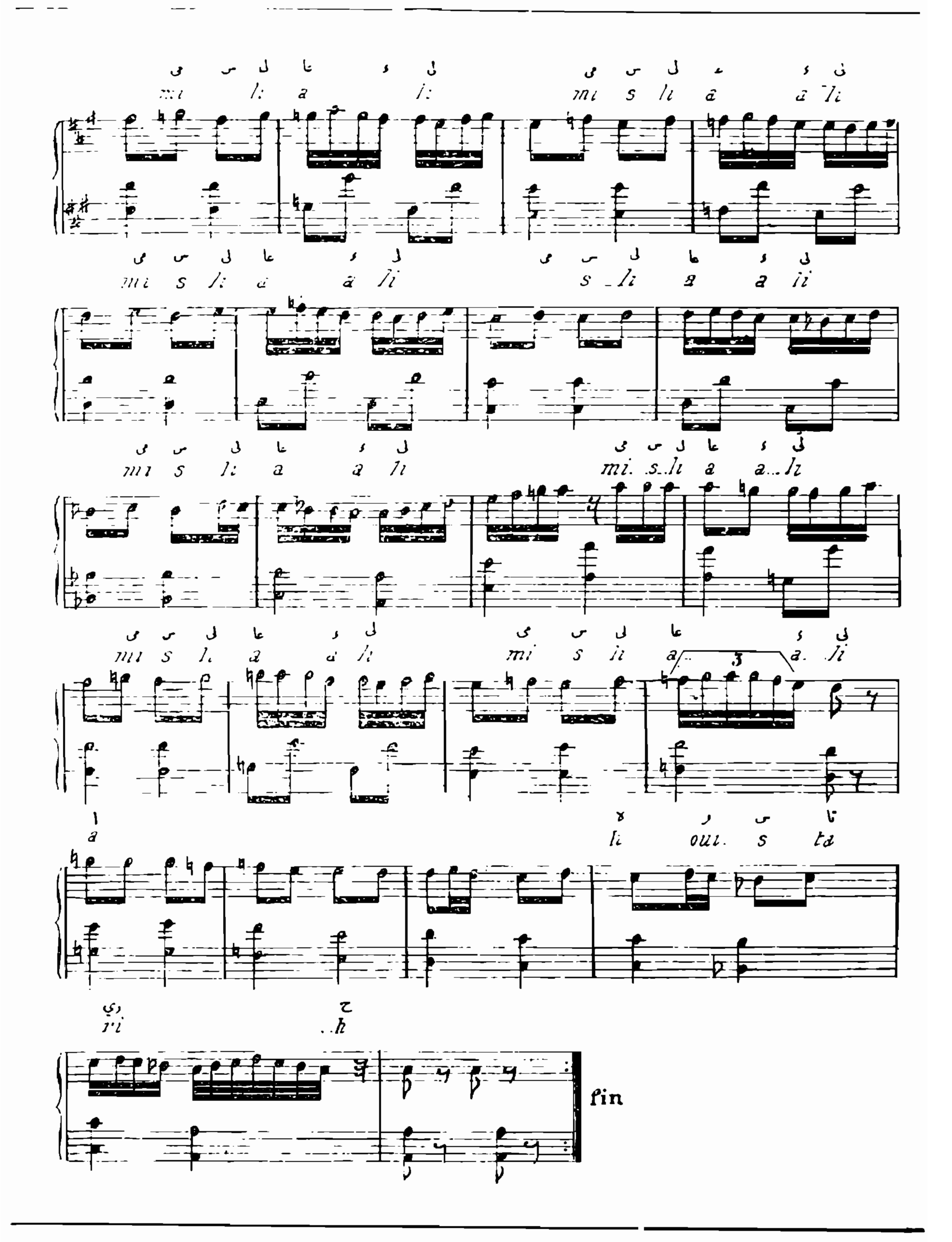


المقام دائماً ولما لم يكن ربع المقام موجوداً على الاطلاق فى العلامات الافرنجية فيستحيل والحالة هذ وضع سكاك التصوير بهذه العلامات »

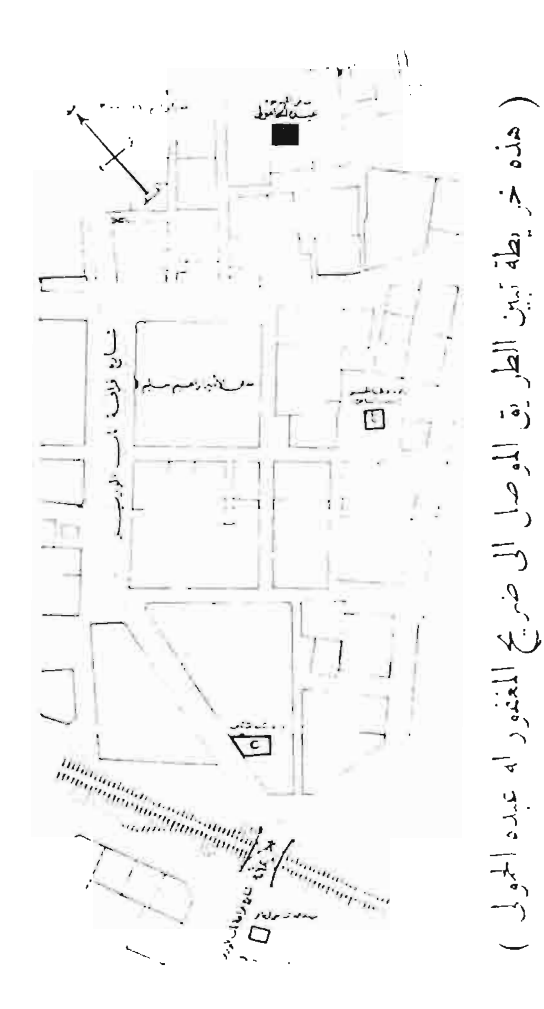
وقد ذكر المقطم تعليقاً عليه



(المقطم) مسألة (ربع المقام) هذه جرى لنا فيها بحث مسهب ومناقشة مستطيلة مع بعض الموسيقيين الامريكيين قبل انتقالنا الى هذا القطر منذ ٢٨ سنة فليست بجديدة على سماعنا ولكننا لا نزال نسأل الموسيقيين الشرقيين ألا يمكنكم استنباط علامة خصوصية لها تضيفونها الى العلامات الافرنجية ليتم بها المقصود



وقد إستنبط الأستاذ منصور عوض علامات مخصوصة اضافية للاستدلال على أصوات ربع المقام فى
لنوتة الموسيقية الافرنجية أجرى تسجيلها بمحكمة مصر المختلطة فى سنة ١٩١٥ وتفضل المقطم الأغر بتقريظها



(هذه خريطة تبين الطريق الموصل الى ضريح المغفور له عبده الحمولى)



(هذا ضريح فقيد الفن المغفور له)
(عبده الحمولى بقرافة باب الوزير)

مصاب الامة الفادح

بفقد الملك فؤاد الأول

ما كدت أتأهب لاهداء كتابي هذا الى الأعتاب الملكية حتى فوجئت الأمة بنبأ أصمّ صداه المسامع واستوكف الأجفان بالمدامع ألا وهو نعي من كان لذمار الوطن حامياً أميناً وللعلوم والفنون كوكباً منيراً وللفضل منهلاً غزيراً ولخير مصر ومجدها نصيراً وظهيراً فيا لهفَ وادي النيل ومائه على فؤاده . فاذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسامها . فالى ذمة الله أيها الراحل العظيم وسيظل اسمك عظيماً في التاريخ كما كنت للشعب المصري رمزاً ومرشداً . هبنا اللهمّ على الرزء فيه صبراً جميلاً يبرّد قلوبنا واشمله بأوسع الرحمات وأسكنه فسيح الجنان ؟

فهرس

اصلاح غلط

صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٨	١١	ومقترفاً	ومفترفا
٢٠	١١	Matluf	Tartuf
٢٢	٦	فية	فيه
٢٢	٩	يروق له	يروقهُ
٢٣	١٩	على عهد	في عهد
٢٦	١	والأدهى من	وأدهى من
٢٧	١	الاثني عشرة سنة	الاثنتي عشرة سنة
١٣٣	٩	اعتداله	اعتلاله
٢٢	٤	تزويج الامير حسن من الاميرة	تزويج الامير حسن بالاميرة
١٢٢	١٠	لم يعفي	لم يمض
٧٧	١٠	مليكهما	مالكيهما
٧٧	٢٣	للفقير	الفقير
٦٦	١٤	ما تعرّفت	قد تعرّفت
٨٩	٤	الذين	اللذين
٤٦	٥	للسماء صانعة	صانعة السماء

